

الدلتـا

عالم العناكب

كولن ولسن

رواية

ترجمة: شكري بكر

عالم العناكب

٢ ـ الدلتا

رواية

ترجمة : فكري بكر

دار الآداب ـ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٩

في المجلد الأول من عالم العناكب

منذ فترة طويلة، هيمنت حشرات ضخمة على الأرض، وحكمتها عناكب سامّة، تتمتع بقدرة هائلة على التخاطر، ربّت البشر لالتهامهم. واشتهر «شيب» سيد العناكب بحجمه الضخم، وبعيونه المليئة، وبأنه خالد لا يموت. قطن البشر القليلون، الذين بقوا أحراراً، في كهوف تحت الأرض في الصحراء، وتعرضوا دوماً لهجمات عناكب الموت، التي تطير داخل مناطيد من الحرير، وتمشط قوة إرادتها الصحراء، مثل كشافات.

كان نيال وأسرته يعيشون في جحر تحت الأرض، سكنته من قبل حنفساء غسرية. استمع نيال من جده «جومار» إلى قصص تلك الأيام، التي كان فيها البشر سادة الأرض، لكنه وجد من الصعب تصديقها. كما استمع إلى قصص عن مدينة «ديرا» الكائنة تحت الأرض، التي تعد أكبر مستوطنة للبشر الأحرار»، وعن الدلتا الكبرى، وهي منطقة غابات تنمو فيها نباتات آكلة للبشر، وحشرات قاتلة.

حين قُتل اثنان من أفراد الأسرة، انطلق نيال وأبوه إلى مدينة ديرا الكائنة تحت الأرض، واجتازا الصحراء، وبرفقتها الحسناء انجيلي ـ التي ترملت ـ ليعيداها إلى ذويها. وفوق الهضبة الكبرى، اتخذوا من أطلال قلعة هائلة ملجأ لهم. وبدأ نيال، للمرة الأولى، يعتقد أن البشر حكموا في يوم من الأيام الأرض. وقابل في ديرا ابنة عمه الفاتنة «دونا». لكنه وقع في حب الأميرة «ميرلو» ابنة الملك كازاك، الذي أغراه بالإقامة في المدينة الكائنة تحت الأرض، لكنه عرف بعد ذلك أن ميرلو تنظر إليه على أنه مجرد صبي. فانطلق عائداً مع أبيه من حيث أتى، وقد غمره شعور بالحنق والإحباط. اتخذا من أطلال مدينة قديمة، ملجأ لهما، وهما في طريق العودة، حين تعرّضا لعاصفة رملية، وعثر نيال هناك على آلة غريبة، ترجع إلى القرن الحادي والعشرين، ووجد بداخلها قضيباً معدنياً متداخلاً، رأى أن بوسعه استخدامه كرمح. وبهذا القضيب، قتل عنكبوت موت، ليجلب على عائلته، وعلى مدينة كازاك، نقمة سيد العناكب نفسه. وعاد ذات يوم إلى الجحر ليجد أباه مقتولاً، وبقية أسرته وقد اختطفتها العناكب.

اقتفى أثرهم، على أمل أن تسنح له فرصة إطلاق سراح أمه وأختيه، لكنه وقع في أسر العناكب، التي اجتازت به البحر، ليصل إلى مدينة عظيمة، كان يسكنها البشر في وقت من الأوقات، لكنها تحولت إلى أنقاض، وانتشرت بين بناياتها الشاهقة أنسجة العناكب. وهناك عرف أن البشر يلقون معاملة أقل سوءاً مما توقّع. فالنساء يحكمن خدم العناكب ـ حيث أن الإناث هن الجنس المهيمن بين العناكب. وأقيمت الحواجز بينهن وبين الرجال، بينما كانت العناكب تأكل العبيد فقط.

كان يوجد في وسط المدينة، البرج الأبيض، الذي شيده قدماء البشر، لغرض ما طوته سنوات النسيان. وفشلت كل محاولات العناكب لاختراق جدرانه الناعمة، التي تشبه الزجاج. وشاهد نيال المحاولة الأخيرة، التي قام بها خدم خنافس المدفعية، يتقدمهم خبير الألغام بل دوجنز، وبدا أن هناك سراً مهماً يكتنف البرج.

أصبح كازاك زعيماً للبشر في مدينة العناكب، من خلال تعاونه مع العناكب. وحين قابل نيال ميرلو مرة أخرى، بدأ يعتقد أنها تحبه. وأخبره كازاك بالحقيقة المرعبة عن مصير خدم العناكب، وعرض عليه أن يكون حليفاً له. ولكنه رفض العرض، بعد أن أدرك مشاعر ميرلو الحقيقية تجاهه.

تعلم سر دخول البرج الأبيض، بمساعدة القضيب المتداخل. اكتشف أنه كبسولة زمنية، تركها قدماء البشر، قبل أن يرحلوا عن الأرض في مركبات فضاء هائلة. وتعلم، خلال الأيام القليلة التالية، تاريخ الجنس البشري من حاسب آلي رسمي «السيد ستيج»، لكنه رفض كشف النقاب عن سر واحد فقط، وهو كيف يمكن للبشر قهر العناكب، وترك له مهمة اكتشافه بنفسه.

اتخذ حيّ العبيد بالمدينة ملجأ له، بعد أن طاردته العناكب. ونجح في أن يصبح مشرفاً على فصيلة من العبيد، الذين قادهم إلى مدينة خنافس المدفعية، التي يطلق عليها العبيد اسم «كراشفيل». كانت الخنافس، التي دأبت على الدفاع عن نفسها بنغث النار الساخن، تقدس المتفجرات، خاصة الأعلى صوتاً. وصل نيال في يوم التفجير، وهو يوم مهرجانات الانفجارات، التي نظمها خبير المفرقعات بل دوجنز. وخلال المهرجان، كسب نيال حليفاً غير متوقع، هو الحسناء «أودينا» القائدة التي أحبته. وحين وصل يوم التفجير في كراشفيل إلى ذروته بكارثة غير منتظرة، وافق دوجنز أيضاً على أن يكون حليف نيال، في مقابل أن يوافق على الذهاب معهم إلى الحصن، وهو عبارة عن ثكنات مهجورة، كائنة في حي العبيد، يأمل دوجنز أن يعثر فيها على متفجرات.

وجـد كميات تفـوق بكثير مـا كان يتـوقعه، ليس المتفجـرات فقط، بل «الحـاصدات» أيضاً، وهي أخطر سلاح اخترعـه الإنسان، بصرف النـظر عن القنبلة الهيدروجينيـة. ورغم حصـار العناكب لهم، إلا أنهم نجحـوا في الهـرب إلى مـدينـة الخنـافس، عـلى متن منـاطيـد عنكبوتية مسروقة، لكن دوجنز اضطر لاستخدام حـاصدةٍ لإفناء جيش من العناكب حـاصر المدينة. وبهروبهم بدأت حرب بين الخنافس والعناكب.

مثلوا أمام حاكم الخنافس ـ السيد ـ لتبرير عصيـانهم. وواجهوا سيـد العناكب، الـذي تحدث من خلال فم أودينا، التي سيطر على ذهنها. وافقت الخنافس على تسليم دوجنـز ليلقى عقابه، لكنها أبدت تحفظات بشأن شرعيـة تسليمها نيـال، باعتبـاره إنسانـاً حراً لـه الحق في الهرب. حاول سيد العناكب، الـذي اعترتـه ثورة غضب، وهـو يرى أن طـريدتـه تفلت من عقابه، خنق نيال. وخلال هـذه المحاولـة، قُتلت أودينا. وقـررت الخنافس، بعـد أن أثارت هذه الخيانة سخطها، أن يبقى نيال حراً. حاول أن يعـبر لها عن شكـره وامتنانـه، لكنه فقـد وعيه. . .

الجزء الأول

المجالس

- ١ -

شعر نيال، حين استيقظ، بالكرب، وبألم في حلقه، كأنه قد ابتلع سيفاً محمّى، بينما أخذت عيناه تؤلمانه بشدة. حاول الجلوس، لكن يداً باردة استراحت فوق جبهته، وأعادته بهدوء للنوم على الوسادة، فبدأ الألم يتلاشى.

وجد، عندما استيقظ في المرة التالية، أن الشمس قد سطعت، وملأت الحجرة بضوء أزرق شاحب. كان يرقد فوق فراش عريض، وذراعاه العاريتان ملقاتان فوق الغطاء. رأى، من خلال الجدار الأزرق الشفاف، شجرة ضخمة ذات أزهار صفراء، حجبت أشعة الشمس عن الحجرة. وكان السقف مكسواً بنقوش تماثل أوراق أشجار خضراء متموجة.

رفع يديه إلى عنقه، فالتقت أصابعه بشيء صلب. كانت رقبته ملفوفة بمادة، بدت مثل صلصال جاف، مثبتة بأربطة. أدرك فجأة أنه عارٍ، وأن مرآة التأمل لم تعد حول رقبته. جلس مذعوراً، ثم رأى ملابسه فوق مقعد بجانب الفراش، ومرآة التأمل موضوعة فوقها، وبجانبها القضيب المتداخل، فتنهد بارتياح.

انفتح الباب، ودخلت سليا إلى الحجرة. ابتسمت حين رأته مستيقظاً.

- أتشعر بتحسن؟

قال بصوت أجش، على نحو غير طبيعي:

- أشعر بتحسن كبير.

ضحكت، وقالت:

- صوتك يذكرني بجدي.

جلست بجواره على الفراش، ووضعت كلتا يديها فوق وجنتيه.

انتابه في الحال ذلك الإحساس المبهج البارد، الذي شعر به أثناء الليل، واختفى الألم من حلقه.

سألها: كيف تفعلين ذلك؟ أتضعين شيئاً ما في يديك؟ أجابت وهي تريه راحتي يديها: لا. إنها قوة انتقلت إليّ من أمي. فعائلتنا تمتلك موهبة المداواة.

شعر وكأنه يطفو فوق مياه جدول تنساب ببطء، تحت فروع أشجار خضراء متقوسة، فترك نفسه يغرق في النوم.

وجد، حينما استيقظ مرة أخرى، دوجنز يقف بجوار الفراش. كانت النافذة مفتوحة، فتناهت إلى مسامعه أصوات الأطفال، وهم يلهون عند النافورة. وقف خلف دوجنز، عجوز اكتسى وجهه، الذي لوحته الشمس، بالتجاعيد والخطوط، وغاصت عيناه الرماديتان الثاقبتان في محجريها. كان يلبس رداء قصيراً رثاً، لونه أخضر باهت، ويحمل كيساً من القماش ذاته.

قال دوجنز: إنه طبيبنا «سيميون».

أومأ نيال، وحيَّا الرجل، بصوت بدا كما لو أنه يخرج من وسط أوراق جافة. حدق سيميون فيه عامداً، بعينيه الرماديتين الغريبتين، اللتين بدتا تشعان نقاط ضوء، ثم أمسك برسغه، ليقيس نبضه، ووضع يده فوق خديه، فانتابه إحساس بوخز خفيف، استمرّ فترة قصيرة. وضع الرجل الكيس فوق الفراش، وأخرج منه مدية قصيرة، لها نصل مدبب ثقيل، وراح يقطع بعناية المادة اللاصقة حول رقبته. تمكن من نزعها، بعد أن أحدث بضعة شقوق طولية عميقة. شعر نيال بالهواء البارد يلفح بشرته المكشوفة. مد العجوز يده، ولمس رقبته بسبابته، مما جعله يجفل.

سأله دوجنز بقلق: ما رأيك؟

رد سيميون بصوت عميق، بدا مثل دمدمة: إنه محظوظ، بوصة أخرى إلى اليمين، وكان الآن في عداد الموتى.

حاول نيال أن يلقي نظرة على رقبته، لكنه وجد أن دلك مستحيل. التقط دوجنز مرآة يد، من فوق طاولة للزينة، وأعطاه إياها. صُدم عندما رأى انعكاس وجهه الملطخ فوق الصلب المصقول. كانت عيناه محتقنتين، وتكسو علامات حمراء وبنفسجية، بدت كالرضوض، وجنتيه، وأحيطت رقبته بعلامات أصابع صفراء وبنفسجية.

سأل دوجنز: ماذا حدث لأودينا؟

ـ دفنّاها هذا الصباح..

ـ هذا الصباح؟

ـ نعم. إنك ترقد هنا منذ أمس الأول. لقد كنت تعاني من حمى.

أخرج سيميون من كيسه قارورة بها سائل بني اللون، وقال لنيال: «افتح فمك!». وعندما أطاعه، أحس بقطرات قليلة من سائل بارد على لسانه. قال الطبيب: «إنه سائل قوي» أغمض عينيك، وحاول ألا تبلعه».

بدا كأن السائل يتحول إلى حريق، بعد أن انتشر في جميع جوانب فمه، ووصل إلى حلقه، فازدادت حدة الألم. أغمض عينيه، وأسند رأسه إلى الوسادة. تحول الألم، بعد لحظات قليلة، إلى شعور دافىء بالنشوة. لم يستطع منع نفسه من بلع السائل، فأدى الدفء إلى تسكين الخدوش في القصبة الهوائية. ثم أحس، فجأة، بكل جسمه يسترخي.

قال كالحالم: يا له من دواء عجيب.
- إنه يسمى «سم ابن آوى»، ويُجلب من الدلتا الكبرى.

فتح نيال عينيه، وقال: هل ذهبت من قبل إلى هناك؟
- مرات عديدة.
- هل ستروي لي أشياء عنها؟
- نعم، ولكن ليس الآن، يجب أن تستريح.

غادرا الحجرة، ليتركاه بمفرده. ولكن رغم أنه شعر باسترخاء عميق، وأصبح الألم مجرد وجع بعيد، لم تعد لديه أية رغبة في النوم، بل راح يفكر في أودينا، وأحس بالاكتئاب لافتقادها. وحين تذكر آخر قبلة تبادلها معها، عندما ترك البيت في طريقه إلى مدينة العناكب، انهمرت الدموع من عينيه، ولم يحاول وقفها، أو مسحها وهي تنحدر على خديه. لقد أصابته وفاة أبيه بصدمة عنيفة، لكنها كانت صدمة صبي شعر فجأة بالوحدة. أما الآن فقد أحس بحزن رجل فقد محبوبته. انتابته حالة من الحنق والإهانة أن يواري التراب امرأة بجمال أودينا، فغرق على مدى ساعة في حالة من الحزن والتشاؤم العميقين. أدرك، في هذه الأثناء، أن الحياة برمتها ما هي سوى خطأ مأساوي، وأن القوى الخفية، التي تسيطر على مصيرنا، تنظر إلينا بنوع من الازدراء. هزته هذه الأفكار بعنف، كما لو كان ينظر إلى هاوية. جرفه النعاس، بعد أن أصابه الملل، في النهاية، من هذه الحالة.

أيقظته سليما، التي كانت تحمل صحفة، وانفرجت أساريرها، حينما رأت أنه قد تحسن.
- لقد تحسنت كثيراً.
- احقاً؟

وضعت المرآة أمامه، فرأى أن الاحتقان قد تلاشى من عينيه، وأن النزيف توقف من وجهه، كما تحولت الرضوض البنفسجية على رقبته، إلى مجرد بقع صفراء بنية.

جلست فوق الفراش، ووضعت الصحفة على حجره، وقالت: جرِّب هذا!

تذوق الحساء الخفيف، فوجده لذيذاً. فوجىء بأنه يستطيع ابتلاعه بدون ألم، لكن قطعة خبز سميكة بنية محببة، مغطاة بزبد أصفر شاحب، آلمته، إلا أن شعوره بالراحة جعله يتجاهل ذلك. غسلت موجة متصاعدة، من الارتياح النفسي، أثناء تناوله الطعام، البقية الباقية من حزنه.

سأل سليما: هل أصابك الفزع عندما حاصرت العناكب المدينة؟

- بالطبع. ولكن هناك آخرين لم ينتبهم الفزع، لأنهم كانوا على ثقة بأن الخنافس ستحميهم. لكنني ترعرعت وسط العناكب، وأعرف مدى خطورتها.

- كيف تمكنت الخنافس من منع العناكب من الاستيلاء على مدينتك؟

بدا السؤال مفاجئاً لها، فقالت: ألا تعرف؟ إنها تستخدم قوة الإرادة. لقد نسيت الاسم الذي يطلق عليها، ولكنها تعني أنها تغلق إراداتها معاً، لتتحول إلى نوع من الشِباك.

- فهمت، العناكب تفعل الشيء ذاته. ولكن كيف عرفت الخنافس أنها ستتعرَّض للهجوم؟

- لقد توقَّعت ذلك. فبمجرّد أن علمت بذهابكم إلى مدينة العناكب لسرقة المتفجرات، عرفت أن العناكب ستأتي إلى هنا.

- وهل تظنّين أنها ستهاجم المدينة مرّة أخرى؟

هزت رأسها، وابتسمت قائلة: لا. ليس الآن، فلدينا الأسلحة الحاصدة.

- أتعرفين ذلك؟

- بطبيعة الحال. فالجميع يعرف ذلك.

حملت الصحفة من أمامه، وقالت: والآن يجب أن تعود للراحة. ثم سألته، وهي تفتح الباب: أهناك أية أخبار عن الرجال في المناطيد الأخرى؟

- نعم لقد عادوا جميعاً سالمين. ورغم سقوط منطاد هاستور في النهر، لكنهم سبحوا حتى وصلوا للشاطىء. كما أعاد ميلو بعض الأطفال الذين عثر عليهم في الغابة.

- أي أطفال؟

- بعض الأطفال من الحضانة بمدينة العناكب.

سألها بلهفة: أتعرفين أسماءهم؟

ألقت عليه نظرة سريعة، غريبة، غامضة.

- ليست بينهم شقيقتاك.

حملق فيها بدهشة، وقال: وكيف عرفت بأمر شقيقتيّ؟

ألقت عليه مرة أخرى، نظرة غريبة، مريبة، ثم غادرت الحجرة، تاركة الباب مفتوحاً. حدق بعد أن مضت، وهو يتساءل عما سيحدث. تناهى إلى مسامعه وقع أقدام في الممر، ورأى فتاة ترتدي رداء أزرق تقف عند المدخل

- دونا!

اندفعت نحو الفراش، ولفت ذراعيها حول رقبته، وقبّلته قبلة طويلة.

كان قد نسي دفء شفتيها المثير، فشعر بأنه لا يستطيع التنفس.

دخلت سليما الحجرة، وقالت بلهجة تأنيب خفيفة: الانفعال مضرّ بصحته، فما زال بحاجة إلى قدر كبير من الراحة.

تركته دونا، وجلست عند حافة الفراش، وهي تقول: أعِدُك بألا أفعل ذلك. رنا كل منهما إلى الآخر، وهما يبتسمان، غير مصدقين أنهما قد التقيا مرة أخرى.

قالت سليما: سأعود بعد بضع دقائق.

غادرت الحجرة، بعد أن أغلقت الباب وراءها بهدوء.

سألها بلهفة: ماذا ألم بشقيقتي؟

تلاشت ابتسامتها، قالت: غادرتا الحضانة منذ يومين. لقد أخبرتني القائدة، التي رافقتهما، أنهما ستذهبان إلى أمهما.

- هل حدث ذلك في يوم التفجيرات؟

- قبل حوالي ساعتين.

لم تكن الأخبار غير متوقعة بالكامل. فقبل ساعتين، كانوا يتفاوضون مع كازاك، ودخلت شقيقتاه ضمن تلك المساومات.

مدت دونا يدها، ولمست يده، قائلة: إني آسفة.

هز كتفيه قائلاً: قد يكون هذا أفضل شيء حدث. فلو أن العناكب تحتجزهما كرهينتين، فإنه من غير المرجح أن تلحق أي أذى بهما.

أغلق ذهنه عامداً أمام المخاوف، التي تحاول غزوه، وقال: ولكن أخبريني كيف هربت؟

ـ عندما وقع الانفجار، كنت في المرجة مع بعض الأطفال. ثم بدأت الأرض تهتز، فخلت أنها هزة أرضية ـ فقد تعرضنا لواحدة في ديرا، مما أدى إلى انهيار بعض الجدران. طلبت من الأطفال الجلوس على الأرض، وألا يخافوا شيئاً. ولكن بدا أن العناكب قد جن جنونها، فقد راحت تجري بطريقة غريبة، كما لو أنها غير واعية بما تفعله، بل إن عنكبوتاً اندفع نحو النهر. أتعرف سبباً لهذه التصرفات؟

ـ نعم. فهناك اتصال بين عقول العناكب، وإذا ما تعرَّض أحدها لضرر، فإن الآخرين يشعرون به. لقد أحسوا بألم موت العناكب الأخرى. ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ أصبحت السماء قاتمة بفعل الدخان الأسود، وراح الأطفال يسعلون. تهشمت نوافذ الحضانة كلها، لكن أحداً لم يصب بأذى على ما يبدو. وغادرت القائدات المكان، على متن القوارب، وعدن عبر النهر. ازدادت كمية الدخان، فاعتقدت أننا سنختنق جميعاً حتى الموت، وطلبت من الأطفال السير خلفي، حتى خرجنا. ولم يحاول أحد إيقافنا، وكانت كل الشوارع خالية، فاتجهنا نحو التلال.

ـ ولكن إلى أين كنت تأملين الوصول؟

ـ لم أكترث. كنت أريد الهرب فقط من العناكب. فواصلنا السير حتى وصلنا إلى المزارع. وبعد فترة شعر الأطفال بالإجهاد والجوع. لكننا وجدنا بستاناً به أشجار تفاح وبرقوق، وجدول ماء، فاسترحنا لمدة ساعة، ثم قالت لي طفلة إنها رأت منطاداً عنكبوتياً، فزحفت إلى أن وصلت لحافة البستان، وتطلعت. رأيت أن هناك رجالاً في المنطاد، يرتدون ملابس صفراء فعرفت أنهم خدم الخنافس. أخذنا نتابع المنطاد حتى بدا أنه سقط فوق أشجار كثيفة. ثم طلبت من الأطفال أن يسيروا وسط الحقول، حتى وصلنا إلى الغابة. رحنا نصيح جميعاً، فأقبل الرجال، وأعادونا إلى هنا.

ـ أكانت الرحلة طويلة إلى مدينة الخنافس؟

ـ ليس كثيراً، ولكنها استغرقت وقتاً، نظراً لأننا كنا نضطر إلى الاختباء من العناكب. لقد رأينا الكثير منها في الحقول، واعتقدنا في البداية أنها تبحث عنا. ثم كدنا نصطدم بواحد منها، حيث خرج فجأة من خلف الأشجار، لكنه لم يتمكن حتى من رؤيتنا. لقد شعرت أنه يعاني من شيء.

ـ كيف؟

ـ كان يسير كما لو أنه مصاب بدوار أو بجرح، أو بانهاك شديد. . .

انفتح الباب، ونظرت سليما داخل الحجرة، وقالت:
ـ ينبغي أن يخلد للراحة الآن.

ردت دونا قائلة: «ليكن»، وحيته بابتسامة، ومضت. عندئذ أدرك أنه يشعر بإجهاد بالغ. حاول التفكير فيما قالته دونا، ولكن كان من المستحيل عليه أن يجعل ذهنه يركز في شيء. لكن معرفته بأنها باتت في أمان، غمرته بالسعادة، وظل يفكر فيها إلى أن استغرق في النوم.

ثم حلم بأنه يحلق فوق مدينة العناكب، على متن منطاد. كانت هناك رائحة شيء يحترق في الهواء، ورأى الدخان يتصاعد من داخل البيوت المحترقة، في حي العبيد. كان الدمار هائلاً، فقد تحول شارع إثر آخر إلى أنقاض. بدت ساحة البلدية مرئية بوضوح، بمروجها الخضراء، ولكن البناء نفسه تحول إلى انفاض، باستثناء جدارين متهالكين، كانا ما يزالان على حالهما. وإلى الجنوب، حيث توجد الثكنات، أصبح هناك الآن امتداد من المياه المتصلة بالنهر، من خلال قناة عريضة وعرة. رأى، وهو يمر فوقها، جثث العناكب تطفو فوق سطح مياهها العكرة.

عبر المنطاد النهر، ومر فوق البرج الأبيض مرتفعاً عنه ببضعة أقدام. بدا معظم البنايات في هذا الجزء من المدينة غير متهدم، لكن الشوارع كانت مكسوة بالزجاج المتهشم. مر بالقرب من قصر كازاك، ومال برأسه خارج المحل، في محاولة للنظر إلى داخله، من خلال نوافذه. سمع، عندما فعل ذلك، صوت أمه يناديه باسمه. رفع يديه وهو يصيح: أنا هنا! أين أنت؟ تردد صوتها مرة أخرى، وهي تقول: «هنا في حجرة النوم». بدا الصوت في غاية الوضوح، كأنها تبعد عنه بضعة أقدام لا أكثر.

استيقظ جافلاً، ونظر حوله في أرجاء الحجرة، متوقعاً رؤيتها. كان الغسق قد حل، والحجرة خالية. شعر للحظة، برغبة في البكاء من الأسى والإحباط. أدرك، فجأة، وهو يحدق في السماء البنفسجية خارج النافذة، وجودها. رآها، بمجرد أن أغمض عينيه وركز ذهنه، جالسة القرفصاء على أرضية حجرة نومها في قصر كازاك، وعيناها مغمضتان أيضاً. جرى اتصال بين ذهنيهما، وأحس بالسعادة والراحة، وهو يتلقى رسالتها بأنهم في أمان. لكن تركيزه خف، عندما حاول أن يرسل إليها صورة عن وضعه؛ فقد كان عقله ما يزال متخدراً بفعل النوم. وانتهى الاتصال، وأصبح بمفرده.

نظر دوجنز بحذر من خلال الباب، وقال:
ـ أتشعر بتحسن؟

ـ أفضل كثيراً. أشكرك.

ـ بالقدر الذي يسمح لك بحضور اجتماع؟

خفق قلبه شدة، وقال: اجتماع آخر للمجلس؟

ـ لا. مجرد اجتماع بشري هذه المرة. ولكني في حاجة لمساندتك.

فاجأته الفكرة، فقال: مساندتي؟

ـ إنه مجلسنا المدني. لقد علمت أنهم يعتزمون توجيه اللوم لي.

ـ وهل سيغير هذا من شيء؟

ـ نعم. بإمكانهم أن يأمروني بتدمير الأسلحة الحاصدة.

ـ ألن يكون هذا تصرفاً أحمق؟

تناهى إلى مسامعهما طرق خفيف على الباب، قبل أن يتمكن دوجنز من الرد، ودخلت سليما، حاملة مصباحاً غمر ضياءه الحجرة. وضعته فوق الطاولة، وانصرفت. حدق نيال فيه بدهشة.

ـ ما هذا؟

ـ إنه مصباح ضغط بسيط، وهو نوع من الأسرار العائلية. لقد اخترعه جدي منذ ثمانين عاماً، ولكن لم يُسمح لنا مطلقاً باستخدامه.

ـ ولم لا؟

هز كتفيه اشمئزازاً، وقال: الحشرات تقول إنه آلة.

ـ وكيف يعمل؟

نقر دوجنز على الكرة المعدنية اللامعة عند قاعدة المصباح، وقال: إنه يحتوي على الزيت، الذي تقوم مضخة بدفعه في هذا الأنبوب، ثم يتبخر عندما يصل إلى هذا الغطاء المخرم الخزفي. إنه بسيط حقاً!

حدق نيال بانبهار في المصباح. لم يكن التصميم هو الذي أثار فضوله، بل إحساسه بأنه مألوف بالفعل لديه. ثم أمده حدس واتاه سريعاً بالرد. لقد زرع السيد ستيج في ذاكرته هذه المعرفة، مثل قدرته على القراءة. استدعى، حين أدرك ذلك، أشياء عديدة أخرى من المعارف، التي ترقد في سُبات، في أعماق ذاكرته. واجه، لبضع ثوانٍ، إحساساً بالحيرة، كما لو أن هويته قد تعرضت فجأة للشكوك.

مدَّ دوجنز يده في درج، وقال: وهذا شيء آخر من المعرفة المحظورة. وألقى بكتاب فوق

الفراش. قرأ نيال العنوان «مبادىء الإلكترونيات»، ثم قال: «ولماذا يُحظر؟».

ـ لأن الكتب محظورة. تنص المادة الحادية والعشرون من معاهدة السلام على «أن كل من يطبع أو يوزع كتاباً سيتعرض للإعدام». وبالتالي فإن معظم الكتب موجودة في المتاحف، حبيسة صناديق زجاجية.

ـ ولكن هل بإمكانك القراءة؟

ـ بالطبع. معظمنا يستطيع القراءة. إنه سر ينتقل من الأب إلى الابن. ولكن إذا ما عرفت العناكب ذلك، فسنتعرض للمتاعب. لقد اكتشفت منذ عشرين عاماً أن هناك رجلاً بيننا يستطيع القراءة، وهو عجوز في التسعين من عمره، فأصرت على إعدامه.

ـ وهل وافقت الخنافس؟

ـ لم يكن أمامها بديل آخر؛ فالمعاهدة تنص على ذلك.

راح نيال يتصفح الكتاب، وهو يشعر بالحيرة أمام الرموز الرياضية.

سأله دوجنز بصورة عرضية: مَن علمك القراءة؟

ـ كيف عرفت أنني أستطيع القراءة؟

ـ أرى عينيك تنتقل بين السطور. مَن علمك؟

ندّت عن نيال ابتسامة عريضة، وقال: آلة.

ألقى دوجنز عليه نظرة متسائلة، وقال: الآلة ذاتها التي أعطتك أقراص الطعام؟

ضحك نيال لفطنته، وقال: هذا صحيح.

ـ وأين هذه الآلة؟

ـ في البرج الأبيض.

اتسعت عينا دوجنز، وقال: أجادٌ أنت؟

أومأ نيال بالإعجاب، فقال دوجنز: هل كنت هناك؟

ـ نعم.

امتقع وجه دوجنز فجأة، وقال: وكيف دخلت البرج؟

مال نيال، والتقط القضيب المتداخل، الذي كان موضوعاً فوق ملابسه، وقال: «بهذا». ثم ضغط على الزر، فتمرد. سلمه إلى دوجنز، قائلاً: هل تشعر بشيء؟

ـ نوع من الوخز.

حاول دوجنز التحدث برباطة جأش، ولكن ارتعاشة يده وشت بانفعاله.

ـ أين عثرت عليه؟

ـ في الصحراء.

وراح نيال يصف الطريقة التي احتموا بها من العاصفة الرمليّة التي أدَّت إلى تعرية المدينة الصحراوية. ولما وصف له الآلة المتألّقة، أومأ دوجنز، وقال: «إنه جندب، وهو الشكل الرئيسي لوسيلة النقل للمسافات الطويلة في نهاية القرن الحادي والعشرين». نظر إلى القضيب في يديه، وأضاف: «لكنني لم أرَ مطلقاً واحدة منها من قبل. آسف. . . واصل قصتك».

تزايد انفعال دوجنز، عندما راح نيال يصف الطريقة التي وجد بها نفسه داخل البرج، ومن الواضح أنه وجد من الصعب الجلوس دون حراك. احمر وجهه بعد أن كان شاحباً. وجد نيال أن باستطاعته الشعور بهذا الانفعال يشع من دوجنز، مثل قوة مادية، ورأى أن ذلك يثير اضطرابه وإجهاده. وشعر بالارتياح، حينما قاطعه دوجنز، وهو يصف السيد ستيج.

ـ ذلك يثبت أنني على صواب! يقول جلورفن: «يتعين أن نشعر بالرضا لبقائنا على حالنا. . .»

ـ جلورفن؟

ـ زعيم مدينتنا، رئيس مجلس المدينة. يقول: يجب أن نكون راضين، ونحن نخدم الخنافس، ونعيش حياة آمنة. ولكن ما السبب الذي جعل القدماء يراكمون كل تلك المعرفة، إذا لم يكونوا راغبين في أن نستغلها؟

ـ إنهم كانوا يريدون منا أن نستغلها، عندما نكون على استعداد لذلك.

قال دوجنز بصبر نافد: نحن على استعداد الآن. وقد كنت على استعداد طوال حياتي.

هز نيال رأسه، وقال: لقد أخبرني العجوز أن هناك بعض الأشياء لا يستطيع أن يطلعني عليها ـ أشياء يتعين عليّ أن أكتشفها بنفسي. . .

ـ ما هي هذه الأشياء؟

ـ الطريقة التي نهزم بها العناكب، على سبيل المثال.

قال دوجنز بانفعال وصل إلى الذروة: لقد عرفنا ذلك بالفعل. ما هي الأشياء الأخرى.

هز نيال رأسه، وقال: لا أستطيع تذكّرها. ولكنه يعتقد أن هناك أشياء معينة يتعين عليّ تعلمها بنفسي.

وقف دوجنز، وراح يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، وتجسد الانفعال في ظله الأسود الذي عكسه المصباح، ثم قال: «بطبيعة الحال، إنه الأمر ذاته مع أي شيء - إننا لا نعتز بالشيء الذي نحصل عليه بسهولة. لكنني دأبت على انتظار هذا طوال حياتي. . .».

قرع الباب، فقال دوجنز: اللعنة!

تطلعت سليبا إلى داخل الحجرة، فقد كانت تشعر بالحيرة من كل هذا الصياح، ولا تعرف له سبباً.

قالت: لقد وصل أعضاء المجلس، وهم في حجرة الطعام. زمجر دوجنز وهو يحاول السيطرة على أعصابه: «يا لها من لحظة تلك التي يقاطعوننا فيها. ليكن، أبلغيهم بأننا سنأتي في غضون بضع دقائق.

فتح درجاً، بعد أن خرجت سليبا، وقال لنيال: ارتد هذا! وأعطاه رداء أصفر قصيراً، من ذلك الذي يرتديه خدم الخنافس.

ارتدى نيال الرداء بسرعة، وعلق مرآة التأمل حول رقبته. لاحظ، عندما فعل ذلك، الحبل حول رقبة دوجنز.

- ما هذا؟

ابتسم دوجنز ابتسامة غريبة، وسحب من تحت ردائه مرآة تأمل، مماثلة تقريباً للمرآة التي يضعها نيال حول رقبته، إلا أن لونها فضيّ. فهم نيال فجأة الوضع.

- ذلك هو السبب الذي جعلني أفهم ما تشعر به. لقد وجهت ذلك الشيء نحوي.

حملها دوجنز في يده، وقال: لقد استعرتها من المتحف. قل لي، هل تجعلك تشعر بالإجهاد؟

- يحدث ذلك في البداية، ثم تتعود عليها.

- الحمد لله على ذلك. إنني أظل أشعر بالإرهاق طوال اليوم. هل حصلت على مرآتك من البرج؟

- نعم.

- اتسمح لي بأن أجربها؟

سلمه نيال مرآته، وأخذ مرآة دوجنز في المقابل. أحس بالفرق، بمجرد أن وضعها حول رقبته. بدت هذه المرآة في البداية، أقوى بكثير، ثم أدرك أنها ليست مرآة قوة. فهي، مثل مرآته، تحول القوة إلى أشعة مركزة، عندما تُقلب إلى الداخل، وتبث التركيز للخارج،

حين تقلب على الجهة الأخرى. ولكن هناك شيئاً قاسياً وعنيفاً في قوتها، مثل شخص يصدر أمراً. وجد أن وضعها لبضع لحظات فقط، يصيب رأسه بصداع شديد.

قال دوجنز: هذه لا تبدو قوية.

ثم أعادها إلى نيال، الذي وضعها في جيب ردائه، بدلاً من أن يعلقها حول رقبته. فقد أوحت إليه غريزته بأن مرآة التأمل ستشكل عقبة في طريق شفائه، وهو في هذه الحالة من الضعف.

أخذ الأطفال يحملقون فيه من الأبواب، وهو يسير خلف دوجنز في الممر، فعرف أنه موضوع لفضول الكثيرين منهم.

دخلا حجرة رحبة، كانت أهم قطعة أثاث فيها طاولة لامعة بيضاوية الشكل، تتسع ليجلس حولها نحو عشرين شخصاً، وقد انشغل معظم المقاعد. تعرف نيال على ثلاثة وجوه فقط، هم ميلو، أوليس، وسيميون، وهو الطبيب الذي عالجه

وقف الجميع، حينما دخل دوجنز الحجرة، لكن نيال لاحظ أن هذا يعكس تحية رسمية محضة. اقتعد دوجنز كرسياً في نهاية الطاولة، وطلب من نيال أن يجلس بجواره.

تنحنح رجل قصير، ذو لحية رمادية اللون، يجلس عند الطرف الآخر للطاولة، وقال: أرجو المعذرة، لكن هل يُسمح للأجانب بالمشاركة في اجتماعات المجلس الرسمية؟

رد دوجنز: لقد قال جلورفن بنفسه إنه يريد استجواب ضيفنا. وسيكون من الصعب تحقيق ذلك إذا لم يكن موجوداً.

احمر وجه الرجل القصير، وقال: أهناك أي سبب يحول دون انتظاره بالخارج، حتى نكون على استعداد لاستجوابه؟

احمر وجه دوجنز، وحملق فيه بغضب قائلاً: نعم يا «بايبس» ثمة سبب. إنه رجل حر، وليس هناك ما يجبره على الانصياع لأسئلتنا، وبمقدوره الانسحاب، وهو يسبنا جميعاً. وعلاوة على ذلك فإنه ضيفي.

امتقع لون الرجل القصير، ونكس عينيه أمام ثورة دوجنز. تنحنح الرجل الذي يجلس بجواره، وهو رجل طويل أصلع، له وجه شديد الشحوب، ووجنتان غائرتان ـ وقال باقتضاب: «حُسم الموضوع. ولنبدأ الاجتماع». ولكن كان من الواضح أنه يشعر بالاستياء.

نكس دوجنز عينيه فوق الطاولة، كما لو أنه يقبل التوبيخ، لكن اتضح من شكل فمه المطبق، أن مزاجه متعكر.

قال الأصلع: هل لك أن تقدم لنا ضيفك، قبل أن نبدأ؟

رد دوجنز: اسمه نيال، وهو قادم من منطقة الشمال «خابياد» الصحراوية.

قال رجل بدين، غطت رأسه عقصات مشدودة من الشعر الأشقر:

ـ هل أكون مصيباً إذا افترضت أنه العبد الهارب، الذي تبحث عنه العناكب؟

نظر إليه دوجنز شزراً، وقال: الافتراضان خاطئان يا «كوربن». فهو ليس عبداً، لأنه ولد حراً. وهو ليس هارباً، لأنه جاء إلى هنا بغير ارادته، وبالتالي له كل الحق في الهرب.

ندت عن كوربن ابتسامة باهتة، وقال: ألا يكون هذا بمثابة حكم مسبق على القضية؟

هز دوجنز رأسه، وقال: كلا. أنت الذي تريد أن تصدر حكماً مسبقاً.

تدخل الرجل الأصلع، وقد نفد صبره: لنوقف هذه المشاحنات! فالسؤال الذي نريد أن نعرف له إجابة هو ببساطة: هل خرجت عن القانون؟ هل تجيب بنعم أم لا؟

نظر إليه دوجنز، للحظة، قبل أن يردّ قائلاً: لا يا جلورفن، لم أخرج عن القانون.

حدق جلورفن فيه بنظرة استنكار، وبدا واضحاً أنه قد تضايق من لهجة دوجنز.

ـ من الصعب تصديق ذلك. ألم تتزعّم حملة إلى مدينة العناكب؟

أومأ دوجنز قائلاً: بلى.

ـ هل حصلت على إذن من هذا المجلس، أو من مجلس سادتنا؟

ـ لا.

ـ إذن، فقد خرجت عن القانون.

هز دوجنز رأسه بشدة، وقال: لا أستطيع الموافقة على هذا. فقبل ساعتين من انطلاقنا من حي العبيد، وضع نائب كبير الوزراء يده فوق رأسي، وقال لي، إنه يعتبرني من الآن واحداً منهم. وذلك يعني أنه قد رفعني إلى رتبة سارلاب شرف، وهو ما يعني حصولي على حق اتخاذ قراري بدون مشاورة هذا المجلس.

قاطعه بايبس قائلاً: أهذا يعني منحك الحق في اتخاذ قرار شنّ حرب ضد حلفائنا؟

ـ لم تكن هناك حرب ـ كل ما حدث هو دفاع عن النفس فقط. وبإمكان ميلو وأوليس أن يقصا عليكم ما حدث.

قال جلورفن: لقد روى لنا ميلو وأوليس قصتهما. ونرغب الآن في الاستماع إلى قصتك قبل الحكم عليها.

رد دوجنز: وهو كذلك. جميعكم يعرف أن مخزوني بالكامل من المتفجرات قد دمره حادث.

قاطعه رجل قصير ذو وجه حاد، قائلاً:

- هل هذا الحادث هو الذي أدى إلى ترقيتك؟

- نعم.

- إذن فإن ترقيتك قد تمت بناء على ادعاء كاذب؟

بدا دوجنز في غاية الهدوء، وقال: نعم، إذا كنت تريد أن تفسر الأمر هكذا يا «زوراب».

أومأ الرجل القصير، وقال: طيِّب! استمرّ، أرجوك.

- شكراً. لقد وجدت نفسي في وضع الرجل المسؤول عن التفجيرات بدون متفجرات تجعلني أواصل مهمتي. عندئذ اتخذت قراري بالبحث عن المتفجرات في ثكنات حي العبيد، لأنني أعرف أنه عادة ما توجد أسلحة في أماكن الثكنات. وكان هذا هو دافعي الوحيد، الذي جعلني أقود حملة إلى حي العبيد. أتفق معكم على أنه كان قراراً متهوراً، ولكنني شعرت بأن لي الحق في اتخاذه. لم أكن أعتقد أن هناك أي خطر. فلو كان قد أُلقي القبض علينا، كنا سنكشف عن هويتنا كخدم للخنافس، وكنت سأتقبل أي عقاب تقررونه. وقد وافق جميع من جاء معي على ذلك، قبل أن ننطلق. لقد وقعنا في خطأ خطير، وأنا على استعداد لتقبل أي لوم على ذلك. ووجدنا أنفسنا مضطرين، ونحن نحاول الهرب، إلى الدفاع عن أنفسنا ضد العناكب. وأنا آسف على هذا، ولكن لم يكن هناك مفر. فوظيفتي تحتم علي عدم تعريض المزيد من شعبنا للقتل. لقد فقدنا ثلاثة، ولم أكن مستعداً لفقد أكثر من ذلك.

ثم عاد دوجنز إلى الجلوس فوق مقعده، ونكس عينيه مرة أخرى. ساد صمت طويل. بدا أن الجميع قد اقتنع بالرواية، بل إن نيال اقتنع بها، رغم معرفته بأن قوة الحجة التي ساقها ترجع إلى مرآة التأمل، وليس إلى الكلمات التي تفوه بها.

تنهد جلورفن، وقال: إذن فإنه يبدو أن مشكلتنا الأساسية هي أن نبحث عن طريقة نقنع بها العناكب، بأن ما حدث لم يكن حرباً متعمدة.

تساءل زوراب بريبة: وهل تظن أن هذا ممكن؟

رد جلورفن الذي بدا عليه الاضطراب: لا أعرف، ولكن لنحاول على الأقل.

تركّزت عيناه على نيال، وكذلك كورين.

ـ قد يكون من الضروري، بطبيعة الحال، أن نبدأ بتسليم العبد الهارب إلى العناكب، فهذا سوف يظهر حسن نوايانا.

حملق دوجنز فيه، ببرود شديد، وقال: لقد رفض السيد نفسه ذلك، فما الذي يجعلك تفكر في اتخاذ موقف مضاد لقراره؟

احمر وجه كوربن، ونكس عينيه.

هز جلورفن رأسه، وقال: ومع ذلك، فإنه ينبغي علينا الوصول إلى قرار ما. ويتعين أن نكون واقعيين. ففي الوقت الحالي، نحن في حالة حرب فعلية مع العناكب، وهو أمر لا يجب أن يستمر.

نظر دوجنز إليه، وقد ندت عنه ابتسامة، ثم قال: أتعني أنك تعتزم أن تكون تحت رحمتها؟

ـ وهل لديك أي اقتراح أفضل من هذا؟

لم يشعر نيال بشيء سوى الاعجاب بصبر جلورفن، ورباطة جأشه. تلفت دوجنز حوله، وقال: نعم، أقترح أن نبدأ في قبول الوضع الحالي.

بدا الذعر على وجه جلورفن، ووجوه معظم الحاضرين، وقال: أتريد منا أن نظل في حالة حرب معها؟

كان من الواضح أنه يظن أن دوجنز قد جُنّ.

تلفت دوجنز حوله مرة أخرى، وأدرك نيال أنه يستخدم قوة مرآة التأمل لإضعاف مقاومتهم، وقال: لا. أريد أن يعود السلام. ولكن ليس بالشروط السابقة ذاتها. إنكم تعرفون أن معاهدة السلام أعطت كل المزايا للعناكب، وأرغب في أن نحصل على هذه المزايا.

التفت دوجنز نحو الباب، ونادى: سليها!

انفتح الباب، ودخلت سليها حاملة مصباح الضغط، فبدا واضحاً أن الأمر قد تم ترتيبه مسبقاً. غمر ضوءه الأبيض الوهّاج كل أركان الحجرة، مما جعل ألسنة اللهب الضئيلة للمصابيح الزيتية تفقد أهميتها. وضعته سليها في منتصف الطاولة، واستدارت منصرفة.

حدق بايبس في المصباح مذعوراً، وقال: «هل أصابك مس من الجنون؟ إنك تخرق القانون».

ندت عن دوجنز ابتسامة ماكرة، وقال: قانون ضد الإضاءة؟

- تعرف أن ذلك ضد شروط معاهدة السلام.

تنهد دوجنز، وقال: إذن قد يكون الوقت حان لإعادة التفاوض بشأن معاهدة السلام.

حدَّق جلورفن فيه بصرامة، وقال: يبدو أنك غير متفهِّم تماماً للموقف. إن مشكلتنا تكمن في إقناع العناكب للعودة إلى السلام، و. . .

حاول جاهداً العثور على الكلمة، فقطب دوجنز بخبث، وقال: والتسامح معنا؟

رد جلورفن بتحدٍ: نعم، والتسامح معنا. لقد ارتكبنا جرماً خطيراً ضد حلفائنا. وتريد أن تزيد الطين بلة، بمحاولة إجبارها على تغيير المعاهدة، وهذا أمر ليس له أية علاقة بمشكلتنا.

إلا أن عيني دوجنز المحدقتين فيه، جعلتا صوته يفتقر إلى الاقناع

هز دوجنز رأسه، وقال: لا أجد سبباً لذلك.

رد كوربن بعصبية: الأفضل أن توضح لنا ما يدور في دهنك.

مال دوجنز للأمام، واضعاً يديه فوق الطاولة، وقال: نعم، بكل سرور، وسأكون واقعياً. إنكم تسعون إلى معرفة السبل التي تؤدي إلى إعادة الساعة للوراء، وتريدون العودة للوضع الذي كنتم عليه قبل أسبوع. أقول لكم هذا مستحيل، فالعناكب لن تغفر لكم، ولن تنسى. إنها على استعداد لإقامة سلام، بطبيعة الحال - فهي لا تريد خوض أية حرب أخرى. ولكنه لن يكون سلاماً حقيقياً، فقد عرفت الآن أننا خطرون، ولن يهنأ لها بال قبل أن تقتلنا، أو تستعبدنا. إنها ستنتظر حتى تتهيأ لها فرصة أخرى لمهاجمتنا، وسوف نتيح لها هذه الفرصة، عندما ندمر الأسلحة الحاصدة. وسوف فصبح عُزّلاً، بمجرد أن نفعل ذلك.

هز جلورفن رأسه، وقال: إن لديها أكثر من سبب لمهاجمتنا، إذا لم ندمر الأسلحة الحاصدة.

قطب دوجنز، وقال بسخرية: ربما سيكون لديها أكثر من سبب، لكنها لن تجرؤ على مهاجمتنا.

بدت الصدمة على ملامح جلورفن، الذي قال: إذن فأنت تقترح أن نبقى أعداء.

حدق دوجنز فيه، وقال: دعني أكون في غاية الوضوح إزاء ما أقترحه.

صمت لفترة طويلة، ثم أضاف: إن العناكب تعامل الخنافس على قدم المساواة. وأعتقد أن الوقت قد حان لاقناعها بمعاملتنا بالطريقة ذاتها.

هز بايبس رأسه وقال: هذا مستحيل. أتتوقع منها أن تطلق سراح كل عبيدها وخدمها؟

تطلع دوجنز إليه بجدية، وردّ: إنها ليست مضطرة لذلك، فخدمها يعتقدون أنهم يتمتعون بالحرية بالفعل. ولكنك تعرف ـ مثلما أعرف ـ ما يحدث عندما ترسلهم إلى أرض السعادة الكبرى، أليس كذلك؟

هز بايبس رأسه، وقال: هذه مجرد إشاعة.

ـ تعني أنك تفضل الاعتقاد بأنها مجرد إشاعة. إنك تعرف ـ مثلي ـ أنها الحقيقة.

بدت التعاسة على وجه بايبس، وأحس نيال أنه غير مقتنع، لكنه شعر بأن اقتناع دوجنز يحمله على تغيير رأيه.

قال دوجنز ملطفاً الجو: فلنترك مناقشة ذلك. إنني أتحدث عما سيجري لنا. لقد دأبتم على خرق المعاهدة، منذ أن كنتم في الخامسة من عمركم؛ فبإمكانكم جميعاً القراءة، كما أنكم تخبئون الكتب في الأقبية بمنازلكم. وذلك ضد المعاهدة. ألستم ترغبون في أن يتعلم أحفادكم القراءة في المدرسة، بدلاً من التعلم في السر؟

قال جلورفن بصرامة: يبدو أنك تبالغ؟ هل يهم المكان الذي نتعلّم فيه القراءة، طالما أننا نتعلم؟ أنرغب حقاً في مصابيح مثل ذلك المصباح، طالما بوسعنا امتلاك ما نشاء من المصابيح الزيتية؟ إننا نتمتع بالفعل بالقدر الذي نريده من الحرية.

قال دوجنز: كما تريد؟

ـ نعم، كما أريد، وكما تريد عائلتي. لِمَ لا نترك الأمور على ما هي عليه؟

ندت عن دوجنز ابتسامة مصالحة، وقال: أتفق معك في هذا. إنني أود أن أترك الأمور كما هي، أو بالأحرى، كما كانت. ولكن ليس بمقدورنا ذلك. لقد تغيرت الأشياء، وعلينا أن نعترف بذلك.

خفض صوته، ونقر على الطاولة بأظافره، وقال: إن العناكب ستقدم تنازلات، لمجرد إحلال السلام. لقد قتلنا العشرات، وربما المئات منها. وبمقتضى قانونها، فإنه يتعين تسليمنا جميعاً لها، وكذلك زوجاتنا وأطفالنا، لإعدامنا. بل إن ذلك لن يكفيها ـ فالعناكب

تقول إن واحداً منها يساوي مائة إنسان وإذا ما أرادت قيام سلام، فإنه يتعينَّ عليها أن تنسى كل هذا. إذن لِمَ لا نستغل الفرصة لنجعلها تغيِّر معاهدة السلام؟

ساد صمت، وظلَّت عينا دوجنز تحدِّقان فيهم، للتأثير عليهم.

ثم نظر جلورفن إلى نيال، وقال: أود سماع رأي ضيفنا.

جفل نيال، وألقى بنظرة متسائلة على دوجنز، ثم أدرك أنه قد بدأ يعامله، مثل الآخرين، كزعيم.

قال: لست متأكِّداً أن رأيي سوف يكون مفيداً لكم. فقد قضيت معظم حياتي مقيماً في حفرة بالصحراء، مختبئاً من العناكب. لقد قَتَلت أبي، وأسرت أسرتي. وكل ما أريده هو أن أرى العناكب وقد أُطيح بها.

كاد أن يضيف قائلاً: وبذلك يمكن أن يصبح البشر سادة الأرض من جديد»، لكنه أحجم، حيث أدرك أن مثل هذا القول قد يصدمهم نظر جلورفن إلى دوجنز، وقال: نعم. أستطيع تفهم ذلك. وهل هذا هو ما ترغب أنت أيضاً في تحقيقه؟

فكر دوجنز ملياً قبل أن يجيب: ذهنياً، نعم. فأنا لم أحب العناكب مطلقاً، لكنني أعرف أن ذلك ليس عملياً، ولذلك فإنني أقترح أن نطلب منها تغيير معاهدة السلام فقط.

تلفت جلورفن حوله متطلعاً إلى الوجوه، وقال: كم عدد الذين يؤيدون ذلك الرأي؟

رفع ميلو وأوليس أيديهما، وفوجىء نيال بسيميون يفعل الشيء ذاته، بعد أن كان يصغي إلى المناقشة، وقد كسا وجهه تعبير غامض.

تساءل جلورفن: وكم عدد المعارضين؟

رفع الآخرون أيديهم.

قال جلورفن: «سبعة عشر إلى ثلاثة». ونظر إلى دوجنز، وقال: «أنا آسف. لقد عرضت قضيتك بمهارة، لكن غالبية المجلس تجدها غير مقنعة. علينا أن نقرر الآن أي إجراء يتعين اتخاذه».

بدأ بعض أعضاء المجلس يزيح مقاعده إلى الوراء، فقال دوجنز: «لحظة واحدة، من فضلكم، لدي اقتراح قد يحل المعضلة». فانتظر الجميع. ثم سادت فترة صمت طويلة، وأدرك نيال أن فنون الخطابة قد عادت إليه بشكل طبيعي. قال دوجنز: تريدون اقناع العناكب بنسيان ما حدث، وأعتقد أن هذا مستحيل. وليست لديّ رغبةٌ، على أية حال، في

النسيان. وأعتقد، مثل نيال، أنه يجب أن يصبح البشر أحراراً، ولا أستطيع العيش هنا إذا ما استسلمنا للعناكب. إذن فإنني أعتقد أن أفضل حلّ، بالنسبة لي، هو أن أرحل

نظر جلورفن إليه، كما لو أنه لا يصدق ما تسمعه أذناه، وقال: ترحل؟

ـ نعم، هذا صحيح. أترك هذا المجتمع، وأرحل إلى مكان آخر. إنني أعرف أماكن عديدة فيما وراء البحار، نكون فيها آمنين من العناكب. وأنا على استعداد لاصطحاب أي شخص يرغب في القدوم معي.

وابتسم لميلو وأوليس.

قال بايبس: وستحمل معك الأسلحة الحاصدة؟

ـ بالطبع. نحن في حاجة إليها للدفاع عن أنفسنا.

التزموا الصمت، وهم يستوعبون هذه الفكرة المذهلة. رأى نيال أنهم قد استملحوا الفكرة باعتبارها حلاً مثالياً. وعلى الرغم من أنهم مانعوا في الكشف عن موافقتهم، فإن عيونهم وشت بحماسهم. فرحيل دوجنز سيزيل العقبات أمام إقامة سلام مع العناكب.

تساءل جلورفن بحذر: أترغب في أن ندرس هذه الفكرة كاقتراح محدد؟

أومأ دوجنز بالإيجاب.

نهض جلورفن واقفاً، وقال: إن لم يكن هناك شيء يود أحدكم أن يقوله، فإنني أقترح اختتام هذه المناقشة، حتى تسنح لي الفرصة للتحدث إلى السيد.

أضاف، عندما صمت الجميع: «إذن فقد انتهى الاجتماع» ندت عنه ابتسامة تنم عن صداقة حقيقية تجاه دوجنز، وقال: «أشكرك على الصراحة التي أبديتها في المناقشة معنا».

توقف العديد من أعضاء المجلس، وهم منصرفون، لمصافحة دوجنز، فبدا الموقف كما لو أنهم يودعونه، ويعربون عن أسفهم. تابعهم نيال بسخرية، وأحس بنفاد صبر دوجنز، وهو يودع آخر من صافحه.

لم يتبقّ سوى ميلو، أوليس، وسيميون. وبينما كان دوجنز يودّع أعضاء المجلس حتى خارج المبنى، أحسّ نيال بأن الباقين يفكّرون في الآفاق الغريبة والمرعبة بعد رحيلهم عن المجتمع الذي عاشوا فيه حتى الآن، كما شعر بأنهم يتمنّون سرّاً أن يتم التوصّل لحلّ آخر.

قال دوجنز: هل لنا أن ننتقل إلى مكان آخر أكثر راحة؟

كانت لوكريتيا، وامرأتان أخريان يمشطن خيوط الكتّان في الحجرة، التي تناول فيها نيال طعام الغداء، عندما دخل الرجال. وقفن دون أن ينبسن ببنت شفة، وغادرن الحجرة. اقتعد

دوجنز كرسياً ذا ذراع، وقال: يا سيميون، إنك لم تقل كلمة واحدة طوال هذا المساء!

قطب سيميون باكتئاب، فبدا وجهه العجوز مثل خشب الساج المغضن، وقال: لقد حققت نتيجة طيبة بدون تدخلي.

وأضاف ميلو: لا أدري كيف فعلت ذلك. لقد اتخذوا قرارهم قبل أن يبدأ الاجتماع. وكان بايبس يريد أن يأمرك بتدمير الأسلحة الحاصدة، ثم يسلمك إلى العناكب.

هز دوجنز رأسه، وقال: جميعهم حمقى وجبناء.

وقال سيميون بهدوء: هذا ليس عدلاً يا بلدو. إن لهم العذر فيما يفعلونه. فكر فيما كان سيحدث، لو لم نعثر على الأسلحة الحاصدة، كنا سنتعرض جميعاً للقتل، وتتعرض مدينتنا للحصار إلى أن تستسلم.

رد دوجنز برزانة: أتظن أنني لا أعرف ذلك؟ عندما أفكر فيما كان سيحدث يقف شعر رأسي. ولكن ذلك لم يحدث، مما يجعلنا في وضع جديد تماماً. وهؤلاء الحمقى في المجلس لا يرون ذلك، ولا يرون أنه لم يعد هناك أي سبيل للرجوع.

أومأ سيميون، وقال: وهذا هو السبب الذي جعلني أنضيم إليك. لكن ذلك يجعلنا نواجه المشكلة الأساسية، وهي أي طريق سنسلك؟

قال دوجنز: قبل أن نبحث ذلك، ثمة شيء يجب أن تعرفوه جميعاً.

عندما قال ذلك، انفتح الباب، ودخل صبيان يحملان صحفتين، ووضعاهما فوق الطاولة. وُضع فوق الأولى الطعام، وفوق الأخرى آنية خزفية ضخمة، ومعها خمسة أقداح خزفية. وحين أمال دوجنز الآنية، ابتهج نيال، وهو يرى أنها تحتوي على السائل الذهبي الصافي، الذي احتساه على القارب. لكنه سرعان ما شعر بالأسى، وهو يتذوقه، حيث تذكر أودينا. أحس فجأة بأنه قد كبر سنوات عديدة.

تساءل أوليس: هل أنت جادّ في الرحيل إلى بلاد أخرى؟

أومأ دوجنز، وهو يقضم فخذ طائر الحجل المجمر، وقال: إذا كان ذلك ضرورياً، ولكن قد لا يحدث هذا.

لمعت عينا أوليس ببريق أمل، وتساءل: ولم لا؟

ـ لأمر ما علمت به قبيل الاجتماع.

والتفت إلى نيال، وقال: قصّ عليهم روايتك!

أعاد نيال على مسامع الحاضرين قصة البرج الأبيض، من جديد، كما وصف هذه المرة

أيضاً ما حدث له عندما تمدّد تحت آلة السلام. أحس مرة أخرى، وهو يتحدث، بذلك الشعور الغريب لكونه في مكانين في وقت واحد: في هذه الحجرة اللطيفة المريحة، وفي عالم الواقع الأكثر برودة، لكنه الأكثر إثارة مع ذلك. سيطرت عليه فكرة بأن البشر يعيشون في عالم من الأوهام الحسية، إلا أن عقولهم قادرة، في الوقت ذاته، على التغلغل إلى الواقع الموضوعي الكامن وراء هذه الأوهام.

استغرفته هذه الرؤى، وهذا التفهم الجديد لها بشكل هائل، وكاد ألا يلاحظ تأثير ما يقوله على سامعيه. أدرك، حين توقف في نهاية المطاف وراح يبلل حلقة الجاف، أنه ظل يتكلم لمدة نصف ساعة، وأن أحداً لم يقاطعه.

كان دوجنز هو أول من كسر جدار الصمت، حيث قال: أعرفتم الآن سبب عدم رغبتي مغادرة المكان؟ إننا لا نستطيع ترك كل تلك المعرفة وراءنا.

جفل سيميون، كما لو أنه أوقظ من حلم، وقال: لقد اعتاد جدي القول بأنه كان هناك عصر سيطر فيه البشر على الأرض، لكنني اعتقدت أن هذا مجرد قصة خيالية.

تطلع فيه نيال باستغراب، وتساءل: لِمَ؟ إن مدينة العناكب تبرهن على أن البشر كانوا في وقت من الأوقات أعظم بكثير مما هم عليه الآن.

ـ هذا حقيقي. ولكن لا بد وأن الخنافس والعناكب كانت موجودة أيضاً في ذلك العصر، وأجد صعوبة شديدة في تصديق أنها كانت بحجم ظفري. وأنا، بوصفي طبيباً، أجد الفكرة غير معقولة.

ـ ولكن المذنّب «أوبيك» كان مشعاً. . .

أومأ سيميون، وقال: أعرف كل شيء عن الإشعاع. وقد يُحدث بعض التغيرات الطفيفة، لكنه لن يخلق عالماً مملوءاً بالحشرات الهائلة.

تساءل نيال: «إذن ما هو تفسيرك لما حدث؟

قاطعهما دوجنز بصبر نافد، وقال: ماذا يهم تفسيرنا لما حدث؟ العناكب موجودة، وعلينا أن نقرر ماذا نفعل في مواجهتها.

قال ميلو بتردد: هل لي أن أتكلم؟

ـ بالطبع.

ـ أظن أن هدفنا الحقيقي، هو أن نشق طريقنا، لندخل البرج الأبيض.

وعندما أومأ دوجنز بالإيجاب، واصل ميلو قائلاً: في هذه الحالة، فإنه ليس أمامنا بالتأكيد أي خيار، وعلينا أن نطرد العناكب خارج المدينة.

قال دوجنز: كيف؟

ـ هناك وسائل عديدة، ولكن أبسط وسيلة هي استخدام الأسلحة الحاصدة.

لاحظ نيال نبرة الرضا الكئيبة في صوته، وهو يقول ذلك، وبدا واضحاً أن ميلو تـذكر رفاقه القتلى.

قال دوجنز: اتفق معك في ذلك. فسوف نستطيع، بالأسلحة الحاصدة، تدمير المدينة في غضون نصف ساعة. ولكننا سنقتل أيضاً الكثير من البشر.

خمدت قوة رفضه، خلال فترة الصمت التي أعقبت تلك الحملة.

قال أوليس: لِمَ لا ندمر الجزء المحيط بـالبرج فقط؟ إن هنـاك القليل من البشر في تلك المنطقة.

تدخل سيميون في الحديث، وقـال: أياً كـان ما تفعلونـه، فإنكم ستقتلون الكثير من البشر. كما أن العناكب ستأمرهم بمهاجمتنا إذا حاولنا غزو المدينة.

قال ميلو، وقد سيطرت عليه حالة من التفكير: ماذا سيحدث لو اضـطررنا لمواجهة البشر؟ إن لنـا جميعاً العـديد من الأصـدقاء بينهم. وإذا أوضحنـا لهم أنـا نـريـد أن نمنحهم حريتهم فقط، فإنهم لن يكونوا حمقى بالقدر الذي يجعلهم يضحون بحياتهم من أجل هذا.

هز نيال رأسه، وقال: ذلك مستحيل. فـالقائـدات يدنّ بـولاء كامـل للعناكب، مثـل ولائكم للخنافس. أما الآخرون فينفذون ما يؤمرون به، ولن يعصوا الأوامر مطلقاً.

ساد صمت، ثم قال ميلو: في تلك الحالة، علينا أن نقرر أيهما أكثر أهمية: مصرع عدد قليل من البشر، أم القضاء على العناكب؟

هز سيميون رأسه بعنف، فأدرك نيال أن الفكرة هزته بشدة.

قال نيال: أعتقد أنه يمكن التوصل لطريقة أخرى.

تطلع الجميع إليه، وهو يضيف: القضاء على سيد الموت نفسه.

قطب دوجنز، وتسـاءل: وماذا عن بقيـة العناكب؟ سيتعـين علينا أن نـدخل معهـا في قتال.

ـ ليس بالضرورة. لقد رأيت ما حدث حين تعرضت العنـاكب للهجوم، إنها تصـاب بالذعر، عندمـا تتعرض للهـزيمة. لقـد اعتادت أن تكـون السادة. وإذا مـا قضينا عـلى سيد العناكب، فإن الأمر سيماثل قطع رأس الأفعى، ولن تُلحِق البقية أي ضرر بنا.

شعر بأنهم غير مقتنعين بما قاله، فاستطرد: دعني أوضح لكم سبب اعتقادي هذا. لما وصلت إلى هذا المكان منذ أسبوع، لم أكن أعرف شيئاً عن العناكب سوى ما حكاه لي جدي جومار، الذي قص عليّ الأساطير عن «فاكين» الحكيم، و «سكابتا» الماكر، و «ايفار» القوي، والقتال الذي خاضوه ضد العناكب.

بدا من تعبيراتهم أنهم لم يسمعوا قط بهذه الأسماء من قبل، لكنه استمر قائلاً: كما حكى لي جدي قصة الخيانة العظمى ـ عندما توجه الأمير الخائن «صالات» إلى «شيب» سيد العناكب، وعرض عليه تعليمه أسرار الروح الإنسانية، في مقابل أن يساعده شيب في سبي الأميرة «تيرول». وقص عليّ جدي الطريقة، التي كان يجلب بها شيب أسراه من البشر، ويجعلهم يقفون أمامه، ويقرأ ما يدور في أذهانهم، حتى يعرف كل تفاصيل حياتهم. وبعد ذلك يلتهمهم، لأنه شعر بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لفهمهم على أفضل نحو. وعلى الرغم من أنني لم أدرك مغزى ذلك عندما كنت صغيراً، إلا أن جدي أعطاني مفتاح فهم العناكب. نحن نعرف أن التهام شخص ما لن يساعدنا على فهمه، لكن غريزة العنكبوت موجهة نحو الالتهام. إنها تقضي كل حياتها قابعة في نسيجها، بانتظار الطعام ولم تعد عناكب الموت تشعر الآن بقلق إزاء تأمين طعامها. لكنها ما تزال قابعة في نسيجها. ولكن لا تتمتع العناكب، كما ترون، بالقدرة على التخيل. ولم أتمكن من فهم ذلك، إلى أن قابلت عنكبوتاً ذئبياً. وجدت صعوبة في استيعاب فكرة أن يجمع كائن صفتين في وقت واحد؛ الخطورة الشديدة والغباء. ثم بدأت أستوعب ذلك بالتدريج. لم يكن للعناكب مطلقاً أي هدف سوى اصطياد الطعام، ولذلك فإنها لم تكن في حاجة أبداً إلى تطوير قدرتها على التخيل. ذلك هو السبب الذي يكمن وراء اعتياد حياة العناكب على الطاعة.

أومأ سيميون، وقال: لقد لاحظت مراراً أن العناكب لا تستطيع التفكير لنفسها.

ـ هذا لا يرجع إلى أنها لا تستطيع ذلك، لكنها ترى أنه ليس هناك سبب يجعلها تفكر لنفسها. ولماذا تفكر؟ إن لديها إمدادات منتظمة من الطعام، وليس هناك ما يدعو للخوف من الأعداء. إذن ما الذي يدفعها إلى التفكير؟

هز دوجنز رأسه، وقال: يجب أن تمتلك القدرة على التفكير. فلا بد لأحد أن يقوم بتنظيم المدينة.

ـ هذا صحيح. على سيد العناكب أن يفكر. إنه مثل الملكة في بيت النمال، يصدر الأوامر، وينفذها الآخرون. ولكن إذا ما قُتلت الملكة، فإن النمال ستعاني حالة من الفوضى. وإذا ما قتلنا سيد العناكب، سيحدث الشيء ذاته للعناكب.

تبادل الجميع النظرات فيما بينهم. قال دوجنز في نهاية المطاف: «ربما تكون محقاً». بدا واضحاً أنه ما يزال متشككاً من جدوى الفكرة.

عكست عينا ميلو انفعاله، وهو يقول: أظن أنه على صواب.

وقال سيميون: ولكن هل نكون على صواب إذا ما قتلنا سيد العناكب؟ فعلى المدى الطويل، لن يكون بمقدور أحد الاستفادة من أية خيانة. ونظراً لعدم وجود حالة حرب رسمية بين العناكب والخنافس، فإن أية محاولة لقتل سيد العناكب ستكون خيانة.

تساءل نيال: ألم تحدث خيانة عندما حاول سيد العناكب قتلي؟

- ولكن هذا ليس مبرراً كافياً.

- ألا تتفق معي أنها تعطيني الحق في محاولة قتل سيد العناكب؟

قطب سيميون، وتنهد بعمق.

- نعم، أتفق معك في ذلك.

قال نيال: إذن لِمَ لا تتركني أقرر ما ينبغي القيام به؟

- هل ستقوم به بمفردك؟

- إذا لزم الأمر.

قاطعهما ميلو قائلاً: هذا تفكير خاطىء، وسوف نوصم بالجبن إذا ما تركنا نيال يقوم بذلك بمفرده، وأنا على استعداد، من جانبي، لمساعدته.

قال أوليس: وأنا أيضاً.

قاطعهم دوجنز بلطف، قائلاً: دعونا نفضّ المناقشة، فنحن غير مضطرين لاتخاذ قرار الليلة. أليس كذلك؟ ووضع يده على كتف ميلو، وقال: لننتظر حتى نرى ما سيحدث. وإن لم أكن مخطئاً، فإن العناكب ستقوم بالخطوة التالية. وبوسعنا الانتظار.

ابتسم ميلو، مذعناً لسلطة الرجل الأكبر سناً، ولكن بدا واضحاً شعوره بالاستياء إزاء الاقتراح. ضغط دوجنز على ذراعه، وقال: لا عليك، سوف تنال فرصتك لقتال العناكب.

- آمل ذلك.

تناول دوجنز الآنية، وملأ من جديد كؤوسهم.

رفعوا الكؤوس، وهم يقولون: لنشرب نخب القضاء على العناكب. لم يحاول نيال احتساء الشراب، رغم أنه رفع كأسه إلى شفتيه. فقد ذكّرته رائحة السائل بأودينا، وأحس باشمئزاز مفاجىء، عندما ربط ذهنه بين ذكراها وفكرة القتل.

- ٢ -

انتـاب نيال عنـد الفجر كـابوس مـريع. رأى نفسـه وحيداً في مـدينة العنـاكب، أثناء الليل، حيث شق طريقه لقتل سيـد العناكب. تـأهب للمواجهـة، ووضع اصبعـه على زنـاد الحاصد، وهو يعبر الساحة، باتجاه مقر سيد الموت. لكن الساحـة كانت خـالية، ولم يجـد أي حارس يقف عند الباب، ولما ركله، انفتح بسهولة، ليجد الصالة خالية. صعد الدرج، وقد أدار ظهـره للحائط، تـأهباً لحـدوث أي هجوم مفـاجىء. لف السكون كـل شيء. وعندمـا وصل إلى الطابق الثالث، أحس بنعومة السجادة تحت قدميه، ووجد نفسه في مواجهة البـاب المكسو بالجلد الأسود، الذي يفضي إلى قاعة سيد الموت.

تقدم بحذر، وهو مقتنع بوجود شرك. أصاخ السمع، ولكن لم يكن هناك أي صوت. ركل الباب فانفتح، وضغط على زناد الحاصد. انتابه الذعر، حين أدرك أنه يـطلق النار عـلى أخيه ڤيج. كـان الوقت قـد تأخـر لإنقاذ المـوقف، فقد تحللت جثـة ڤيج، وتحـولت إلى رذاذ أزرق. انطلقت صرخة يأس، وخرجت أمه من بين الظلال، صارخة: ماذا فعلت بأخيك؟

استيقظ وقد تسارعت دقات قلبه، بفعل الصدمة، وتحدر العـرق فوق جسمـه. أحس بارتياح هائل، عندما أدرك أنه كان يحلم. أزاح الأغطية، وجلس محـاولاً التخلص من حالـة اليأس والإحساس بالذنب. ولما ثاب إلى رشـده، بدأ يشعـر بالتحسن. لكن الكـابوس أثـار حيرته ومخاوفه. لماذا حلم بأنه يقتل أخاه؟

كانت الحجرة مـظلمة، والستـائر الـطويلة المسدلـة، تغطي الجـدران من الأرض حتى السقف. لكنه رأى، من خلال النافذة المستـديرة، ضـوء الفجر الـرمادي في السـماء. جلس محدقاً فيه، وقد صفى ذهنه من كل الأفكار والمشاعر، عاد تنفسه إلى معدله الطبيعي. ثم ركز ذهنه بصورة متعمدة، محضّراً نقطة الضوء المتوهجة داخل ذهنه. لف سكون غريب الحجرة، للحظة، ثم استرخى بصورة مفاجئة فأحس كما لو أن باباً مسحوراً قد انفتح تحت قدميه.

لاحظ، وهو غارق في هذا الهدوء المطبق، الظلال التي حجبت عنـه السماء، والتي راح

البرق يضيئها انحدرت الظلال عبر ألواح النافذة الزجاجية الدائرية، بزاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة، مثل فرع شجيرة. حدق فيها بفضول، دون أي ذعر محاولاً أن يحدد بدقة ماهيتها. انفتح زجاج النافذة من محوريه بأعلى وأسفل، وبات مواربا. وصلت إلى مسامعه، وهو يراقب، قرقعة خفيفة، وانفتح الزجاج، ثم رأى أن الظل المماثل لفرع شجرة يتحرك. أدرك، وقد انتابته الدهشة، أنها حشرة ضخمة، تماثل اليسروع، تزحف لتدخل من أعرض نقطة في الزجاج المفتوح. لكنها بدت أطول بشكل مثير من اليسروع. غير أنه عرف من حركتها، وهي تتلوى، أنها دودة ألفية، أو حشرة من ذوات الأربع والأربعين.

تناهى إلى مسامعه، وسط السكون المطبق، صوت احتكاك جسمها بإطار النافذة. كانت طويلة للغاية، واعتقد بعد أن تلوى ذيلها، في النهاية، وهو يمر من الفجوة، أن رأسها لا بد وأن يكون قد اقترب من الأرض. سمع، بعد لحظة، صوت ارتطامها بهدوء على السجادة بعد أن فقدت تشبثها بالجدار.

أحس في تلك اللحظة فقط بالخطر، بعد أن غابت عن عينيه. مد يده بهدوء ووضعها فوق ردائه، الموجود على الكرسي بجوار الفراش، أحس بالملمس الصلب للقضيب المتداخل. دهش لما شعر بالوخز الكهربائي في أصابعه حينما قبض على المعدن البارد. لم يعد يحس بأنه مهدد، بعد أن أمسك بالأنبوب الصلب في يده.

سمع حفيف الحشرة، وهي تتلوى فوق الأرض. خشي أن تختفي تحت الفراش، فتجبره على البحث عنها، ثم أدرك من حركة خفيفة، فوق الأغطية، أنها تصعد إليه. حدق في طرف الفراش، منتظراً ظهورها.

مس شيء ما قدمه، فأدرك أنها زحفت تحت الغطاء، كان رد فعله الفوري هو سحب قدميه، والانكماش متخذاً وضع الجلوس، فوق الوسادة. وعندما شعر بحركتها، ضرب بكل قوته، مستخدماً القضيب المتداخل، المرة تلو المرة الأخرى. انزاح الغطاء، وأخذ الكائن يتقلب في غضب. ضغط بيده على الغطاء، وأخذ يواصل الضرب باليد الأخرى، وأسنانه مطبقة. كان ذيله ظاهراً، ويتراقص لأعلى، ويضربه فوق رأسه، لكنه تجاهله؛ فهو يعرف أن سم ذات الأربع والأربعين، مثل سم العنكبوت، يوجد في الفكوك السامة، خلف الرأس. واصل ضرب الجسم اللين، ومع ذلك أبدى الكائن مقاومة غريبة، وراح يتلوى مثل أفعى. استمر في توجيه الضربات بجنون، إلى أن انهار الذيل على الأرض، وتبلل الغطاء بالدم الذي غطى يديه.

شعرة ببرودة غريبة، رغم انفعاله، كما لو أن درجة حرارة الحجرة قد انخفضت إلى

الصفر. راحت أسنانه تصطك، وهو يغادر الفراش، ويقف منتصباً على الأرض المكسوة بالسجاد. فتح الستائر بهدوء، خشية إيقاظ بقية النائمين في البيت، فتغلغلت أشعة شمس الصباح الشاحبة، من خلال الجدران، ذات اللون الأزرق الخفيف. سحب الغطاء بيده اليسرى، بينما رفع القضيب لأعلى رأسه، وارتد للوراء، عندما اهتز الجسم الغارق في الدماء بعنف، قبل أن ينهار.

ضغط على الزر، فتمدد القضيب، ونخس الكائن المقتول بحذر، ثم وضع الأغطية على الأرض، واستخدم القضيب لرفع الجسم المهشم، بعيداً عن الفراش. ولاحظ أن الكائن من ذوات الأربع والأربعين، ويميل لونه إلى الرمادي الأخضر، وتتخلله خطوط سوداء. كان بسماكة ساعد صبي، ويزيد طوله على أربعة أقدام. تمددت القوائم، التي بدت مثل أصابع مكتنزة، على جانبي الجسم، وتقطعت القرون المتصلة الطويلة، نتيجة لضرباته. كانت هذه القرون هي التي مست قدمه، وأنذرته. تساقطت قطرات من سم صافي اللون من المخالب فوق الفراش، فتح النافذة وألقى بذات الأربع والأربعين على المرجة.

لم تعد الحجرة باردة، وأحس في الحال بإجهاد شديد، ولو لم يكن الفراش مغطى بالدم، لكان قد ألقى بنفسه فوقه، وراح في نوم عميق. ارتدى، بدلاً من ذلك ثيابه، وانتعل خفه، ثم خرج على أطراف أصابعه إلى الممر. كان يعرف أن حجرة نوم دوجنز مجاورة لحجرته. رفع ببطء المزلاج الخشبي، ودفع الباب، بدت الحجرة غارقة في ظلام دامس، ولكن عندما تعودت عيناه على الظلام رأى دوجنز نائماً بمفرده. هزه من كتفه بهدوء، فاستيقظ جافلاً، فقال له:

ـ لقد حدث أمر ما.

غادر دوجنز الفراش، دون أن ينبس ببنت شفة، وارتدى ملابسه، وسار وراء نيال، الذي عادة مرة أخرى إلى حجرة نومه، وأغلق الباب خلفهما بهدوء. ندت عنه صيحة دهشة، حين رأى بقع الدم فوق الفراش، وقال: ما هذا؟

سحب نيال دوجنز من يده، ليريه ذات الأربع والأربعين النافقة الممددة وسط الزهور. ثم وصف له ما حدث باقتضاب.

قال دوجنز: يجب أن نتخلص منها، قبل أن يستيقظ الآخرون، خاصة الأطفال. اسحب هذه الأغطية من فوق الفراش!

خرج، ثم عاد بعد بضع دقائق، حاملاً عدداً من الملاءات والبطاطين. كانت أغطية

الفراش الملطخة بالدم ملقاة على الأرض. خلّف الدم بقعة صغيرة فقط، لحسن الحظ، على الحشية القطنية، فقاما معاً بقلبها على الجانب الآخر، ثم أعاد نيال ترتيب الفراش، واختفى دوجنز ومعه الملاءات الملطخة بالدم. رآه بعد ذلك من النافذة، وهو يرفع ذات الأربع والأربعين النافقة بعصاتين خشبيتين. تصاعدت سحب الدخان بعد عشر دقائق، فعرف أن الموقد خلف المنزل يقوم بمهمته.

ولما عاد دوجنز، وجد نيال ينظف القضيب المتداخل من الدم، فقال له: لا ترو ما حدث للنساء.

- بالطبع لن أقول شيئاً. ولكن كيف نتأكد من أنه لن يخطر على بالهن وقوع حادث؟

- لا. فالحشرة ما هي سوى مبعوث من سيد العناكب.

- وكيف عرفت ذلك؟

- إنها من ذوات الأربع والأربعين الصائدة، التي تربيها العناكب لاصطياد الأرانب البرية، عند سفوح التلال، حيث تقوم بإلقائها في الحفرة، فتخرج الأرانب. ولكن هذه أكبر حشرة رأيتها حتى الآن. عليك من الآن فصاعداً أن تنام والنافذة مغلقة.

- يتعين عليّ مغادرة بيتك، فقد يتعرض الآخرون للخطر.

- سوف نتحدث في ذلك فيما بعد، ولنأخذ قسطاً من النوم الآن.

لكنه لم يعد يشعر بالإرهاق، فعاد إلى الفراش، بعد أن خرج دوجنز، ووضع مرآة التأمل حول رقبته، فأحس في الحال بنوبة ألم، كما لو أن ضربة فأس قد شطرت جمجمته. زادت حدته، فأطبق أسنانه، ووضع يديه فوق عينيه. تحول، بعد بضع ثوان، إلى صداع يدق في مؤخرة رأسه. قاوم إغراء خلع مرآة التأمل، وحاول تقبل الألم، والاندماج معه، كما لو أنه أمر طبيعي. توصل، وهو يبذل هذه المحاولة، إلى اكتشاف مثير، وهو أن بإمكان مرآة التأمل منحه التركيز لمقاومة الألم، الذي تسببت فيه. فحينما يركز، تزداد حدته، وفي الوقت ذاته تتزايد طاقته على تحمله. فهم الآن أن هذا الألم يرجع إلى الاستنزاف الجسدي؛ فقد أدى هجوم سيد العناكب إلى استنزاف طاقاته الحيوية. ومع ذلك فقد أحس بارتياح غريب بتحديه للإرهاق. ولما زاد من تركيزه، أصبح لا يطاق، وشعر بقطرات العرض وهي تتحدر فوق وجهه، وبنبضه يدق داخل جمجمته، مثل مطرقة. ولكن موجة من الابتهاج والقوة غمرته، رغم تزايد الألم.

أصبح الألم ذاته، عند نقطة معينة، حليفاً يزيد قدرته على التركيز. بات الأمر مثل عصر حفنة من الزجاج المهشم، ومحاولة سحقه، على نحو متعمد، ليتحول إلى مسحوق.

جلس، وقد أطبق قبضتي يديه، وأغمض عينيه نصف إغماضة ليعبر الضوء عنهما. سيطر فجأة على الألم، وانتابه إحساس غريب، كما لو أنه يدفع نفسه لأعلى من فوق الأرض، وعلى ظهره حمل ثقيل. ضغط على إرادته حتى تمكن من الوقوف منتصباً، وهو يترنح بشكل طفيف، ودُهش عندما وجد نفسه في هذا الوضع غير العادي، مثل دهشة حيوان نجح في الوقوف على قائمتيه الخلفيتين

فتح عينيه، ونظر حوله، بدت الحجرة كما هي، لم يطرأ عليها أي تغيير، ومع ذلك لاحت مختلفة تماماً. لقد حقق تركيزه درجة من الحدّة، لم يشعر بها من قبل قط. بدا كل شيء يراه مثيراً للاهتمام، بل إن المزلاج الخشبي فوق الباب تراءى له فاتناً، وأحس أن بوسعه التحديق فيه لساعات، ليتفقد إمكانياته. أدرك أن كل شيء في الحجرة يكشف عن ألف مغزى، كان عادة ما يغفل عن فهمه.

لم يكن في يوم من الأيام مدركاً لمعنى حريته أكثر من الآن. عرف أن بإمكانه اختيار ما يريده بعقله، سواء بالتفكير في حياته الماضية، أو في مشكلة العناكب، أو سالسماح لنفسه باكتشاف هذا العالم الغريب، المثير، المحيط به استطاع أن يدرك بوضوح شديد أن أحاسيسنا الإنسانية تحجبها الستائر، وأن الضوء. اعتراه انفعال، يماثل هبة نسيم بارد على وجهه. اتسع نطاق هذا الإحساس سريعاً، ليتحول إلى ما يشبه الحساسية السحرية. أدرك أن فروع الشجرة، التي تطل النافذة عليها تستجيب لرياح الفجر، مثلما قطة تموء في سرور، وأن هذه الفروع لا تحدث حفيفاً فحسب، بل تتحدث أيضاً بلغة خاصة بها.

أثار اهتمامه، حين ارتفعت الشمس، صوت غريب أت من البعيد، بدا يعلو وينخفض مع النسيم. كانت جلبة قرع خافتة، يمكن مقارنتها بقرع مليون جرس صغير. اتجه نحو النافذة، وفتحها، فأدرك أنها ليست جلبة صوت، ولكنها نوع من الذبذبة، أغرتها أشعة الشمس للانجذاب نحو الأزهار. كانت تنثر وابلاً متألقاً من الطاقة، خرج منها مثلما تنطلق الشرارة من النار، ليعود ويهبط بهدوء على الأرض. بدا المشهد مثيراً للدهشة. كان العديد من الزهور ما تزال في الظلال، وراحت هذه تطلق القليل من شرر الطاقة كيفما اتفق. وعندما وصلت الشمس إليها، تحولت إلى مطر خفيف، مثل مياه تخرج من نافورة، ولما سقطت أشعة الشمس بكاملها فوق التويجيات المفتوحة، ازدادت حدة طاقة الشرر، وتوهج، حتى أصبح الهواء فوق المرجة مثل كتلة متألقة من الضوء الملون.

أطلق عشب المرجة ذبذبة أخف وأهدأ، وكساه ضباب أزرق رقيق. اهتم، بعد أن تعودت عيناه على ذلك، أن يرى بيوت الخنافس الحمراء الطويلة، وقد لفها اللون الأزرق

ذاته، الذي تحركت حدوده مثل لهب يحترق ببطء. أدرك الآن أن الغرض من التصميم اللولبي، هو منع هذه الطاقة من الارتفاع لأعلى مباشرة، لتبدد نفسها في الجو. ولكن المنازل بهذا التصميم تتيح وقتاً أطول لامتصاص هذا التيار الحي، بإجباره على التدفق بشكل لولبي مغلق من أعلى.

أما المساكن التي يقطنها الإنسان فتبدو، بالمقارنة، عقيمة لا حياة فيها. وتمتص بعض الجدران الزرقاء قدراً من الطاقة، ولكن المعظم ينعكس مرة أخرى، ويتبدد في الجو.

انتابه دوار قصير، وهو يبتعد عن النافذة، فاضطر إلى الاستناد بظهره للجدار. لم يكن جسمه معتاداً على هذا الثراء في الأحاسيس، وأخذت مشاعره تتراجع. أسدل، بحركة متعمدة من إرادته، الستائر الداخلية، ليوقف عملية التركيز. تلاشى القرع في الحال، وأصبحت الحجرة ساكنة. سار عائداً إلى الفراش، بخطوات ثقيلة، مثل سكير، وخلع مرآة التأمل، واستلقى على ظهره. ثم اكتسحته موجة سلام عميقة، حملته إلى أن نام.

وجد، عندما فتح عينيه، صحفة طعام موضوعة فوق الكرسي بجانب الفراش، والشمس قد ارتفعت في السماء.

شعر بأن قوته بدأت تعود إليه، وهو يتناول الخبز الأبيض المغطى بقرص العسل، ويشرب الحليب البارد.

انفتح الباب بضع بوصات، وأطل منه وجه سيميون.

ـ آه. لقد استيقظت. هل أنت بخير؟

وأمسك بمعصم نيال، ليقيس النبض.

ـ لقد تحسنت كثيراً الآن.

وضع يده على جبهة نيال، وقال: تشعر بتحسن، لكنني أظن أنه من الأفضل أن تبقى في الفراش يوماً آخر.

قال له نيال: هذا مستحيل. يجب أن أترك هذا المكان اليوم.

تطلع إليه بدهشة، وتساءل: ترحل؟ عم تتحدث؟

ـ ألم يخبرك دوجنز بما حدث؟

ـ لم أره اليوم، إنه في مبنى البلدية.

تقلصت عضلات وجه سيميون، وهو يستمع إلى وصف نيال لعملية قتله لذات الأربع والأربعين، ثم قال: أكانت رمادية ذات خطوط سوداء؟

ـ نعم.

ـ إنها من ذوات الأربع والأربعين الصائدة، وسمّها كفيل بقتل فيل أنت محظوظ.

ـ لن أكون محظوظاً في المرة التالية. وقد تدخل إلى إحدى حجرات نوم الأطفال. هذا هو السبب، الذي يجعلني لا أريد البقاء هنا.

هز سيميون رأسه، وقال: لا عليك من هذه المخاوف، فهي لن تهاجم أي شخص سواك.

ـ كيف عرفت؟

ـ إنها تصطاد فريستها، بالذبذبات، التي هي مثل رائحة مميزة للغاية.

ـ ولكن كيف تتعرف على ذبذباتي؟

ـ ذلك أمر لا أفهمه. قيل لي إن هناك حيواناً يسمى «دموم» بمقدوره تعقب أي شخص، بعد أن يحصل على أي شيء يخصه. وتستطيع ذوات الأربع والأربعين الصائدة القيام بالأمر ذاته، ولكنني لا أعرف طريقة تمييزها للرائحة من أول مرة، ربما بنوع ما من الاستشعار عن بعد.

ـ إذن يتعين عليّ النوم والأبواب والنوافذ مغلقة؟

ابتسم سيميون فجأة، وقال: «لا أظن أنه من الضروري القيام بهذه الإجراءات». وأضاف بعد أن وقف: «أعتقد أن بوسعي إعطاءك شيئاً يحل المشكلة. انته من أفكارك أولاً!».

عاد بعد عشر دقائق، وهو يحمل أصيصاً خشبياً كبيراً، وقد حجب كيس النباتات. وضعه تحت النافذة، ثم رفع الكيس. حدق نيال بفضول في النبات الأخضر الزاهي، الذي بدت حوالقه المتموجة متدلية، كما لو أنها مجهدة. رأى أن ارتفاع النبات يبلغ نحو خمسة أقدام، وله رائحة غريبة، لكنها غير كريهة، تماثل رائحة الأدوية. وللنبات، بالإضافة إلى الحوالق، سيقان صفراء مخضرة لحمية، يعلو كل ساق رأس مصفر، ذكره شكلها برأس الأفعى. انحنى لأسفل لبراها عن قرب، ثم ارتد للخلف جافلاً. فقد تحرك بعض الحوالق الخضراء ناحيته، مثل الشواة الكاذبة للفطر الرخوي.

ضحك سيميون، وقال: إنها لا تلحق أي أذى بالإنسان.

مد يده نحو النبات، فتحرك أحد الحوالق بتردد، ثم التف حول اصبعه، كما لو أنه يربت عليه.

ـ ما اسم هذا النبات؟.

ـ لا أعرف، ولكن اعتادت زوجتي على تسميته بالنبات الأفعواني. لقد جَلبنا بذوره من الدلتا. انظر!

أخرج من جيبه علبة حبوب كبيرة، عرف من الأزير الصادر منها أن بداخلها ذبابة. رفع سيميون الغطاء، فانطلقت ذبابة ضخمة خضراء لامعة، يصل طول جناحها إلى بوصتين، أخذت تطير بهياج شديد في الحجرة، وهي تتخبط في الجدران.

ثم تتبعت النسيم، وطارت ناحيته، باتجاه النافذة. كان ما حدث بعد ذلك خاطفاً، فلم يتمكن نيال من متابعته. فقد تحرك النبات بسرعة أفعى، واختفت الذبابة. كشف أزيز مكتوم، أنها باتت داخل رأسٍ يشبه رأس الأفعى. وتوقف الأزيز في الحال.

ـ إنه نبات مثير، لن يسمح وجوده بالقرب من النافذة، بدخول أية حشرة لحجرتك. انظر!

أخرج من جيبه علبة أخرى، ورفع الغطاء، وقلبها على الأرض. سقطت خنفساء روت بنية على ظهرها، فعدلها سيميون بظفره. دفعها إلى أن اقتربت من النبات. انقض عليها أحد الحوالق، وهي ما تزال على بعد قدمين، ورفعها بعد ثانية في الهواء، ثم التف طرف الحالق حول الحجاب الحاجز، مثل أصلة. رفع الخنفساء إلى أعلى لرأس أقرب ساق. شاهد نيال، هذه المرة، عن قرب، ما حدث بوضوح. فقد انفتحت قمة الرأس، وكشفت عما يماثل صفين من الأسنان البيضاء المدببة. بدا الحالق كما لو أنه ينفض الخنفساء على الفم المفتوح، بحركة تماثل ضربة السوط. انغلق الفم في الحال، رغم أن حركة خفيفة من الجلد الأخضر كشفت عن أن الخنفساء تتخبط بعصبية. ثم تدلى الحالق مرة أخرى، وسكنت حركة النبات برمته، فبدا كما لو أنه قد أصيب بالشلل.

قال نيال: أتظن أن باستطاعته إيقاف حشرة من ذوات الأربع والأربعين، لها أربع قوائم؟

ـ بالتأكيد. لقد رأيته وهو يلتهم فأراً ضخماً.

حدق نيال فيه بانبهار غريب.

ـ ألا يشكل خطراً على الإنسان؟

ـ قد يكون خطيراً في الدلتا، أما هنا، فلا.

ـ ولِمَ في الدلتا؟

ـ لأن النباتات هناك يصل حجمها إلى أربعة أمثال هذا النبات.

ـ لماذا؟

هز سيميون رأسه، وقال: ربما يرجع ذلك إلى التربة. فالمكان يفيض وينبض بالحياة، مثل جبن يمتلىء بالديدان. إن الأمر يبدو كما لو أن الطبيعة قد جن جنونها.

ربت بعطف على النبات، وأضاف: ولكنها كائنات غاية في اللطف، إذا ما تعودت عليها.

اتجه نيال، بعد أن مضى سيميون، نحو النبات. بذل جهداً كبيراً حتى لا يجفل، حينها تحركت الرؤوس، التي تشبه رؤوس الأفاعي، ناحيته، وتمددت الحوالق، وربتت على ساقيه. انتابه شعور غريب، يماثل الإحساس، الذي يشعر به المرء عندما يتشممه حيوان فضولي. بدا أن النبات فقد اهتمامه، بعد مضي بضع دقائق، وعاد إلى سكونه من جديد. ولكنه ضغط على يده حينها خدشت أحد رؤوسه. وجد نيال في هذه الحركة أمراً مثيراً للانزعاج والحيرة، رغم أنه اكتشف صعوبة تحديد مصدر انزعاجه.

خرج من هذه الحالة، حينها تناهت إلى مسامعه أصوات عجلات ذات حواف معدنية على الأرض. رأى من النافذة عربة، يجرها أربعة سائقين، وصلت إلى الساحة بسرعة كبيرة، وتوقفت أمام مبنى البلدية. ضمت العربة شخصين، امرأة ترتدي زي قائدات الحرس الأسود، ورجلاً أشقر يكسوه رداء خدم الخنافس الأصفر. راقبهما وهما يصعدان الدرج، ويختفيان داخل مبنى البلدية. دفع السائقان العربة نحو الظل، وجلسا على الدرج، يمسحان جبهتيهما.

غادر نيال المنزل من باب جانبي، وعبر العشب متجهاً نحوهما. أدرك، عندما اقترب منهما، أن أحد السائقين هو ماسيج، فشعر بالبهجة. تعرف ماسيج عليه في اللحظة ذاتها، وهب واقفاً، محدقاً فيه بدهشة فاغراً فمه.

ـ ماذا تصنع هنا؟ لقد اعتقدت أنك مت!

ضحك نيال، وقال: علك ترى أنني لم أمت. من قال لك ذلك؟

ـ أحد سائقي عربة كازاك. قال إنك لقيت حتفك مع الملك.

ـ إذن فقد مات كازاك؟

ـ نعم، لقد مات في الانفجار.

شعر بحزن عميق، فرغم أنه لم يكن يثق في كازاك، إلا أنه أحبه. جلسا معاً على الدرجة، وسأله نيال: من ذلك الرجل الملتحي، الذي أحضرته؟

ـ إنه القبطان «مانيثو»، الذي وصل صباح اليوم بشحنة من المتفجرات.

خفض نيال صوته، وقال: ألم تحاول العناكب اعتقاله؟

لاحت علامات الحيرة على وجه ماسيج، وقال: تعتقله؟ ولم تفعل ذلك؟

هز نيال كتفيه، وقال: يبدو أن الخنافس تعتقد أن العناكب تريد الدخول في معركة.

هز ماسيج رأسه، وقال: هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام.
ـ أليست العناكب غاضبة بشأن التفجير؟

بدا واضحاً أن ماسيج قد شعر بأن نيال يتحدث بالألغاز، فقال: غاضباً؟ ولم ذلك؟ لقد كان حادثاً. أليس كذلك؟

رد نيال بسرعة: آه. نعم، أتصور ذلك.

قاطعتهما في تلك اللحظة فتاة، خرجت من مبنى البلدية، فشعر نيال بالارتياح. كانت تحمل صحفة عليها مرطبات للسائقين. انتهز فرصة انهماك ماسيج بشرب عصير الفاكهة من آنية خزفية، وانسل مبتعداً.

دخل مبنى البلدية، فألفاه مكتظاً بالخنافس والبشر، الذين يهرعون لإنجاز أعمالهم. ربت أحدهم على كتفه، وهو يقف منتظراً أن تتعود عيناه على الضوء الخافت داخل المبنى.

قال له ميلو: أهلاً يا نيال! تأخرت كثيراً عن اجتماع المجلس. لقد انتهى لتوه.
ـ ماذا جرى؟

اقترب ميلو منه وقال له بصوت خفيض: لقد تنازلوا عن مطلبهم، كما توقعت.
ـ لِمَ؟
ـ شاع الخبر بأنهم يجبرون بلدو على الرحيل عن المدينة. وتعرف أن الكثيرين يعتبرونه بطلاً، لذلك فقد أعلن نصف الشباب أنهم سيرحلون معه، إذا ما مضى، مما جعل المجلس يعيد التفكير في الأمر.
ـ إذن ماذا سيحدث الآن؟
ـ لا أعرف. ذلك يعتمد على بلدو. لماذا لا تسأله بنفسك ـ إنه هناك.

انهمك دوجنز، عند أقصى طرف الممشى، في مناقشة مع الرجل الأشقر. ولما رأى نيال، قطع الحديث، وقال: إننا كنا نتحدث بشأنك. هذا مانيثو كبير مهندسي المتفجرات.

تصافحا، ولاحظ نيال أن مانيثو شاب قوي البنية، له وجه عريض، وسيم، مشوب بالحمرة من تأثير الشمس والريح، وذراعان مفتولان. مال قلب نيال له في الحال.

قال دوجنز: لقد وصل مانيثو إلى الميناء صباح اليوم. ولم يكن موجوداً هنا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية.

سأل نيال مانيثو: هل واجهت أية متاعب مع العناكب؟

قطب الشاب، وقال: لا، بل إنني لا أظن أن هناك أية ضغائن. فقد خصصت لي فرقة لمساعدتي في تفريغ الشحنة، كما أعادتني إلى هنا في عربة. ثم علمت الآن أننا في حالة حرب معها.

هز دوجنز رأسه، وقال: لا أدري ما سيحدث، بل إنني لا أعرف ما سأقوم به.

ثم وضع يده على كتف مانيثو، وقال له: امض الآن لتقدم تقريراً إلى موستيج عن الرحلة، وتناول طعامك، ثم تعالَ إلى بيتي بعد ذلك!

شاهد نيال، بعد أن خرجا إلى ضوء الشمس، ستة من أعضاء المجلس البلدي، من بينهم بايبس وكوربن، يتحلقون، وقد انهمكوا، على ما يبدو، في مناقشة حامية. عرف نيال ودوجنز من النظرات العدائية التي صوبوها إليهما، أنهما موضوع النقاش.

تأبط دوجنز ذراع نيال، وسأله: أتشعر برغبة في المشي؟

ـ بطبيعة الحال.

تقدم دوجنز نيال إلى خلف مبنى البلدية، ثم إلى الطريق، الذي أفضى بهما إلى المحجر. حيا الكثيرون دوجنز، فقد كان شخصية محبوبة، بل إن الخنافس حيّته باحترام، لكنه رد عليهم بعينين زائغتين، فقد بدا عليه القلق، ولم يتحدث سوى بعد أن أصبحا بمفرديهما، وراء آخر المنازل.

ـ الأمر أسوأ مما كنت أظن. لقد بعثت العناكب برسولين لمقابلة السيد، وجميع أعضاء المجلس، مما يعني أنها مصممة على إقامة سلام.

ـ أهذا أمر سيّىء؟

حدق دوجنز فيه بدهشة، وقال: سيّىء؟ إنها كارثة دامية، وهذا يعني أنها ستأمرنا بتدمير الأسلحة الحاصدة.

ـ ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك؟

ـ إحساسي الداخلي. لقد تركت العناكب مانيثو يدخل الميناء، دون إثارة أية متاعب، رغم أنه شاهد في مدينة العناكب نتائج الانفجار، الذي أتى على نصف حي العبيد، لكنها قالت له إنه مجرد حادث. بل إن واحداً لم يذكر شيئاً عن غارتنا على الثكنات، وهذا يعني أنها تسعى لأن توضح لنا أنها مستعدة للتسامح والنسيان. وسيقول سفراؤها: كل شيء يعود إلى وضعه الطبيعي، وعلينا أن نبحث خلافاتنا.

ـ لعلها تريد السلام حقاً.

دهش نيال من الكلمات التي نطق بها، وكأنها خرجت دون إرادته.

رد دوجنز بغضب: بالطبع تريد السلام، ولكن بشروطها. إنها تسعى جميعها إلى إقناع السيد لإصدار أوامره بتدمير الأسلحة الحاصدة، وبتسليمك إليها.

ـ قد لا تطلب العناكب من الخنافس أن تسلمني لها. لقد تحدثت لتوي مع أحد سائقي العربات، وقال إن الجميع يظن أنني في عداد الموتى.

نظر دوجنز إليه شزراً، وتساءل: ماذا؟ هل ذكر لك السبب؟

ـ قال إنه عرف ذلك من سائقي عربة كازاك.

قطب دوجنز، وراح يعض على شفته، ثم قال: هذا مثير. إذن فإن سيد العناكب ظن أنه نجح في خنقك في ذلك اليوم. لكنه ما كان سيعيد الكرة اليوم، ما لم يكتشف فشله. ذلك يعني أن الخنافس لن تسلمك، وأنه مصمم على التخلص منك بأية وسيلة... وهذا يعني أمراً واحداً، وهو أن طلبه الأساسي هو تدمير الأسلحة الحاصدة.

ـ لكن أليس من المؤكد أن يرفض السيد ذلك؟

هز دوجنز رأسه، وقال: إنه حكيم، لكنني لا أظن أنه قد بدأ يتفهم طبيعة الحشرات. إنه يفترض أن الجميع مهذبون مثله.

خفض صوته، رغم أن ذلك لم يكن ضرورياً، وأضاف: سأقول لك سراً، إنني لم أفهم مطلقاً كيف يكون الشخص حكيماً وأحمق في وقت واحد.

أثارت هذه الكلمات في نيال أحاسيس داخلية مفاجئة، رافقها شعور غريب بالانفعال. فقد أدرك أن هناك أموراً معينة يجهلها دوجنز تماماً. وهذا الجهل جعله خادماً، مثار إعجاب الجميع، مما ساعده على تركيز كل اهتمامه بالمشاكل العملية. وذلك يعني أنه لن يشك أبداً في وجود عالم تتمتع فيه الأشجار بملاطفة الرياح لها، وتلقي فيه الأزهار بشرر الطاقة الحية.

وصلا إلى قمة رابية، بدا العشب حولها بنياً ذابلاً، لكنه اختفى فيما وراءها، لتتحول الأرض إلى مجرد تربة سوداء. وفي هذه المنطقة كان دوجنز قد أطلق نار سلاحه الحاصد. لاح المكان خالياً من أية صخور ضخمة، إلا أن نيال رأى، عندما دقق النظر، عنكبوتاً نافقاً ممدداً على ظهره، وقد تكومت قائمتاه فوق معدته. اقترب منه، ولمسه بطرف خفه، فوجد لحمه متفحماً، كالخشب المحترق.

سارا نحو عشرة أمتار، فوق التربة الصلبة، ثم بدت الأرض، تحت قدميهما، على

وشك الاختفاء، ووجدا نفسيهما يقفان على شفا جرف حاد، يبلغ عمقه نحو اثني عشر قدماً، ويمتد لمئات الأمتار على الجانبين. ظن نيال في بداية الأمر، أن ذلك يعود إلى ظاهرة طبيعية، لكنه أدرك، عندما رأى الصخور المنصهرة، أن نيران الأسلحة الحاصدة هي التي تسببت في هذا. لقد نجرت الأرض، بالمعنى الحرفي للكلمة، بالسهولة ذاتها التي يذوب بها الثلج. فهم، للمرة الأولى، مدى قوة الأسلحة الحاصدة المدمرة المرعبة.

تنهد، وقال: إذن لا عجب أن تخشى جاننا.

رد دوجنز متسائلاً: هل تظن أنها على استعداد لنسيان كل هذا؟

سارا بمحاذاة حافة المنخفض، وقد شعر نيال بالدهشة، والصدمة، لضخامة مساحة المنطقة، التي تعرضت للنيران، فقطرها لا يقل عن نصف ميل، ومن السهل تحديد الوضع الدقيق للمنطاد، عندما سحب دوجنز الزناد. لقد أصابت النيران الأرض، فشقت وادياً عميقاً، يصل طوله إلى مئات عديدة من الأمتار. ثم انتشرت، مثل تدفق مياه من خرطوم، على الجوانب، لتسقط حائطاً من الصخور، وتؤدي إلى خلخلة الأرض. لقد دُمر كل شيء في هذا المكان، أو تبخر بالكامل، بينما أثرت النيران على الأشياء البعيدة، فطيرتها مثلما تفعل العاصفة الهوجاء بأوراق الأشجار. ووجدا، في هذه المنطقة، جثث العناكب ممددة بين الأشجار المجتثة الجذور، وشظايا الصخور.

لم ينس أي منهما بنت شفة، وهما يسيران حول هذه المنطقة من الأرض المتفحمة. ثم أعرب دوجنز في النهاية عن الفكرة التي شغلت كليهما أشار ناحية بنايات مدينة العناكب، عند الأفق الجنوبي، وقال: بإمكان حاصد واحد تدمير ذلك المكان في أقل من دقيقة.

ـ وأيضاً كل البشر هناك.

ألقى دوجنز عليه نظرة خاطفة، وقال: ألا يستحق الأمر التضحية؟

ـ كلا. قد تكون أسرتي بينهم.

هز دوجنز رأسه، وقال: آه، لست جاداً، إنها مجرد فكرة. .

انزلقت قدم نيال فوق شيء رخو. لقد كان فطراً صغيراً، سحقه تحت خفه. ندت عنه صرخة اشمئزاز، ثم لاحظ كلاهما، للمرة الأولى، أن هناك الكثير من الحشرات تزحف نحوهما مثل اليرقات الرخوية الرمادية. وصلت إحداها إلى كاحل نيال، ومدت مجساتها الرمادية، في محاولة للصعود إلى قدمه، لكنه ركلها بعيداً.

ـ شيء غريب. من أين جاءت؟

أشار دوجنز، وقال: جذبتها العناكب القتيلة.

كان هذا صحيحاً، فعلى بعد عشرة أمتار تمددت جثة عنكبوت متحللة، وقد نتأت الأحشاء، مثل بالونات من البطن المفتوحة، وراحت حشود من الفطريات الرخوية تتغذى على اللحم، كجيش من الديدان.

ركل نيال فطراً، حاول الزحف فوق ساقه. شكلت الفطريات دائرة عريضة حول العنكبوت النافقة، وبدا أن الفطريات، التي كانت تزحف نحوهما، فقدت اهتمامها بهما. وحينما اقتربا من المكان الذي بدآ منه، توقف نيال وألقى نظرة على جثة متفحمة، تشبه الصخرة ممدة على ظهرها. خدعته عيناه للحظة، وظن أنها تحاول تعديل وضعها. ثم حدثت حركة أخرى، جعلتهما يتوقفان من جديد. ندت عن الجسم دون شك هزة خفيفة، وشاهد كلاهما شقاً يظهر في المعدة. انفتح ببطء مثل جرح، وزحف فطر رخوي خارجاً منه، وهو يجر شريحة من الأمعاء خلفه.

كشر دوجنز اشمئزازاً، وبدأ يسير مبتعداً، فقال له نيال: انتظر لحظة!

دار ببطء حول الجثة المتفحمة، محاولاً حبس أنفاسه، بسبب الرائحة العطنة.

حدق فيه دوجنز غير مصدق، وقال: ماذا تفعل بحق السماء؟

ـ لا أستطيع أن أفهم كيف دخل الفطر إلى معدته.

دفع الجثة بقدمه، وقلبها، فوجد الظهر لامعاً مثل خشب محترق.

ـ من خلال فمه.

أشار نيال، وهو يقول: مستحيل، ففكا العنكبوت مطبقان من جراء الألم، الذي شعر به، وهو يموت.

قطب دوجنز، وقال: ربما من الفتحة الأخرى.

أحس نيال فجأة بوخز في فروة رأسه، فقد بدت الفكرة التي ومضت في ذهنه غير معقولة على الإطلاق، فامتنع عن صياغتها في كلمات.

قال، في نهاية المطاف: إني أتساءل هل من الممكن... أن تتحول العناكب إلى فطريات رخوية؟

ـ لا أعتقد ذلك.

أنعم نيال النظر في البطن المفتوحة، وهو يحاول بذل جهد كبير لكبت اشمئزازه. عرف الآن أن الحركة المضطربة، تعود إلى وجود آلاف الكائنات الصغيرة، كاليرقات، ولكن حينما

دقق النـظر رأى أن كل كـائن ما هـو إلا فطر رخـوي صغير، يهـاجم بعضها، خاصـة الكبير الحجم، البعض الآخـر ويلتهمه، وينمـو المهاجمـون بسرعة فـائقـة، بـل إنـه لاحظ زيـادة في حجمهما، وهو ينظر إليهما.

راح أكبر الفطريات يجول فوق ظهور رفـاقه، مثـل كائن ضخم مخيف، ويـترك خلفه، وهو يسير، بقعاً خالية على الأمعاء الرمادية، غطتها في الحال مرة أخرى الفطريـات الصغيرة. وزاد حجم الفطر، في أقل من خمس دقائق، حتى أصبح بحجم راحة يده.

أشار نيال قائلاً: انظر! إنه يمتصها، مثلما تمتص قطرة المطر، القطرة الأخرى.

نظر إليه دوجنز شزراً، هز كتفيه، وقال: وما الغريب في ذلك؟

ـ هذا يعني أنها مخلوقة من المادة ذاتها.

راح الفـطر، آكـل لحم جنسـه، يشق طـريقـه ليخـرج من المعـدة، وراقبـه كـلاهمـا بإحسـاس اختلط فيه الاشمئزاز بالانبهار. اتجـه مباشرة نحـو دوجنز، وحـاول الزحف عـلى قدمه. ركله بعنف بعيداً، لكن قدمه غرقت فيه، وتعلق بأصـابعه. أبعـده بقدمـه الأخرى، لكنه حاول العودة من جديد.

ضحك نيال، وقال: لا يتعين عليك أن تركله، أصدر إليه أمـراً بالابتعـاد، واستخدم مرآة التأمل!

ـ كيف؟

ـ انظر، أدر هذا الجانب إلى الداخل، وركز ذهنك! ثم استخدم الجانب الآخر لتوجيه طاقتك للخارج! هذه هي وظيفتها.

أمسك دوجنز بالمرآة في يده، وقلبها.

ـ ركز ذهنك، كما فعلت مع الذباب الصمغي!

حدق دوجنز في الفطر، وقطب ما بين حاجبيه، وهز رأسه، وقال:

ـ يبدو أنها لا تعمل.

ـ ذلك لأنك لا تستخدمها عـلى نحو صحيـح. حاول تجميـع طاقـاتك بـداخلك، ثم ادفعها للخارج!

قطب دوجنز مرة أخرى بنوع من التركيز الحاد. لاحظ نيـال، أنه غـير قادر عـلى إدراك إمكـانيات مـرآة التأمـل، وبدلاً من أن يستخـدم طاقـات القلب، راح يحاول استخـدام قوة ذهنه، كما لو أنه يمسك بحاصد، ذكّر نيال برجل يصيح بأعلى صوته.

كان الفطر ما يزال يزحف نحو قدمه، لكنه اضطر إلى التقهقر، ثم توقف على نحو مفاجىء. حاول التقدم، لكن دوجنز قطب من جديد، فتوقف. تهلل وجهه، وقال: إنها تعمل.

عبس في الفطر، فبدأ بعد لحظة، يبتعد. بذل جهداً كبيراً للتركيز، فتوقف، ثم زحف نحوه.

هز رأسه، وقال: يا له من أمر لا يصدق!

انحنى حتى بات وجهه على بعد قدمين من الفطر، معتقداً، على ما يبدو، أن هذا الوضع سيزيد الطاقة، التي يبذلها. لم يحدث شيء في البداية، ثم راح الفطر يدفع نفسه لأعلى، كما لو أنه يحاول النهوض.

قطب دوجنز، وقال: أحاول أن أجعله ينقلب على ظهره.

حدق في الفطر، ليوقفه قبل أن يبتعد. لمس مرآة التأمل، بأطراف أصابعه، وقال: أتعرف أنه إذا ما توفر لنا عدد كاف منها، فإننا لن نحتاج إلى الأسلحة الحاصدة. بمقدورنا هزيمة العناكب، بالطريقة ذاتها، التي تمارسها معنا.

شعر نيال بانفعال دوجنز، وهو ينطق بهذه الكلمات.

بدأ الفطر يبتعد مسرعاً، فلحقه دوجنز، وهو يقطب ما بين حاجبيه. توقف لحظة، ثم راح يتحرك مبتعداً، بسرعة غير عادية هذه المرة.

ارتسمت علامات الحيرة على وجه دوجنز، وقال: ما الذي حدث؟

- لِمَ؟

قطب مرة أخرى، ووقف فوق الفطر، الذي توقف من جديد، ثم عاد للتحرك، فقال دوجنز: «إنها لا تعمل. أجد بمقدوري وقفه، ثم يبدو وقد غير رأيه.. لا بد وأن الإرهاق قد أصابني».

رشق نيال بنظرة مسترِيبة، وقال: هل تقوم بتحريكه؟ هز نيال رأسه، وقال: لست أنا الذي أفعل ذلك، إنها القوة.

- أية قوة؟

- لا أعرف ماهيتها. ولكنها قوة ما من تحت الأرض، يبدو أنها تسيطر على الفطريات الرخوية.

نظر دوجنز إليه مشدوهاً، وقال: أتستطيع الشعور بها؟ وهل هي المسؤولة عن مقاومته لك؟

ـ باستطاعتي الشعور بها إلى حد ما . .

تقدم عدة خطوات، حتى أصبح أمام الفطر، ثم جثا على يديه وركبتيه، وعبس، وحملق فيه. بدأ الفطر يتحرك مبتعداً، ثم توقف. لكنه عاد إلى التحرك. شد دوجنز قسمات وجهه، حتى نفرت عروقه على جبهته، وكاد يغمض عينيه. بدأ الفطر، فجأة، يتحرك عائداً نحوه. استرخت عضلات وجهه، وندت عنه ابتسامة.

التفت إلى نيال، وقال. حققت أداء أفضل لقد توقف الآن عن المقاومة.

ـ نعم. يبدو أن القوة قد أذعنت.

ـ كيف اكتشفت هذه القوة؟

ـ اكتشفتها في تلك الليلة، التي التهم فيها الفطر، البائس «سيبريان».

جعل دوحنز الفطر ينقلب على ظهره، حيث تمدد لا حول له ولا قوة. ونجح، بعد جهد، في تعديل وضعه من جديد، فقلبه مرة أخرى. بدا واضحاً أنه يشعر بالنشوة، بفضل تلك القوة التي اكتشفها حديثاً.

قال، وقد استغرقه التأمل· أود معرفة المزيد عن هذه القوة.

هز نيال كتفيه، وقال: إنها تبدو مثل مويجات بركة ماء. ألم تسمع عنها من قبل؟

ـ كلا، رغم أن زوجة سيميون تعودت على التحدث عن شيء من هذا القبيل.

تخبط الفطر ليعدل وضعه، لكن دوجنز جعله ينقلب مرة أخرى.

سأله نيال بشغف: ماذا قالت؟

ـ لا أدري، إذ لم أكن أولي هذا الموضوع أهمية كبيرة.

ـ أبوسعنا الذهاب إليها، للاستماع إلى قصتها؟

ـ لا، للأسف، فقد ماتت.

اتسعت عيناه، وتساءل· ما هذا الذي يحدث الآن؟

حاصرتها الفطريات الرخوية، مثل جيش من النمال، من جميع الاتجاهات. لم يكن هناك شيء يثير الخوف من حركتها، فقد بدا أن الفضول، هو الذي يدفعها لهذا التجمع لكن نيال أدرك أن هذه الأعداد الهائلة قد تتغلب عليهما، إذا ما ظلا في مكانهما، فقال لدوجنز «لنبتعد من هنا!».

ولكن بمجرد أن تحركا باتجاه الرابية، تزايدت سرعة حركة الفطريات، بشكل أثار

دهشتهما. وراحت تزحف على الأرض، مثل مياه الفيضان، وسرعان ما حاصرتهما من ثلاثة جوانب وعندما بدأ يهرولان، تدفقت باتجاه أقدامهما، وأحسا، بعد لحظة، بأجسامها اللينة، تحت خفّيهما. زلت قدما دوجنز، وسقط على الأرض، فغطت، في غضون لحظات، يديه، وتحركت بسرعة نحو ذراعيه. صرخ، وقد اعتراه الغضب والاشمئزاز، وراح ينفضها عن نفسه، بعد أن خلفت علامات حمراء صغيرة، فوق جلده. توقف نيال للحظة. فأخذت تزحف فوق ساقيه، فأحس ببرودة ونعومة، كما لو أنهما يتعرضان لربت خفيف.

بدأ كلاهما يهرع باتجاه خط العشب المحترق، الذي يمثل حد النهاية للدمار الذي لحق بالمنطقة. وجدا أمامهما ضفة ارتفعت عن الأرض، بفعل نيران حاصد دوجنز، فحاولا صعودها، لكنهما انزلقا مرة أخرى. راح دوجنز يدفع بعصبية الفطريات، التي كست ذراعيه وكتفيه. وجدا أن الضفة أقل ارتفاعاً على بعد خمسين متراً إلى يمينهما، فاندفعا إليها، وهما يدوسان فوق الأجسام اللينة. نجح نيال في الوصول إلى أعلى الضفة باندفاعة قوية، ثم استدار وساعد دوجنز على الصعود. شعرا بالارتياح، حينما وجدا أن الفطريات قد توقفت، عند سفح الرابية، ولم تبذل أي جهد لصعودها.

نجح دوجنز في التخلص من معظم الفطريات، ودفعها بقوة تحت قدميه أما نيال فقد فضل استخدام قوته الذهنية، حيث أدى تركيزه الذهني الشديد إلى تراجع الأجسام الرمادية، إلى ما دون قدميه، تاركة علامات لامعة فوق بشرته.

أخذ دوجنز يمسح العلامات بحفنة من العشب الذابل، وهو يسب مشمئزاً.

ـ كائنات كريهة، كنت أود أن يكون الحاصد معي.

ـ ولكنك تمتلك مرآة التأمل.

عادت البهجة إليه فجأة، وقال: هذا صحيح، ولكنها لا تنجز العمل بالسرعة ذاتها التي يحققها الحاصد.

ألقى نظرة على جيش الفطريات، التي بدأت تتقهقر عائدة إلى جثث العناكب، وقال: ما الذي جعلها تهاجمنا؟

ـ القوة. لم يعجبها أن نتغلب عليها.

ـ ولكن ما هي هذه القوة؟

ـ تخمينك جيد مثل تخميني.

لم ينبس دوجنز ببنت شفة، وهما في طريقهما عائدين إلى المدينة، واستغرقه التفكير.

ثم سأل نيال، في نهاية المطاف: قلت إنـك لاحظت هذه القوة، عنـدما التهم الفـطر سيبريان.

ـ نعم.

ـ كيف؟

ـ شعرت بها.

ـ وهل بوسعك الشعور بها الآن؟

ـ بإمكاني، إذا ما تركت نفسي تسترخي بعمق.

ـ أهذا نوع من قوة الإرادة؟

ـ لا أعتقد ذلك. ليس تماماً.

ـ هل سبب هذه القوة سيد العناكب؟

هز رأسه، وقال: لا. إنها في غاية القوة.

ـ ولكن ماذا يحدث، إذا ما استخدمتها العناكب مع «م. ر. أ»؟

استطرد، عندمـا ارتسمت علامـات عدم الفهم عـلى وجه نيـال: ألا تعرف شيئاً عن «م. ر. أ»؟ التفـاعل القـوي متعدد العنـاصر؟ إنه الأسلوب الـذي تستخـدمـه الخنـافس لمنـع العناكب من غزو المدينة. بمقدورها إقفال إرادتها معاً لتشكل نوعاً من الحاجز.

ـ وهل تستطيع العناكب أيضاً القيام بالشيء ذاته؟

ـ بالطبع. ولكن يكون للمدافعين وضع متميز. فالطريقة الوحيدة لكسـر الحاجـز هي تحطيم إرادة المدافعين.

ـ أتعني أن بـإمكـان مجمـوعـة من العنـاكب، أو الخنـافس، تحقيق قـوة إرادة أكـبر ممـا يستطيعه كائن واحد بمفرده؟

ـ نعم، قوة إرادة أكبر بكثير، تزيد مائة مرة عن قوة الإرادة الواحدة.

ثم خلع مرآة التأمل، ووضعها في راحـة يده، وقـال: وباستـطاعة البشر تحقيق الشيء ذاته، إذا ما كان لديهم ما يكفي من هذه المرايا.

مرا بجوار البيت، الذي يبنيه الـذباب الصمغي. كست أجسـامها الـذهبية الـلامعة، المشربة بلون وردي فاتح، الجزء الأعلى للمبنى. صم أزيزها آذانها، عندما اقتربا منها. تـوقفا أمامها، وحدق دوجنز فيها، وقد غضن جبهته في تكشيرة تركيز. كانت النتيجة مـذهلة، فقد توقف الأزيز في الحـال، وساد صمت غـريب. ثم راحت أجسام الـذباب الصمغي الـذهبية تتساقط كالمطر عند قاعدة المبنى نصف المكتمل، بينما استقر ذباب آخر على الجـدران، وسقط متخبطاً.

حملق دوجنز في دهشة، وقال: هذه أقوى مما كنت أظن.

هرعا فوق العشب، فبدا الذباب عن قرب، كما لو أنه مصاب بدوار. أثار دوجنز بعضه بقدمه، فقال له نيال: لا تفعل ذلك، فقد توقظه.

ـ ليكن.

حاول دوجنز التركيز مرة أخرى، وغضن أنفه وجبهته، ثم تقهقر للخلف، حينما طار سرب من الذباب الصمغي، ودخل بعضه إلى جسمه، من تحت ردائه القصير.

راح يدفع ساقيه، ويسب، فانفجر نيال ضاحكاً.

ـ لا تقتله! أصدر أمراً إليه بالابتعاد!

ركز دوجنز من جديد، فخرجت نحو ست ذبابات من تحت ملابسه. علت ابتسامة وجهه، فبدا مثل تلميذ مبتهج.

ـ إنه لأمر مذهل، يا لها من مرآة! لم يكن ينبغي أن تظل محفوظة في المتحف، كل هذه السنين.

جعل الذباب يعود إلى أعلى المبنى، ويحوم حوله، في سحابة كثيفة، ولكن صامتة. أدهشته القوة التي يتمتع بها، فدفعه ليستقر على الجدران، ثم يختفي داخل البيت. تزايد طموحه، فجعل الذباب يشكل سرباً، كذيل المذنّب، ويدور حول البيت بطريقة حلزونية، وهو يتألق في الجو.

لاحظ نيال، وهو يشاهده، أنه ما يزال عاجزاً عن استخدام إمكانات مرآة التأمل بالكامل. أمسكها في يده، وأدارها من جانب إلى جانب آخر، كما لو أنه يوجه أشعة طاقتها. وراح يستخدم قوة الإرادة العدوانية غير المدربة النابعة من الرأس، بدلاً من استخدام سطحها المقعر في تركيز طاقاته الداخلية. حققت الطاقة، التي تمكن من استخدامها بهذا الأسلوب، نتيجة مذهلة، لكن الجهد استنزفه، وراح العرق يتصبب منه. كان نيال على وشك توضيح كل هذه الأمور له، إلا أنه أدرك بغريزته خطأ ذلك، فقد يشعر بأن هناك من يراقب تصرفاته، ويوجهه.

أثار أمر آخر فضول نيال، فرغم الاتصال المباشر بين إرادة دوجنز، وإرادة الذباب الصمغي، لكنه لم يكن مدركاً أنه يستنزفه، راح دوجنز، أكبر فأكبر، حتى بدا مثل حلقة من الدخان ذهبي اللون، يدور حول البيت، وهو يتراقص، مثل راقص باليه في الجو. توقع أن يصدر دوجنز، بين لحظة وأخرى، أمراً له بالتوقف، والعودة إلى الجدران، لكنه واصل بنشوة

عجيبة عملية التركيز، وزاد جهده، حين أصبح الذباب مستنزفاً. كان نيال على وشك التدخل، لكن بريق السعادة الغامرة في عيني دوجنز، جعله يتراجع.

توقف الدوران الذهبي، على حين غرة، وتساقطت الأجسام من جديد، مثل المطر، على الأرض. ارتسمت علامات الحيرة والإحباط على وجه دوجنز، مثل طفل تحطمت لعبته. اتجه نحو الذباب، ودفعه بقدمه.

قال نيال: أخشى أن يكون قد نفق.

دمدم دوجنز قائلاً: اللعنة!

ـ هل بوسعك الحصول على المزيد منه؟

ـ بالطبع، إننا نربيه. ولكن ما نحتاج إليه يزيد عن هذا الذي نفق.

ربت على مرآة التأمل بحنو، وأعادها إلى قميصه.

شاهدا، عندما قطعا نصف الطريق إلى المدينة، مناطيد عنكبوتية، اندفع اثنان منها بسرعة باتجاه مدينة العناكب. شعر نيال، للحظة، بالذعر، والرغبة في الاحتباء.

قال دوجنز: ينتابني شعور بالخوف.

ـ لِمَ؟

لم يحر دوجنز رداً، ووقف محدقاً في المناطيد بنوع من العداء. وصلت، في أقل من دقيقة، إلى برج مبنى البلدية، وهبطت بزاوية حادة، ثم اختفت عن الأنظار.

ـ هل تعتقد أنها تحمل السفراء؟

تنهد دوجنز، وقال: من يكون غيرهم، ولكنني أريد أن أعرف سبب هده السرعة، التي ينطلقون بها.

ـ أظن أنهم يريدون التوصل إلى اتفاق.

ـ هذا ما يثير قلقي.

ثم أمسك بمرفق نيال، وقال: من الأفضل أن نعود.

- ٣ -

افترشت المناطيد المرجة أمام مبنى البلدية، وأحاطها الصبية، الذين أخذوا يحملقون فيها بافتتان، وهي تهبط ببطء، ولم يعيروا العنكبوت الذئبيّ البني، الذي وقف يحرسها أي اهتمام. هرعت فتاة، في رداء خدم الخنافس الأصفر، نحوها، وحين أنعم نيال النظر فيها، أدرك أنها دونا.

سألها دوجنز: ماذا يجري؟

نظرت باتجاه مبنى البلدية، وقالت: إنها هناك.

ـ مَن؟

همست دونا قائلة: الأميرة ميرلو.

سألها دوجنز: كم عدد العناكب؟

ـ واحد فقط.

تبادل نيال ودوجنز النظرات.

قال دوجنز: ذلك يعني أنها أحد السفراء، يا للمكر!

شعر نيال، عندما تردد اسم ميرلو، بمزيج من الانفعال والخوف. تطلعت إليه دونا بعينين متسائلتين، وقالت: لن تدعها تقنعك بالعودة إلى مدينة العناكب؟

حدق فيها بدهشة، وقال: «كلا، بالطبع»، وكان على وشك أن يضيف «أتحسبينني قد جننت؟»، لكنه أحس أن ذلك قد يؤذي مشاعرها.

أقبل خنفساء حارس عليهم من مبنى البلدية، وأخذت دونا تراقبه بخوف، وهو يتحدث إلى دوجنز بلغة الإشارات التي يصنعها بقرنيه، وبصوته الغريب.

التفت دوجنز إلى نيال، وقال: إنه يطلب منا أن نتبعه، فالمجلس يستدعينا.

أمسكت دونا بيد نيال، ورجته أن يكون على حذر.

ضغط يدها، وقال: «لا عليك». لكن ابتسامته أظهرت ثقة أكبر مما يشعر بها.

سار الاثنان خلف الحارس، حتى وصلا إلى القاعة، فوجد نيال أن النشاط يبدو عادياً، فبدأ توتره يخف، وكان للضوء الخافت البارد تأثيره في تخفيف حدة انفعاله. بل إنه شعر بالابتهاج، لأنه سيرى السيد مرة أخرى. لكن مرشدهما توقف عند قمة الدرج، الذي يفضي إلى الحجرات التحتية، ووجه المزيد من الإشارات.

أشار دوجنز إلى الباب، وقال: يقول إن عليك الانتظار هنا.

دفع نيال الباب، فوجد نفسه داخل حجرة خالية، ضوؤها أقوى من ضوء القاعة. هب نسيم خفيف من النافذة المفتوحة. كانت الحجرة مؤثثة ببضعة مقاعد بسيطة، وأريكة على شكل خنفساء جاثم. جلس عليها، وألقى برأسه للخلف، وأغمض عينيه. اكتست الأريكة بقماش حريري ناعم، كان لطيفاً على بشرته.

أحس بالراحة وهو بمفرده، فرغم أنه يحب دوجنز، إلا أنه يشعر بالاستنزاف معه؛ فكل أفكاره وأحاسيسه تتوجه نحو أهداف عملية محضة، والعالم بالنسبة له ليس المكان الموجود بالفعل، ولكنه ذلك الذي يستغله ويتلاعب به. كان يشعر، بعد ساعة معه، بحاجة ماسة لنسيان العالم الخارجي، والتغلغل داخل نفسه.

كانت الحجرة باردة ومريحة، وأحس بالرذاذ المتناثر من النافورة، التي يراها من النافذة، وتناهت إلى مسامعه أصوات الصبية. تنهد بعمق، واسترخى، كما لو أنه يغرق في أريكة من أوراق الأشجار. قاوم رغبته في النوم، وركز ذهنه، إلى أن أصبح مدركاً لأعماق الصمت بداخله. ومضت نقطة الضوء، للحظات، بداخل جمجمته، وشعر، وهو مسترخ، بالتدفق المترقرق للقوة، التي أخذت تنساب بهدوء، مثل مويجات تتدافع أمام الشاطىء.

ثم أدرك، على حين غرة، مدى التوتر الذي يضرب أعماق ذهنه. لم يكن إحساساً بالخطر، ولكنه مجرد تحذير. كان قد اعتراه الشعور ذاته من قبل، عندما حُجز في حجرة بقصر كازاك؛ وهو الإحساس بأنه مُراقَب.

حرص ألا تشي تعبيرات وجهه بمعرفته، وحاول أن يجعل أي شخص يراقبه يظن أنه نائم. راح يمشط الحجرة بذهنه، وهو مستلق على ظهره، ويتنفس بانتظام. استغرق لحظة قبل أن يتأكد أن الكائن المختبىء يراقبه من خلال النافذة. أحدث أحد الأبواب صريراً، فأعطاه المبرر للتحرك، وفتح عينيه. تثاءب، وجلس، وهو يحدق في النافذة. لكنه دهش عندما لم يجد شيئاً، ولم ير سوى السماء الصافية. نهض واقفاً، وهرع نحوها، ثم مد يده، وكأنه يتمطى، وأزاح الستارة قليلاً. أزت ذبابة فوق رأسه، واستقرت عند زاوية السقف.

أغمض عينيه، وأخذ يتنفس الهواء البارد، بعد أن عرف من جهاز المراقبة بداخله أنه تعرض للمراقبة من فوق رأسه.

سار عائداً إلى الأريكة، وأخذ يربت على قماش الوسادة الناعم، ثم أمسك بها من طرفها، على نحو مفاجىء، وقذف بها لأعلى. كانت تصويبة ناجحة، أكدت مهارته كصائد منذ الصغر، فقد اصطدمت الحشرة بالوسادة في منتصف الطريق، لترتطم بالجدار، ثم تسقط على الأرض. اجتاز الحجرة في خطوة واحدة وأحس بتهشم الجسم المدرع تحت خفه. كانت ذبابة صغيرة، يقل طول جناحها عن بوصتين. نظف الخف في السجادة، وذهب وأغلق النافذة. اختفى إحساسه بأنه مُراقَب، بمجرد أن أغمض عينيه من جديد.

شعر براحة تامة في الحال، ولكن طرأت على ذهنه فكرة مخيفة، باحتمال أن يكون قد تعرض للمراقبة، من خلال ذهن حشرة، وذلك يعني أن خصوصيته قد انتهكت، وأن سيد العناكب قد عرف كل شيء فعله، أو قاله، خلال الأيام القليلة الماضية. ورغم أنه استبعد هذا الاحتمال، لثقته بأن نظام الإنذار في عقله الباطن كان سيحذره، إلا أنه ظل يشعر بعدم الأمان. أثار قلقه احتمال أن يكون هدف سيد الموت هو أن يزرع في نفسه هذا الإحساس.

جفل من قرقعة مزلاج الباب، بسبب هذه الحساسية المفرطة. دخلت ميرلو، وأغلقت الباب خلفها، وثبتت وتداً خشبياً فوق المزلاج، حتى تمنع فتحه. كانت ترتدي ثوباً قصيراً من نسيج حريري أحمر، ترك ذراعيها عاريتين، بينما انسدل شعرها الأشقر بنعومة على كتفيها. خفق فؤاده، حينما التفتت إليه مبتسمة، وأحس أنه لم يرها بمثل هذا الجمال من قبل.

لم تنبس ببنت شفة، وظلت واقفة ترنو إليه، ثم أقبلت عليه، ونظرت في وجهه للحظة، ثم لفت ذراعيها حول رقبته، وقبّلته. أحس ببرودة ذراعيها العاريتين على جسمه، لكن فمها كان دافئاً. أدرك، في تلك اللحظة، أنه كان مخطئاً عندما ظن أن اهتمامه بها قد تلاشى. لم يصدق، وهو يحتضنها بشدة، أنها تقبله الآن، وأنها تريده، مثلما يريدها.

ابتعدت عنه، وأخذت تداعب بأصابعها شعره، وتمسح خدها في عنقه.

- لقد جئت لأصطحبك معي.

- تعرفين أنني لن أستطيع الذهاب معك.

- ألا تود البقاء معي؟

- أريد بالطبع. لكنني أرغب أيضاً في البقاء على قيد الحياة.

وضعت شفتيها على أذنه، فأثارت نعومتها إحساساً قوياً، جعل جسمه ينقبض.

- دعنا من هذه المناقشة الآن. أريدك أن تُقبلني!

أمسكته من يده، وسحبته نحو الأريكة. راقبها، بقليل من الدهشة، وهي تفحص الباب، لتتأكد من أن المزلاج في مكانه، ثم استلقت، وجعلته يتمدد بجوارها. وغابا مرة أخرى، في نشوة الاتصال الجسدي، ينهل كل منهما من جوهر الآخر، كما لو أن دافعهما هو الجوع والعطش. أدرك مرة أخرى، حقيقتها الداخلية، إنها امرأة عملية تعرف بالتحديد ما تريده، ولا تخشى المحاولة. لم تعد هذه الحقيقة تثير نفوره، فرغبته جعلت ذلك أمراً تافهاً. بل إنه أدرك وجود شيء غير شخصي يتحكم في رغبتها، وهو أنها تشعر بالملل والإحباط، وتريد أن تغيب عن الوعي بين ذراعي رجل. وهذا أيضاً أمر تافه بالمقارنة مع النشوة البالغة، التي يمنحها كل منهما للآخر، وينقل إليها طاقة حياته الذكرية، ويمتص طاقتها الأنثوية. كانت هذه بمثابة عملية جسدية بسيطة، مثل تناول الطعام، لكنهما شعرا بأنهما مناسبان، على نحو غريب، لإرضاء كل منهما لجوع الآخر.

أبعدت ميرلو نفسها عنه، ودفعته بخفة، ثم جلست على حافة الأريكة، لتمشط شعرها. ابتسمت له، وأسندت راحتها على خده.

ـ أريدك أن تعود معي!

وضعت يدها على فمه، حينما بدأ يهز رأسه علامة الرفض، وقالت: أعدك بأنها لن تؤذيك، ولن أسمح لها بذلك.

أبعد يدها بلطف، وقال: لقد حاول قتلي اليوم.

ـ أعرف.

حدق فيها بدهشة، وقال: أتعرفين؟

ـ نعم، لقد تحدثت مع سيد العناكب، وأبلغني أنه حاول قتلك.

ـ وما زلت ترغبين في أن أعود معك؟

ونظر في عينيها بشك واضح، لكن تعبيرهما كان واضحاً وصافياً.

ـ هذا هو سبب رغبتي في إعادتك؛ فبمقدور سيد العناكب قتلك في أي وقت يشاء، وعنده الكثير من الخدم.

ـ هل طلب منك أن تقولي هذا؟

ـ لا. أقوله لأنه الصدق.

دفعها بعيداً عنه، وجلس، ثم قال: إذا ما خُيرت بين الموت بين أصدقاء، أو وسط أعداء، فإنني أفضل الموت بين الأصدقاء.

ـ لكنك لن تكون بين أعداء، بل ستكون بين أناس تعرفهم ـ بين أمك وأخيك،

وشقيقتيك، وانجليد وماسيج، أتدري أن أبي قد مات؟

أومأ قائلاً: نعم، وأشعر بالأسى.

ـ ذلك يعني أنني لم أعد أميرة، بل ملكة. وسوف تكون زوجي، وبالتالي ملكاً.

سألها بلطف: أتظنين أن هذا سينقذ حياتي؟

هزت رأسها بصبر نافد، وقالت: يريد سيد العناكب السلام، وأنا أعرف ذلك. فالعناكب ليست كالبشر، وليست حالمة، بل واقعية. أنا أفهمها لأن أبي كان واقعياً. وهي تعرف أن بمقدور خدم الخنافس تدمير مدينتها، بمن فيها. وهذا هو سبب رغبتها في عودتك معي. إنها تعرف أن باستطاعة الخنافس السيطرة على خدمها. لكنك رجل حر، ولن تستطيع السيطرة عليك.

ابتسم، وقال: إذن تريدك أن تسيطري عليّ بالنيابة عنها؟

هزت كتفيها، وضحكت قائلة: بالطبع، ولِمَ لا؟ يتعين أن نكون واقعيين أيضاً. إذا كنت زوجي، وتقطن في مدينة العناكب، فلن تتعرض لأي خطر منها.

ـ لكنني سأظل تحت رحمتها. ومن الممكن أن يحنث سيد العناكب بوعده معي.

علت وجهها ابتسامة واثقة، وقالت: ربما، لكنه لن يفعل ذلك معي.

ـ أتعتقدين أنه يثق بك؟

ـ بطبيعة الحال.

ـ إذن لماذا أرسل خدمه للتجسس علينا؟

أشار إلى الذبابة المقتولة، وقال: إنها من خدم سيد العناكب، وقد قتلتها قبيل قدومك.

حدقت ميرلو بفضول في الحشرة النافقة، وأحس بأنها لا تصدقه.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ بمقدوري الإحساس بمثل هذه الأمور. وهذا هو سر رغبة سيد العناكب في قتلي.

عادت، وجلست بجواره، وأخذت كلتا يديه في يديها.

حدقت في عينيه، وقالت باقتناع تام: لو أنك زوجي، فلن يكون هناك ما يدعوه للخوف منك.

ثم دنت منه، حتى بات فمها قريباً من فمه، وقالت: أرجوك أن تثق بي!

جفل كلاهما عندما سمعا طرقاً على الباب، وانفصلا وهما يشعران بالذنب.

قالت بطريقة مهيبة: مَن بالباب؟

ـ بلدوجنز.

اتجهت نحو الباب، وأزاحت الوتد الخشبي عن المزلاج، وفتحته. نظر دوجنز إليها بإعجاب، فحدقت فيه ببرود.

قال لها: أنت مطلوبة في قاعة المجلس.

التفتت، وتطلعت بتساؤل إلى نيال، فقال دوجنز: «لا. أنت بمفردك» أحس نيال أن دوجنز يكن لها عداء واضحاً، رغم إعجابه بها.

التفتت إلى نيال، وقالت: ليكن. انتظرني هنا!

خرجت دون أن تلتفت، وأغلق دوجنز الباب خلفها.

ـ إنها تهوى بالتأكيد إصدار الأوامر.

ـ هي أميرة، بل في الواقع ملكة.

ـ ما الذي تريده منك؟

ـ تريد أن أعود معها.

حدق دوجنز فيه بدهشة، وقال: لا بد أنها تظنك أحمق.

ـ لا. تعتقد أنني سأكون في أمان.

ـ إذن لا بد أنها هي الحمقاء.

قرر نيال ألا يجادله، خاصة وأن علامات التوتر والقلق ترتسم على وجهه.

ـ ماذا حدث في قاعة المجلس؟

رد دوجنز بعصبية: الأمور تتفاقم. فأول شيء طلبه سفير العناكب، هو إعادة المناطيد العنكبوتية. وقد بدا هذا المطلب معقولاً، فوافق عليه المجلس في الحال. وذلك يعني أنها جمدت حركتنا.

ـ ما زلنا نملك أقدامنا. ولكن ماذا عن الأسلحة الحاصدة؟

ـ إنهم يبحثون ذلك الآن. يريد السفير تدميرها.

ـ وماذا تتوقع أن يحدث؟

هز دوجنز رأسه باكتئاب، وقال. أخشى ألا يكون القرار لصالحنا. فالخنافس تكره الأسلحة الحاصدة، مثلما تكرهها العناكب. ولكن يبدو أنها ستقر على الأقل بملكيتنا لها، نظراً لأننا عثرنا عليها. لقد طلبوا مني أن أبحث ذلك مع الآخرين.

ـ هذا يمنحنا الأمل.
ـ يبقى القرار النهائي في يد المجلس.
ـ ما الذي تقترح أن نقوم به؟
ـ هناك أمر واحد يجب علينا تنفيذه، هو أن نظل متقدمين خطوة عن العناكب.

اتجه نحو الباب، وفتحه بهدوء، فلم يجد أحداً بالخارج. أغلقه، ووقف، وظهره له.
ـ أما زلت ترغب في قتل سيد العناكب؟

انتفض قلب نيال، وقال: بطبيعة الحال. اليوم؟
ـ قد يكون تحقيق ذلك غير ممكن اليوم. علينا أن ننتظره حتى تهب ريح الشمال، لنتمكن من استخدام المناطيد. فليس باستطاعتنا السير على الأقدام إلى مدينة العناكب، فسوف تكون متأهبة لمواجهتنا.
ـ مواجهتنا؟

أومأ دوجنز، وقال: لن نتركك تنجز هذه المهمة بمفردك، فقد تُقتل. وسيتعين، في تلك الحالة، أن يقوم شخص آخر بمحاولة جديدة. وإذا ما حاولنا قتله وفشلنا، فسوف نكون في وضع أسوأ من ذي قبل.
ـ إذن لن نتمكن من القيام بشيء حتى تتغير الريح؟
ـ هذا صحيح، ولكنها قد تتغير عند الغسق. ففي مثل هذه الأيام، تهب الرياح من الجبال. ويتعين علينا، في غضون ذلك، أن نتحدث إلى الآخرين، ومن الأفضل العودة الآن إلى بيتي.
ـ لقد وعدت ميرلو بانتظارها.

رد دوجنز ساخراً: لم تعدها، فقد أمرتك بانتظارها. وليس أمامنا أي وقت نضيعه.

ثم دفع نيال من كتفه، وقال: ستعثر عليك إذا ما أرادتك.

تبعه، على مضض، إلى خارج الحجرة. أخذت بعد لحظة عيونهما تطرف من جراء أشعة شمس العصر الذهبية. كان العنكبوت الذئبي ما زال واقفاً يحرس المناطيد، لكن جموع الصبية اختفت.

أقبل أوليس عليهما، مجتازاً العشب، وقال: جئت أفتش عنكما.

أمسكه دوجنز من ذراعه، وقال: اصغ إليّ! أريدك أن تنقل رسالة إلى هاستور وكوزمن، اطلب منهما أن يعدّا المناطيد العنكبوتية. وإذا ما سألهما أي شخص عما يصنعان، اطلب منهما أن يعلنا موافقتنا على إعادتها إلى العناكب.

لما هرع أوليس مبتعداً، طلب منه العودة بأسرع ما يمكن.

سأله نيال: هل تفكر في عصيان المجلس؟

- لم يتم التوصل إلى اتفاقية حتى الآن. وإلى أن يحدث ذلك، فإن المناطيد تظل بحوزتنا.

كان مانيثو بانتظارهما في حديقة بيت دوجنز، وهرع لمقابلتهما، وسأل بلهفة: ما الذي حدث؟

ربت دوجنز على ذراعه المفتولة، وقال: لا شيء. سنعقد اجتماعاً لمناقشة بعض السياسات. أترغب في الانضمام إلينا؟

لم تخدعه نبرة صوت دوجنز، فرد قائلاً: نعم أرغب في ذلك.

اعتذر نيال بعد أن دخلوا البيت، وقال: «سأعود بعد لحظات». فقد بدأ يشعر بالاستنزاف، بعد ثلاثة أيام من الخمول، وأحس أنه بحاجة إلى مرآة التأمل لمساعدته على التركيز. ودخل دوجنز ومانيثو إلى حجرة الطعام.

اشتمّ، بمجرد أن فتح باب حجرة النوم، رائحة خضراوات عطنة، تماثل رائحة مياه مستنقعات كريهة. ظن، للحظة، أن النبات الأفعواني لم يعد موجوداً. ثم اكتشف أنه سقط على الأرض، وتحولت الساق الخضراء إلى اللون الأبيض المصفر، وأصبحت رخوة ولينة، كما ابيضت الأوراق، وانكمشت، فبدت مثل أيدي متغضنة. انحنى لينظر عن قرب، فوجد أن النبات قد مات منذ ساعات.

أغلق النافذة، ثم جلس على طرف الفراش. ترددت كلمات ميرلو في رأسه: «إذا ما قرر سيد العناكب قتلك، فلن يمنعه شيء»، وامتزج فجأة شعوره بالتعب بهاجس شر جعل قلبه ينقبض، كما لو أن الأرض قد انشقت تحت قدميه.

أخذ مرآة التأمل من فوق الكرسي، وعلقها حول رقبته، فأحدثت ألماً حاداً، فأسرع بقلبها على الجهة الأخرى. أغمض عينيه، محاولاً مقاومة الشعور بالدوار والهزيمة، ونجحت المحاولة، لكن الجهد الذي بذله استنزف قواه.

لما دخل حجرة الطعام، تطلع سيميون إليه، وقد علت وجهه ابتسامة ودية، تحولت إلى تعبير ينم عن القلق.

- تبدو منهكاً، كان يجب أن تبقى في الفرش.

اغتصب نيال ابتسامة، وقال: أنا بخير، لكن نباتك قد مات.

ـ مات؟ هل أنت متأكد؟

سار نيال خلفه في الممشى، فاشتما رائحة النبات العطن المنبعثة من الباب المفتوح. ركع سيميون إلى جانب النبات، وفحص كل الرؤوس التي تشبه الأفعى بعناية. وقف دوجنز في الممشى، وخلفه ميلو ومانيثو، وقد تغضّن أنفه من الاشمئزاز.

أخرج سيميون من جيبه مدية صغيرة مطوية. أمسك بأكبر رأس في يده، وفتحه، فبدا اللب صلباً. عرف نيال، الذي أخذ يتابعه من فوق كتفه، سبب اختياره لهذا الرأس الكبير. نظر بإمعان، فرأى شوكة، تشبه الإبرة، اخترقت اللب من الداخل، وخرجت من الجهة الأخرى.

أمسك سيميون الرأس بيديه القويتين، وفتحه. تمددت بالداخل بعوضة سوداء ضخمة، برز زبانها، يبلغ طولها نحو أربع بوصات.

جثا دوجنز بجانبه، وقال: هذه مجرد بعوضة مستنقعات عادية من الدلتا. لماذا قتلت النبات؟

استخدم سيميون المدية، ليشير إلى الزباني الناتىء، وقال: أظن أن هذا الزباني ممزوج بسمسم قوي ـ أعتقد أنه عصارة النبات الشيطاني، التي يؤدي التعرض لها إلى الموت الفوري.

تناول قطعة قماش من فوق طاولة صغيرة، ولفها بعناية، ثم نظف الرأس، ولفّه داخل قطعة القماش، وسلمه إلى ميلو، قائلاً: «اطلب من لوكريتيا أن تحرقه، دون أن تخرجه من قطعة القماش».

استغرق جميعهم في التفكير، بعد أن عادوا إلى حجرة الطعام، وحاول نيال مرة أخرى التغلب على إحساسه بالاكتئاب والخوف.

عاد أوليس، وقال: يبلغكم كوزمن أن المناطيد ستكون مُعدة في غضون نصف ساعة.

لاحظ نيال علامات الانفعال على وجهه مع اقتراب ساعة العمل. وعندما لم يرد أحد عليه، تطلع في الوجوه من حوله، وقال: هل حدث شيء؟.

وصف له نيال ما جرى، فتلاشى انفعاله، وظهرت علامات التفكير على وجهه، ثم قال: يبدو أن سيد العناكب مصمم على قتلك.

هز نيال رأسه، وقال: لا أظن ذلك. فإذا ما قتلني الآن، فإنه سيقوض مفاوضات السلام. وهذا آخر شيء يريده.

أومأ سيميون، وقال: أتفق مع ما قال نيال، وأحسب ما حدث مجرد انذار، بأنه لو لم نقم سلاماً، فباستطاعته القضاء علينا جميعاً.

قال دوجنز بهدوء: وإذا ما حققنا سلاماً معه، فسيظل قادراً على القضاء علينا جميعاً، ولكن دون أي عناء.

تساءل مانيثو بتردد: إنه ليس قرارنا بالتأكيد؟ إنه يتعين على السيد والمجلس اتخاذ قرار بشأن إقامة السلام.

أومأ دوجنز، وقال: وهذا هو السبب وراء ضرورة اتفاقنا عصر اليوم، قبل أن يتوصلوا إلى قرار.

بدا مانيثو زائغ البصر، وقال: ولكن ماذا عسانا نصنع؟

رد دوجنز: لنبحث في حقيقة الأمر. عندما حاول سيد الموت قتل نيال، رفض السيد إبرام اتفاقية سلام، وقال إن العناكب فقدت كل حق في إلزامنا بالتعاون معها. لذلك فإنني أعتقد أن من حقنا الافتراض بأنه لن يغير موقفه، ويسلم نيال إلى العناكب. لكنه وافق بالفعل على تسليم المناطيد، وهذا يشير إلى استعداده لقبول حل وسط. والسؤال الوحيد المعلق الآن هو: هل ستتضمن التسوية مطالبتنا بتدمير الأسلحة الحاصدة؟ إذا ما تضمنت ذلك، فسوف نعود إلى الوضع الذي كنا فيه من قبل ـ باستثناء أن سيد العناكب يعتبرنا الآن أعداءه. وأعرف، مثلما تعرفون، أن العناكب لا تغفر مطلقاً لأي شخص قتل واحداً من نوعها. ونحن مسؤولون معاً عن مقتل مئات العناكب، وبالتالي فإنني أعتقد أنه يجب علينا تنفيذ خطتنا، سواء توصل المجلس إلى سلام، أو لم يتوصل، فسيد العناكب سينتهز أية فرصة للانتقام.

قال سيميون: إذن أتقترح مهاجمة العناكب الآن ـ حتى إذا كانت تسعى لإقامة سلام؟

أومأ دوجنز، وقال: أقترح أن نحاول القضاء على سيد العناكب، قبل أن تتاح له فرصة القضاء علينا.

قطّب سيميون، فكاد حاجباه الكثيفان أن يغطيا عينيه، وقال: هل نحن موقنون أنه يريد القضاء علينا؟

ثم وجه حديثه إلى نيال، وسأله: أنت أكثرنا تعرضاً للخطر. ماذا تعتقد؟

ـ دأبت الأميرة ميرلـو على السعي لإقنـاعي بأن سيـد العناكب يـريد السـلام، وينبغي الاعتراف بأنها قد نجحت في ذلك إلى حد كبير.

قاطعه دوجنز، قائلاً: إنها مدفوعة لإقناعك. وهذا هو ما طلبه منها سيد العناكب.

بذل جهداً واضحاً لاستعادة رباطة جأشه، واستطرد: إنها تريد السلام بطبيعة الحال. وأسهل طريقة لتحقيقه هـو قتل كـل أعدائهـا. وأحسب أن سيد العنـاكب لا يتحمل وجـود خونة، وبالتالي يجب التحرك، قبل أن تتاح له فرصة القضاء علينا.

بدت علامات الاستياء واضحة على وجه سيميون، فعبس، وهز رأسه، ثم قال: تشير إلى أن سيد العناكب لا يتحمـل وجود خـونة. ولكن أهـذا صحيح؟ لقـد استمرت معـاهدة السـلام ثلاثـمائة عـام حتى الآن، ولم تحدث، طـوال هذه الفـترة، أية خيـانـة بـين العنـاكب والخنـافس. وأنت تعرف معـاهـدة السـلام مثلما أعـرفهـا، وتضم مئـة وثمـاني عشرة مـادة. وعندما وضع الأعداء القدامى معاهـدة مطولـة مثل هـذه، ما كـانوا علـى استعداد لانتهـاكها بسهولة.

أومأ دوجنز، وقال: ما تقـوله صحيـح، وأحفظ معظم مـواد المعاهـدة عن ظهر قلب. لكنها أبرمت منذ ثلاثة قرون، وقد تغيرت أمور عديدة من ذلك الوقت. تدرك العناكب جيداً أن البشر هم أخطر أعدائها. وهذا هو ما دفعها إلى استعبادنا وتحويلنا إلى ماشيـة. واضطرت إلى منحنا درجة من الحرية، ومـع ذلك فـإن المعاهـدة تحظر علينـا تعلم القراءة والكتـابة، أو استخدام أية آلة، حتى لو كانت مصباح ضغط.

نقر على الطاولة ببراجمه، وقال: لماذا كنت، في اعتقادك، متعطشاً للعثور على الأسلحة الحاصدة؟ لم يكن ذلك لمهاجمة العناكب، ولكن لإجبارها على الدخول في مفاوضات معنا. ما أريده هو أن أكون حراً في استخـدام عقلي دون الحصـول على تصريـح من العناكب. وهـذا بـالتأكيـد من حق كل إنسـان. والآن، فإننـا نمتلك الأسلحة الحـاصـدة، الأمـر الـذي يعني امتلاكنا للوسيلة، التي نطالب بها بحق التفكير لأنفسنا. وتعرف العناكب أننا مصممون عـلى نيل حريتنا بأي ثمن ـ وسوف ننجح ـ إن عاجلاً أو آجـلاً. وهي تدرك أنها فقـدت سيطرتهـا علينا في نهاية المطاف.

التفت إلى سيميون، وقال: لهذه الأسباب تهمعى إلى قتلنـا، بمجرد أن تحـين الفرصـة. ولهذه الأسباب أيضاً لا نستطيع الثقة بها.

كان دوجنز يتحدث بثقة وهدوء، مما أثار جواً من الاقتناع بين الحاضرين، ولاحظ نيال

أنه يستخدم، دون أن يعي، قوة مرآة التأمل، مما أضفى على حججه التي ساقها، مزيداً من الاقناع.

مع ذلك بدا واضحاً، من تكشيرة سيميون، أنه لم يقتنع، وقال: إذن يجب أن ترتبط، في تلك الحالة، بمعاهدة أقوى. ويجب عليها أن تقسم بأنها لن تحاول انتهاكها.

هز دوجنز رأسه، وقال: لا أعتقد أن مثل هذا القسم قائم.

قال سيميون: إذن أنت مخطىء. فقد قضى «باندیون» شقيق زوجتي حياته يدرس العناكب ـ حيث عمل مساعداً لمدير الميناء بسنوات عديدة، وكان يحتك بها يومياً. وقد أكد لي أنها تؤمن بآلهتها، مثلما نؤمن نحن بآلهتنا. وقص عليّ حادثة جن فيها جنون عنكبوت ذئبيّ، بعد أن التهم ذبابة سامة، فقتل أربعة بحّارة. ونجح الباقون في احتجازه داخل مخزن السفينة، ولكن عندما وصلوا إلى الميناء، لم يجرؤ أحد على إطلاق سراحه. ذهب بانديون، وتحدث إليه، فوجده قد جن من الألم، وبات على حافة الموت. لكنه وعده بأن يطلق سراحه إذا أقسم بـ «إبليس» إله الظلام، و «نوادا» إلهة الدلتا. ورغم أن العنكبوت كان يعاني سكرات الموت، إلا أنه التزم بوعده، ولم يهاجم أحداً. ومات، وهو يتشنج، بعد ساعات قليلة. وهذا يثبت أن العنكبوت يمكن أن يلتزم بالعهد الذي يقطعه على نفسه.

قال دوجنز: نعم، يمكن أن يلتزم عنكبوت ذئبي عادي بعهده. لكن أتحسب أن سيد العناكب يمكن أن يلتزم بمثل هذه الخرافات؟

ـ نعم. لأنها لا تعتقد أنها خرافات.

هز دوجنز كتفيه، وقال: الأمر الذي يعني عدم وجود ضمان بأن سيد العناكب يمكن أن يلتزم بأي عهد يقطعه على نفسه. أخشى أن نستمر في مثل هذا الجدل بقية اليوم، دون التوصل لأي شيء، بينما يجب علينا التوصل لقرار.

تبادل النظرات مع الآخرين، وقال: ما رأي الآخرين في ذلك؟

ساد صمت، كسره نيال سائلاً سيميون: تقول إن هناك آلهة للدلتا، أتعني الدلتا الكبرى؟

ـ نعم. فالدلتا من أماكنها المقدسة.

أثارت الكلمات قشعريرة في فروة رأس نيال، فسأله: أتعرف سبب ذلك؟

رأى بزاوية عينيه إيماءة من دوجنز، تدل على نفاد صبره، فتجاهلها.

قال سيميون: ربما لأن الدلتا نابضة بالحياة. كما تُعرف نوادا بنهر الحياة.

انتاب نيال، مرة أخرى شعور، كما لو أن ماءً بارداً يتدفق فوق جلده.

ـ نهر الحياة أم واهبة الحياة؟

ـ نهر الحياة.

التفت نيال إلى دوجنز، وهو يحاول السيطرة على انفعاله، حتى لا ينعكس على صوته، وقال: ألا ترى؟ إن الدلتا هي محور القوة.

قال دوجنز: ما الذي يجعلك تظن ذلك؟

ـ أتذكر ما قلته بأن القوة مثل مويجات فوق صفحة بركة ماء؟ إذا كان هذا صحيحاً، فلا بد وأن يكون للمويجات مركز. ويتعين أن يكون هذا المركز في الدلتا.

التفت إلى سيميون، وقال: لقد كنت هناك. ألم تشعر بقوة ما تنبع من تحت الأرض؟

قطب سيميون، وهز رأسه، وقال: لم أشعر بأي شيء، وَلا أظن أنني أتمتع بحساسية تجاه مثل هذه الأمور، على عكس زوجتي، التي دائماً ما تقول لي إن هناك ذبذبة تصدر من تحت الأرض في الدلتا.

بدا أن هذا الاعتراف قد أثار ارتباكه، فقال: لقد حسبت أنها تتخيل حدوث أشياء.

ـ ولِمَ؟

ابتسم سيميون وراح يتذكر، قائلاً: من السهل أن تترك لخيالك العنان في الدلتا. إنها تجعلني أفكر دوماً في قطعة جبن عطنة ممتلئة بالديدان. وينتابك شعور بأنك مُراقب طوال الوقت. فالسرطانات العنكبوتية تتبعك، واليعاسيب الضخمة تتفقدك. بل لقد اعتراني شعور بأن هناك نوعاً من التواجد. . .

ـ إذن لماذا لا تصدق ما قالته لك بشأن الذبذبة؟

قطب، وسرح بفكره، ثم قال: أميل إلى الدليل القوي. أتذكر حادثة غريبة. . . كنا قد وصلنا لتونا إلى الدلتا عصر أحد الأيام ـ لجمع عصير الأوريتس ـ عندما هبت عاصفة رعديّة عاتية، وخشينا أن تطيح بنا. وحين اقتربت من رؤوسنا، لمع وميض برق هائل، وسمعت أعلى صوت لقصف رعد حتى الآن. ثم انتاب كلينا ذلك الشعور الغريب بأن شيئاً قد حدث. لا أستطيع أن أوضحه سوى بالقول إن شعورنا تجاه كل شيء تغير. فقد اختفى الإحساس بأننا مراقبان، وعندما انتهت العاصفة، أخذت كل الحشرات تتخبط، وكأنها تعرضت لصدمة، وكذلك كل النباتات. شاهدنا يعسوباً يتخبط في نبات خناق الذباب، وتوقعنا أن يمتصه، لكن النبات أخذ يخنقه ببطء شديد، فتمكن من الهرب.

سأله دوجنز: ما سبب ذلك في اعتقادك؟

ـ أظن أن الأمر له علاقة بالبرق، لكنه لا يؤثر على كل النباتات والحشرات. فقد استمر عدة ساعات، وحصلنا على عصير الأوريتس، دون أي عناء ـ بل أن النبات لم يحاول تحذيرها، ولم يهاجمنا أي كائن، رغم أن «فالدا» تعثرت في عقرب. وعادت الأمور، في اليوم التالي، إلى وضعها الطبيعي، وعاد إلينا الشعور بأننا مراقبان.

أومأ مانيثو، وقال: شعرت بالشيء ذاته، عندما هبطنا فوق أرض الدلتا من أجل الحصول على الماء، وأحسسنا بأننا مراقبون. وكلما تذكرت ذلك، أشعر بالوخز في مؤخرة عنقي.

سأله نيال: هل لاحظت هذه الذبذبة الجوفية؟

استغرق مانيثو في التفكير، وقطب ثم قال: نعم، أظن ذلك، رغم أنني لم أفكر فيها سوى الآن فقط.

سأل دوجنز سيميون هل تحدثت إلى أي شخص عن هذه التجربة التي خضتها في الدلتا؟

ولما هز رأسه نافياً قال له: ولِمَ لا؟

قال سيميون: لم يبد لي الأمر بهذا القدر من الأهمية. فالدلتا مكان غريب، يمكن أن يحدث فيه أي شيء.

تطلع دوجنز إليه بدهشة، وقال: أرى أنها مسألة هامة.

تجاهل سيميون الانتقاد الضمني في عبارة دوجنز، وقال: إحدى قواعد العلم الأولية تدعو إلى عدم بناء أية نظرية على دليل غير كاف.

قال دوجنز: لكنك قلت لي صباح اليوم إن النباتات الأفعوانية تنمو بشكل أكبر في الدلتا. ألا تظن أن ذلك بمثابة دليل قوي؟

ـ دليل على أي شيء؟ يمكن أن يرجع ذلك إلى التربة، أو الحرارة، أو الرطوبة، أو كل هذه الأشياء مجتمعة. ومع ذلك فعليّ أن اعترف بأن القوة الجوفية، التي تتحدث عنها، يمكن أن توضح الكثير من الأمور المحيرة.

قال نيال: بإمكان القوة التي تجعل النباتات تنمو بشكل أكبر، أن تجعل الحشرات تنمو بشكل أكبر.

هز سيميون رأسه، وقال: ليس للحشرات جذور.

ـ وكيف لك أن تعرف أن الجذور ضرورية؟ فالفطريات الرخوة ليس لها أي جذور.

تطلع سيميون إليه ببلاهة، وقال: الفطريات الرخوة؟

قال دوجنز: أتعرف أنه عندما تموت العناكب، تتحول إلى فطريات رخوة؟

ألقى سيميون عليه نظرة متشككة، وقال: ما هذا الذي تقوله، قصة خيالية؟

ـ لا. إنها حدثت في الواقع. إذا كنت لا تصدق ما أقول، فاذهب لترى بنفسك العناكب النافقة بالقرب من المحجر!

أخذ سيميون يفكر فيما قاله دوجنز، ثم قال: من المحتمل جداً حدوث ذلك، فالفطريات الرخوة تهاجم العناكب عندما تموت.

رد دوجنز بانفعال قائلاً: لا. إن العناكب تتحول إلى فطريات. لقد راقبناها عصر اليوم.

مد نيال يده داخل ردائه، وهم يتبادلون الحديث، وقلب مرآة التأمل، فشعر في الحال بالهدوء والسكينة، واختفى فجأة انفعاله الذي كاد أن يسبب له ألماً، وحل مكانه إحساس جديد بضبط النفس.

التفت إلى سيميون، وقال: ألا تدرك معنى هذا؟ لقد قلت منذ أيام إنك لا تستطيع أن تصدق أن العناكب كانت من قبل كائنات صغيرة. وهذا يوضح الأمر. فالقوة التي جعلت نباتات الدلتا تنمو بشكل أكبر، أثرت أيضاً على العناكب. وهذا هو السبب الذي يجعل العناكب تقدس الدلتا. وهو أيضاً السبب الذي يجعلها تطلق على الدلتا إلهة نهر الحياة. إنها نهر الحياة، والنمو.

ـ إذن لماذا لم تحول البشر إلى عمالقة؟

ـ أعتقد أنني أعرف الإجابة على هذا السؤال. لأننا لا نستطيع التقاط الذبذبة. لقد افتقدنا التعامل مع قدراتنا الطبيعية، وبالغنا في استخدام عقولنا.

سأله ميلو: ومن أين تأتي هذه القوة، على ما تعتقد؟

ـ لا أدري. ربما تكون موجودة على الأرض بصفة دائمة، وربما تكون القوة التي تجعل كل الكائنات الحية تنمو، ولكنها تتركز بشكل أقوى في منطقة الدلتا.

ابتسم أوليس، وقال: وربما تكون ممتطية ذيل المذنّب.

تجاهل سيميون ما قاله أوليس، وسأل نيال: إذا كانت العناكب قد نمت في الفترة الأخيرة، فما هو السبب الذي جعل قوة ارادتها أقوى من قوتنا بكثير؟

ـ أعتقد أن ذلك يرجع إلى إدراك العناكب الدائم لقوة الإرادة؛ فقد قضت حياتها قابعة في نسيجها، مترقبة سقوط الحشرات في النسيج. وعندما تقترب حشرة، تحاول أن تأمرها بالدخول في النسيج. ولم يكن البشر في حاجة مطلقاً لذلك النوع من الإرادة. لقد تعلمنا استخدام عقولنا وأيدينا. واسمحوا لي أن أكشف لكم عن شيء آخر، سيؤدي إلى هزيمة العناكب على يد البشر في النهاية. فالعناكب لا تتمتع بملكة الخيال، التي بدونها تصبح قوة الإرادة عديمة الجدوى. وذلك لأن الخيال هو وحده القادر على تحديد ما نريده. فما الذي تفعله العناكب بقوة ارادتها؟ تقبع في نسيجها طوال اليوم. بل إنها لم تشيد لنفسها مدينة، فقد قطنت مدينة قديمة، كان يسكنها البشر من قبل. ويبدو أن هدفها الرئيسي هو استعباد البشر، والحيلولة دون استخدامنا لقدراتنا على نحو صحيح. كما أنها غير مؤهلة لتكون سادة الأرض. وهذا هو السبب الذي يدعونا إلى قتالها.

أومأ دوجنز موافقاً، وقال: أحسنت القول.

سأل سيميون نيال: أتظن أن هذه القوة تتمتع بالذكاء؟

ـ ليس بالمعنى الذي نعرفه. فعلى حد علمي، أعتقد أن غرضها الوحيد هو أن تمد في حياة الكائنات، وذلك من خلال جعلها تصارع من أجل البقاء. وهذه هي المشكلة الأساسية بالنسبة للكائنات الحية ـ فهي تصل إلى نقطة إحباط معينة، ثم تستسلم. وهذه القوة تمنعها من الاستسلام بسهولة. . .

قال ميلو: إذن فهي العدو الحقيقي للجنس البشري؟

أثار التعليق حيرة نيال، فقال: العدو؟

ـ نعم. إذا كانت تساعد أشكال الحياة الأقل ذكاءً على مواجهة الأشكال الأكثر ذكاء. . .

هز نيال رأسه، وقد انتابته الشكوك.

قال دوجنز إلى الأمام، وقال: بمعنى آخر، إذاً أردنا القضاء على العناكب، فيتعين علينا القضاء على هذه القوة.

نظر نيال إليه بدهشة، وقال: القضاء عليها؟ لا أظن أن باستطاعتك تدمير قوّة.

قال سيميون: ولم لا؟ إذا كان بمقدور البرق شل نشاطها، فبإمكان الحاصد تدميرها.

انفعل دوجنز بشكل مفاجىء، وقال: هذا صحيح. إذا كان مركز القوة موجوداً في الدلتا، فينبغي علينا تحديد موقعه.

سأل نيال: ولكن كيف؟ يمكن أن يكون في أي مكان.

ابتسم سيميون، وقال: أعتقد أن باستطاعتي الإجابة على هذا السؤال. التفت الجميع إليه، فاستطرد قائلاً: لم أنته بعد من قصتي عن الدلتا. بعد أيام من عودتنا، تحدثت مع قائدة مسؤولة عن فرقة عبيد. قالت لي امراً غريباً - أن عنكبوتاً سقط من نسيجه خارج مركز الضباط، وقُتل. تعرفون أن هذا أمرٌ غير مرجّح. ولما قلّبت الأمر مع «فالدا» على وجوهه المختلفة، رأينا أنه لا بد وأن يكون ذلك قد حدث في الوقت ذاته الذي حدثت فيه العاصفة في الدلتا.

سأله دوجنز: متى حدثت العاصفة؟

- قبل ساعتين من حلول الظلام، بأحد أيام الصيف.

أومأ سيميون قائلاً: أي في الوقت الذي كان كل البشر قد آبوا إلى أحيائهم. وبالتالي فإن تأثيرها وقع على كل العناكب.

- هذا صحيح.

ران صمت، وراحوا يستوعبون معنى هذا التفسير.

قال دوجنز في النهاية: «أظن أننا قد توصلنا إلى الحل»، ونظر إلى نيال قائلاً: ألا تعتقد ذلك؟

هز نيال رأسه، وأحس بشيء ما في تصرف دوجنز، أثار قلقه.

- ولكن ما الطريقة التي يمكن أن نعثر بها على المركز؟

- لسنا مضطرين لذلك. لقد رأيت مدى قوة الحاصد، وبمقدورنا تدمير الدلتا بأسرها في غضون نصف ساعة.

قال سيميون: قد لا يتطلب الأمر ذلك. فالعاصفة كانت فوق الرؤوس مباشرة، عندما حدث وميض البرق. وهذا يعني أن المركز لا بد وأن يكون قد أنسدّ تماماً.

- أتستطيع وصف المكان الذي كنت فيه بالتحديد؟

- بإمكاني رسم خريطة للمكان.

اتجه دوجنز نحو خزانة، وعاد ومعه قطعة من الفحم النباتي. أشار إلى غطاء الطاولة الأبيض، وقال: ارسم على هذا!

رسم سيميون خطين، التقيا من أسفل، ليشكلا رقم سبعة. وقال: «هذه هي نقطة

التقاء النهرين العظيمين، اللذين ينبعان من الجنوب. وتنتشر مياههما في المنطقة الواقعة بينهما ـ وهي عبارة عن مستنقعات وغابات، كما تعلمون. كما توجد الغابة هنا حول جانبي حوض النهرين. وتنمو أفضل نباتات «الأوريتس» هنا، على حافة الغابة والمستنقعات، إلى الخلف من هنا». وأشار إلى منطقة جنوب نقطة الالتقاء، وقال: «يكاد يكون من المستحيل اختراق الغابة. وكنا في هذا المكان بالتحديد». ووضع علامة عند منطقة تقع إلى الجنوب من نقطة التقاء النهرين، وأضاف: «وأعتقد أن مركز القوة يوجد في مكان ما بالغابة.

وقف دوجنز خلف سيميون، محدقاً في الخريطة، ثم قال: يتعين علينا عبور أحد النهرين، من أجل الوصول إلى الغابة.

ـ نعم، وهي عملية محفوفة بالمخاطر. فهناك عناكب مياه عملاقة، تصل في ضخامتها إلى حجم الأخطبوط، تختبىء تحت سطح الماء.

قطب دوجنز، وقال: لم أكن أعرف أن هناك عناكب في الدلتا.

ـ لا تقارن بعناكب الموت. فهي، على حد علمي، ليست بالقدر ذاته من الذكاء، ولا تمتلك قوة الإرادة نفسها.

نظر إلى نيال، واستطرد: وهو ما يؤكد نظريتك بشأن العناكب. فعناكب المياه تصطاد فريستها، مثل التماسيح. وبالتالي فإنها لم تحاول تطوير قوة إرادتها. لكن لها فكوكاً مثل الشَرَك.

قال مانيثو: كما يتعيَّن اتخاذ الحيطة من شيء آخر، وهو العلقة الحمراء. لقد خاض أحد رجالي في المياه، محاولاً اصطياد قريدس ضخم. هرع عائداً بعد بضع دقائق، وقد اكتست ساقاه بهذه الأشياء الحمراء الهائلة، التي تماثل اليرقات اللامعة الكبيرة. لم نستطع تخليصه منها، ولكن لحسن الحظ تفتق ذهن أحد أفراد المجموعة عن فكرة إشعال نار. فجلبنا الخشب الطافي فوق سطح الماء، وأشعلنا فيه النار. تساقطت اليرقات بمجرد أن لمسها اللهب. لكنها كانت قد أحدثت فجوات عميقة في لحم الساق، وصلت في عمقها إلى العظم. ولقي الرجل حتفه ونحن في طريق العودة.

نظر ميلو إلى سيميون بدهشة، وقال: هل ذهبت إلى هذا المكان لمجرد جمع الدواء؟

ـ إنه دواء قوي للغاية. بإمكانك أن تجمع في يوم ما يكفي لعلاج كل سكان هذه المدينة لمدة عام. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا لم نغامر بالدخول إلى المنطقة الخطرة، فنبات «الأورتيس» ينمو على حافة الغابة، ولا أتصور أن أحداً يمكن أن يدخل هذا المكان، ويبقى على قيد الحياة لأكثر من بضع ساعات.

وأشار بإصبعه إلى المنطقة الواقعة بين النهرين.

قال دوجينز: لسنا مضطرين للدخول في هذه المنطقة، بـل إننا سنـطير فوقهـا على متن منطاد ـ أليس كذلك؟

رد سيميـون قائـلاً: ليس هناك مـا يمنعنا من ذلـك، بشرط أن تهب الريـح في الاتجـاه الصحيح.

أخذ الجميع ينظرون إلى الخطوط المرسومـة بالفحم فـوق مفرش الـطاولة، كـما لو أنهم يستشفون منها المزيد من المعلومات.

سأل دوجنز نيال: ماذا يعني هذا الشيء في نظرك، شجرة عملاقة أم نباتاً؟
ـ ربما لا يعني شيئاً على الإطلاق. وقد يكون مجرد تركيز للقوة.

قال دوجنز: لا يهم شكله، فالأسلحة الحاصدة سوف تتعامل معه.

انفتـح الباب، ودخـل أصغر أبنـاء دوجنز، وهـو صبي في الخـامسـة من عمـره. قـال بصوت واضح: يوجد خنفساء عند الباب، ويقول إنه يريد التحدث معك.
ـ شكراً يا بُني.

ربت دوجنز على رأس الصبي، وهو يغادر الحجرة، فتأثر نيال من هذه الرقـة الأبويـة، التي تعكسها الإيماءة.

عاد دوجنز بعد لحظة، وأومأ إلى نيال قائلاً: يريد السيد رؤيتنا، ومن الأفضل أن ينتظر الباقون هنا.

كان الجو قد سكن في الخارج، كما لو أن حر النهار قد استنزفـه. تناهت إلى مسـامعهما صيحات الصبية من بعيد. بدت، في هذا الجو المسالم، أفكار الموت والدمار خيالية على نحـو غريب.

لم ينبس كلاهما ببنت شفـة، وهما يسـيران خلف الحارس، عـائدين إلى مبنى البلديـة، ومنـه إلى الممر الكـائن تحت الأرض. فهم نيال، وهـو يمشي بحذر فـوق الأرض غير المستـوية، ويعتمـد على الجـدران الخشنة الملمس، ليشق طـريقه وسط الضـوء الخافت، السبب وراء تـرك الخنافس لهذا الجزء من المبنى غير مكتمل. فهي تكره عالم البشر، الذي يمتاز بالسطوح الملساء المسطحة، وبالزوايا الدقيقة، وتحلم بالعصور السابقة، التي كانت فيها الحياة بسيطة وطبيعية.

توقّف الحارس، وفتح باب حجـرة المجلس التي بدت مثـل مغارة تحت البحـر، نتيجة للضوء الأخضر الخافت، الذي لفها. رأى نيـال الخنافس جـاثمة، ومـيرلو جـالسة في فجـوة

بالجدار، وبدا شعرها متوهجاً في الضوء الخافت، كأنه معدن نفيس. وقف عنكبوت موت أسود، أمام كرسي السيد. التفت لتفقد نيال ودوجنز، وشعر نيال بقوة إرادته تمشطه، فاقشعر، مما جعل شعر ذراعيه يقب. انحنى دوجنز أمام السيد، ففعل نيال الشيء ذاته.

تحدث السيد بصوته الغريب، الذي يشبه الصفير، ولم يحرك قائمتيه الأماميتين. ودهش نيال مرة أخرى لأنه يفهم صوته، وكأنه يتحدث بلغته.

ـ طلبنا منك العودة، لنعرف ما إذا كنت قد توصلت لقرار بشأن أسلحة القتل؟ (لم تكن هناك في لغة الخنافس كلمة تعادل الحاصد).

قال دوجنز: قرارنا هو ما يوصي به المجلس.

لم يحاول التهرب من الإجابة، ففي ظل هذا الجو، وأمام مجلس الخنافس، ونظرات السيد، لم تكن هناك أية إجابة أخرى غير ما قاله. كما أحس نيال كصبي لا حول له ولا قوة في حضور السيد رغم وجود مرآة التأمل معه.

قال السيد: أحسنت. إذن لتستمع إلى قرار المجلس. لقد قررنا، إلى حين استكمال معاهدة السلام، عدم تدمير أسلحة القتل. ولكن سيتم التحفظ عليها في مكان أمين تحت إشراف الخنافس. ولن يسمح لأي إنسان بالوصول إليها، دون الحصول على تصريح من أحد أعضاء المجلس. لقد توصلنا إلى هذا القرار آخذين في الاعتبار القلق الذي أبديته إزاء التفوق العددي للعناكب، وهو قلق لا نشارك فيه ـ فالخنافس تثق ثقة مطلقة بحلفائها العناكب. لكننا نرغب أيضاً في أخذ اعتراضات خدمنا من البشر بعين الاعتبار. وإلى أن تستكمل معاهدة السلام، فإن العلاقات بين العناكب والخنافس ستعود إلى وضعها الطبيعي، كما نصت بنود معاهدة السلام الأولى. أما فيما يخص خدمنا البشر، فإن البنود الخاصة بحظر امتلاكهم للكتب سوف تلغى. وقد اقترح هذا التغيير سيد العناكب، الذي عرض أيضاً تعديل البند الخاص باستخدام الآلات، بما يسمح باستخدام أدوات ميكانيكية بسيطة. لقد أعربت بالفعل عن امتناني، نيابة عنك، لكرمه الذي أبداه. ، وسيتم تحديد طبيعة هذه الأدوات الميكانيكية، من خلال لجنة مشتركة، تضم كل الأطراف المعنية. أما المسألة الوحيدة، التي تظل معلقة فهي خاصة بمصير السجين الهارب نيال. لقد وافقت العناكب على عدم اعتباره سجيناً، وسوف يكون له مطلق الحرية في تقرير مستقبله. وأعربت عن استعدادي للسماح له بالبقاء هنا، كخادم للخنافس.

رفع نيال رأسه، وأومأ معرباً عن امتنانه، فاستطرد السيد قائلاً: لكن العناكب وجهت إليه الدعوة أيضاً للعودة إلى مدينتها، ويكون زوجاً للمشرفة الجديدة. ألقى نظرة عجلى على

ميرلو، التي كانت تحدق في الأرض، وقد بدا أنها لم تفهم كل هذه الجلبة الغريبة.

مضى السيد قائلاً: فإذا ما قرر الموافقة على هذا العرض، فسوف يتم ضمان سلامته، من خلال إصدار ملحق منفصل لمعاهدة السلام. أما إذا رغب في الرحيل في أي وقت، فإننا سنضمن أيضاً حريته.

قال نيال: «أشكرك». وتطلعت ميرلو إليه، وابتسمت.

نظر السيد إلى دوجنز، وقال: هل لديك أية تعقيبات أو أسئلة؟
ـ لا، أيها السيد.
ـ حسن جداً. سيجتمع صباح غد ثلاثة أعضاء من المجلس، وثلاثة سفراء من مدينة العناكب، لبحث الصيغة التي ستكون عليها معاهدة السلام. وإذا كنت ترغب في الحضور، فإننا نسمح لك بذلك.

انحنى دوجنز شاكراً، وفعل نيال الشيء ذاته. أدرك من خلال تصرفات السيد بأن المقابلة قد وصلت إلى نهايتها. انحنى كلاهما إجلالاً، واستدارا. راقبهما عنكبوت الموت بسلبية، وهما يغادران الحجرة، وأحس بمحاولة غير بارعة لسبر أغوار ذهنه. أصبحا بمفردهما، بعد لحظة، في الممشى.

سارا عائدين إلى القاعة الرئيسية، دون أن ينبسا ببنت شفة، فقد انشغل كلاهما بأفكاره. كانت القاعة خالية، وقد حل وقت الغسق، وخف النشاط بالخارج. أشار دوجنز إلى يافطة فوق الباب كُتب عليها «مدير المتفجرات»، وقال «هلم ندخل إلى مكتبي!».

كاد الظلام يلف الحجرة، وشاهدا من خلال النافذة ما تبقى من أشعة الشمس الغاربة، فوق أسطح المنازل. ألقى دوجنز بنفسه فوق المقعد خلف مكتبه، وطلب من نيال أن يجلس فوق مقعد آخر. جلس دوجنز مقطباً أمام مكتبه، وأخذ يطقطق بلسانه، فسأله نيال: «هل أنت راضٍ؟».

بدا دوجنز كمن يستيقظ من نوم، وقال: ماذا؟ راض!
ـ لقد منحتك ما تريده ـ السماح بالقراءة والكتابة، وباستخدام الآلات.
ـ ذلك ليس تنازلاً. فكل خدم الخنافس يعرفون القراءة والكتابة. وهي لم تقل إن بإمكاننا استخدام الآلات، بل أشارت إلى أدوات ميكانيكية معينة. ومن المرجح أنها تعني الساعات الميقاتية للبيض، وموازين المطبخ، ونحن نستخدمها بالفعل، بدون الحصول على تصريح من العناكب.
ـ لكنها وافقت على عدم تدمير الأسلحة الحاصدة.

هز دوجنز كتفيه، وقال: يظل الأمر سيئاً. فإذا ما سلمنا الأسلحة الحاصدة للخنافس، فلن نراها مرة أخرى.

ـ لكنك ستتأكد على الأقل أن العناكب لن تجرؤ على شن هجوم مفاجىء.

أومأ دوجنز، موافقاً على كلامه، وقال: هذا صحيح. ولكن إذا ما تخلّينا عن الأسلحة الحاصدة، فسوف نفقد قدرتنا على المساومة، وسنعود إلى ما كنا عليه من قبل.

ـ ليس تماماً. فإذا كان مسموحاً لك بقراءة الكتب، فبمقدورك تعلم كيفية صنع الآلات على الورق. ولن تتمكن من منعك، بل سيكون بمقدورك تعلّم كيفية صنع حاصد.

ـ مستحيل. إننا نحتاج، حتى نتوصل إلى ذلك، إلى معرفة التكنولوجيا النووية برمتها. وستبذل العناكب قصارى جهدها لعدم تمكيننا من ذلك.

ثم هز كتفيه، وقال: أرى من الأفضل أن نعود إلى الآخرين، ونقص عليهم ما حدث.

هم بالوقوف، لكنه عاد إلى الجلوس مرة أخرى، وقال: ولكن ماذا عنك؟ ما الذي ستفعله؟

ـ لا أدري.

ـ لِمَ لا تقبل عرض العناكب؟ لن تتعرض لأي ضرر إذا ضمنت ذلك معاهدة السلام. وبإمكانك الرحيل في أي وقت، إن لم يعجبك عرضها.

هز نيال رأسه، وقال: لا. لا أستطيع قبول عرضها. لقد عرض عليّ كازاك الشيء ذاته، وقد رفضته.

لم يفهم دوجنز ذو الطبيعة العملية سبب رفض نيال، فقال له: ولكن لِمَ؟

ـ لن تفهم لأنك لم تقطن مطلقاً في الصحراء. ولكن لو أنك قضيت حياتك مختبئاً تحت الأرض، فسوف تفهم السبب. لا أريد إقامة علاقات صداقة مع العناكب، بل لا أريد أن أتعلم العمل معها.

ـ إذن ما الذي تريده؟

ـ أريد القضاء عليها.

ـ قد لا يكون ذلك ممكناً.

ـ ربما تكون على صواب. ولكن كل ما أعرفه هو أن البشر كانوا ذات يوم سادة الأرض، والآن فإن العناكب هي السادة.

ـ وكذلك الخنافس.

ـ نعم والخنافس أيضاً.

ـ إذن ستقيم معنا هنا.

هز نيال رأسه، وقال: حتى هذا لا أستطيع تحمله.

أحس بعلامات السخط في صوت دوجنز: وهو يقول: ولم لا؟

ـ لأنني اعتزم مواصلة العمل ضد العناكب، وإذا ما فعلت ذلك؟ فإنني سأنتهك الوعد، الذي قطعته أمام الخنافس.

ـ إذن ماذا ستفعل؟

فكر نيال ملياً، ثم قال: سأعود إلى الصحراء.

ـ وماذا تفعل هناك؟

ـ لا أعرف. قد أبحث عن بشر آخرين مثلي ـ بشر يكرهون العناكب ويرغبون في القضاء عليها. لا بد وأن هناك ترسانات أخرى تحت الأرض، مثل تلك التي توجد في مدينة العناكب، وقد نعثر فيها على أسلحة حاصدة أخرى.

هز دوجنز رأسه بعنف، وقال: هذا جنون!

نظر نيال إليه بدهشة، وتساءل: لِمَ؟

ـ لأنني أتفق معك في كل كلمة قلتها. فأنا أريد القضاء على العناكب، وكذلك الآخرون: ميلو، أوليس، ومانيثو، وغيرهم. ولا يرغب أحد منا في العمل معّها.

ـ والمعاهدة؟

دمدم دوجنز، وقال: إنها لم تُوقع بعد.

ـ إذن ماذا عسانا نصنع، من وجهة نظرك؟

التفت دوجنز إلى النافذة، وقال: أول ما يتعين علينا القيام به هو... ثم توقف عن الكلام، وتصلب جسمه. تطلع نيال إليه، متسائلاً عن سبب رد فعله. كان الظلام قد أرخى سدله، ولم يتمكن من رؤية شيء سوى السماء البرتقالية القاتمة، والسحب الدخانية المتصاعدة. أشار دوجنز بإصبعه، وقال بصوت متوتر: ذلك يجيب على سؤالك.

ـ لا أفهم.

أمسك بذراع نيال، وقال: الريح تغير اتجاهها. هلم بنا إلى الخارج!

غرقت القاعة في الظلام، فاضطرّ لتحسّس طريقهما عبرها. كانت الأبواب الخشبية الكبيرة قد أغلقت، فغادرا المبنى من باب جانبي. طيَّرت الريح أطراف ثيابهما بمجرَّد خروجهما، وهبوطهما الدرج.

بلل دوجنز سبابته بفمه، ورفعه لأعلى، ثم قال: «إنها ريح شمالية غريبة» والتفت إلى نيال، وأضاف، وقد لمعت عيناه بتعبير غريب، وهو خليط من الانفعال، وشيء يماثل الخوف: «ألا تعتقد أن هذا بمثابة دلالة؟»

هرع أوليس باتجاههما، قبل أن يتمكن نيال من الإجابة. وضع دوجنز ذراعه حول كتفيه، وهمس قائلاً: أصغ إليّ الآن. أريدك أن تذهب وتنقل رسالة إلى كوزمن وهاستور، اطلب منهما إعداد المناطيد الثلاثة، وتجهيز طعام وشراب يكفي لستة أفراد. وقل لهما إننا سنكون بحاجة إلى الأسلحة الحاصدة!

التمعت عينا أوليس، وقال: متى تريد الرحيل؟

- بمجرد حلول الظلام.

- أليس من الأفضل الانتظار حتى بزوغ القمر؟

- كلا. لا نريد أن يرانا أحد.

انتاب نيال، وهما في طريقهما عائدان إلى بيت دوجنز، شعور بالخوف الممزوج بالانفعال، لكن شكوكه اختفت على الأقل، فقد أدرك أنه لم يعد أمامهم أي خيار.

الجزء الثاني

الدلتا

- ٤ -

تراجعت أضواء مدينة الخنافس بسرعة تحتهم، ولفّهم بعد لحظات ظلام دامس جعل نيال لا يستطيع رؤية بشرة يده البيضاء أمام عينيه. حدثت هزات عنيفة قليلة، خلال هذه المرحلة من الصعود، عندما أصبح الحبل المتصل بين المناطيد مشدوداً، إلا أنه بات بعد ذلك مرخياً، وتم الصعود في هدوء. توقف بعد خمس دقائق عصف الرياح، حيث لم تلتقِ عند هذا الارتفاع بأي شيء يعترضها، وبالتالي لم يكن لها أي صوت. ونظراً لأنهم كانوا يتحركون بسرعة، تعادل سرعة الهواء المتحرك، فإن الريح بدت هادئة، حتى كادت ألا تزيد عن مجرد نسيم عليل. انتابهم شعور غريب، وهم معلقون في الهواء، دون حراك، وسط ظلام مطبق، وقد أدركوا أنهم ابتعدوا عن الأرض لمئات الأقدام، ويطيرون بسرعة تزيد عن ثلاثين ميلاً في الساعة، وبهذه السرعة سيصلون إلى الدلتا في وقت يزيد قليلاً عن الأربع ساعات.

خف السواد بالتدريج، ليتحول إلى غسق رمادي، وتمكن نيال من رؤية مانيثو، وهو يقف في أقصى طرف المحمل التحتي، ناشراً ذراعيه ليمسك بدعائم المنطاد. حزر نيال أن عينيه بدأتا تتعودان على الظلام، لكنه أدرك، وسط دهشته، أن الضوء تسرب من الأفق الغربي، حيث عكست السحب، الوردية اللون، الشمس الغاربة. استغرق الأمر بضع لحظات، ليكتشف أن الارتفاع، الذي وصلوا إليه، سمح لهم بالرؤية عبر سطح الأرض المقوس لمسافة كبيرة. ساعده الضوء على رؤية المنطادين الآخرين، اللذين يطيران على ارتفاع مماثل لمنطاده. كان المنطاد، الذي يضم دوجنز وميلو، يبعد عنه لمسافة تقل عن خمسين متراً، ولذلك فإن الحبل، الذي يربطهما، تدلى على شكل قوس. أشار دوجنز، وصاح قائلاً شيئاً ما، لكن الريح حالت دون سماع صوته. اختفت الشمس مرة أخرى، بعد مضي عشر دقائق، ولفّهم من جديد ظلام دامس.

أحس بالأرض تحت قدميه صلبة، فقد تم وضع لوح خشبي دائري كبير في قاع المحمل التحتي. وفوق هذا اللوح، وُضع كيسان منتفخان من القماش، يحتويان على الطعام، وقد تم ربطهما في دعامات المنطاد حتى لا يسقطا. وضمّ نيال، بين قدميه، كيساً أصغر،

يحتوي على سلاحه الحاصد، وعدد من القنابل الحارقة. وانتشرت البطانيات فوق الأرضية الخشبية، وتم تثبيتها عند الأطراف، حتى لا تتحرك أو تطوى. وقد أظهر كوزمن وهاستور، اللذان أعدا معظم الأشياء، درجة ملحوظة من الرعاية، وبعد النظر. ولم تصدر منهما أية إشارة، تدل على الإحباط الشديد، الذي من المؤكد أنهما شعرا به عندما رحلوا بدونهما.

شعر نيال بالدفء، وهو يرتدي رداء من الفراء، منحته إياه حريم دوجنز، كسا جسمه حتى كاحليه، بينما انتعل حذاء عالي الرقبة، وهو نوع من النعال، لم يكن معتاداً عليه بالمرة، مصنوع من القماش، وله نعل من المطاط السميك، جعله يشعر في البداية بالسخونة وعدم الراحة، ولكنه امتن له، بعد نصف ساعة في المنطاد، فقد جعل الدفء يسري في جسمه، عند هذا الارتفاع، حيث اقتربت درجة الحرارة من الصفر.

أنار وميض ضوء مفاجىء، وجه مانيثو، الذي كان جالساً على الأرض، يشعل علبة القدح. أمسكت النار، بعد لحظات، برقاقات الخشب، التي استخدمها مانيثو في إشعال مصباح زيتي صغير، أخذ لهبه يتردد، بغير استقرار، لكنه راح يراجع من خلال البوصلة.

جثم نيال بجانبه، وقال: هل نسير في الطريق الصحيح؟

أومأ مانيثو بالإيجاب.

ـ متى سيرتفع القمر؟

أشار مانيثو إلى السماء، وقال: لن يرتفع، فهناك سحب ثقيلة.

تطلع نيال في الظلام، ورأى، بعد لحظة، عدداً قليلاً من النجوم، سرعان ما اختفت، فتساءل: ماذا عسانا نصنع؟

قال مانيثو باكتئاب: ليس أمامنا سوى الأمل.

ثم أطفأ المصباح الزيتي.

ـ لِمَ فعلت ذلك؟

ـ ليس بمقدورنا المخاطرة، فقد يقع وينسكب على الأرضية، وليس هناك، على أية حال، شيء نريد رؤيته.

ـ أليس من الأفضل أن نتشاور مع الآخرين؟

ـ بلى. سوف أفعل ذلك، ولكن أبق هنا، وإلا فإن الأرضية ستميل.

كانوا قد اتخذوا ترتيبات لحالة طوارىء مثل هذه. ارتخى الحبل حول المنطاد، واتصل بكل دعامة، وإذا ما أراد منطاد الاقتراب من الآخر، فما عليه سوى أن يجذب الحبل. لاحظ نيال، من الذبذبات، بالمحمل التحتي، أن هذا هو ما يفعله مانيثو. أحس، بعد بضع

دقائق، بارتطام خفيف، فعرف أن المنطادين قد باتا متجاورين. وتناهى إلى مسامعه صوت دوجنز، وهو يسأل: هل لديك أية فكرة عن موقعنا الآن؟

ـ لا. ولكن لا بد أننا نبعد عشرة أميال على الأقل عن الساحل. أشعر بقلق إزاء هذه السحب. وإذا لم تنقشع، فلن نعرف ما إذا كنا قد وصلنا إلى اليابسة.

ـ هل أنت على يقين بأننا لم نصل بعد إلى اليابسة؟

ـ من السهل علينا معرفة ذلك.

سمع صلصلة القنابل الحارقة، عندما مد مانيثو يده بداخل الكيس. نهض نيال بحذر، ونظر من فوق الحافة، وقد استند على إحدى الدعامات. شعر بهزة، حينما ألقى مانيثو بالقنبلة. بدا، للحظة، أن شيئاً لن يحدث، ثم ومض ضوء أصغر وهاج من تحتهما، تزايد وهو يسقط، ثم عكست مياه البحر، فجأة، الوميض إليهما. لمح نيال، للحظة قصيرة، المياه السوداء والزبد الأبيض، للأمواج المتكسرة، ثم خبا الضوء. كانت هذه الثواني القليلة كافية، كي يعرفوا منها أن البحر يمتد تحتهم من جميع الاتجاهات. شعر نيال بصدمة خوف لأول مرة منذ أن ركب المنطاد. كان يشعر، من قبل، بالأمان والظلام يلفه، لكنه أدرك الآن أنه معلق في فراغ شاسع.

قال دوجنز: بإمكاننا الارتفاع فوق السحب، ولكننا لن نكون في وضع أفضل. ما رأيك؟

ـ لا فائدة من ذلك، فسوف نظل غير قادرين على رؤية اليابسة حتى عندما نقترب منها. الشيء الوحيد الذي بوسعنا أن نفعله هو مواصلة إلقاء القنابل الحارقة، كلما شعرنا بأننا قد اقتربنا. كم لدينا منها؟

ـ اثنتا عشرة قنبلة لكل منا.

ـ إذن فإن لدينا اثنتين وسبعين قنبلة ـ وإحدى وسبعين بدون القنبلة، التي ألقيتها. هذا يكفي.

ـ في هذه الحالة، يتعين أن نأكل شيئاً، فأنا أشعر بجوع شديد.

ترك مانيثو الحبل، وجلس على أرضية المنطاد. حدثت هزة خفيفة، بعد بضع لحظات، عندما وصل الحبل إلى أقصى مداه.

استخدم مانيثو مرة أخرى علبة القدح، وأشعل المصباح الزيتي الصغير، وأحكم إمساكه إلى أن اقتعد نيال الأرضية. كان مانيثو يزيد في الوزن عن نيال بحوالي خمسين رطلاً على الأقل، لذلك فقد مالت الأرضية تحت ضغط وزنه. أعادا ترتيب أوضاعهما بشيء من

الصعوبة، وبكثير من الحذر، في مقابل الأكياس، حتى توزع الثقل بشكل مستوٍ. ثم سلم مانيثو المصباح لنيال، بينما فك أحد أكياس القماش، وأخرج منه سلّة من الأغصان المجدولة، بداخلها فطائر من الخبز، عسل، لحم طرائد مطهية، جبن ماعز، تفاح، وإبريق به نبيذ ذهبي. جلسا القرفصاء ليتناولا طعامهما، لم تكن حوائط المحمل التحتي مصممة بحيث تتحمل ظهر إنسان، وأخذت تتثنى، من أي ضغط عليها، على نحو خطير.

لو أن نيال أغمض عينيه، لتخيل نفسه يعود إلى الحجر. أثار النبيذ والطعام إحساساً بالأمن والتفاؤل، أدخل على نفسه السرور، ولم يعد الأمر يهم إذا ما كان يتأرجح في الفضاء، وهو معلق فوق المحيط لمسافة ألف قدم. مع ذلك فقد جعله هذا الإحساس يدرك مدى التغير الذي طرأ عليه، فقد بدا الآن أن الصبي، الذي عاش في الحجر، ينتمي إلى عهد بعيد في حياته.

أيقظته ومضة ضوء مبهرة، كان دوجنز قد أسقط قنبلة حارقة أخرى، كشفت عن الشيء ذاته، كما حدث من قبل: البحر الأسود، المرقط باللون الأبيض، الممتد إلى ما لا نهاية تحتهم. أفرغا قارورة النبيذ، وألقى مانيثو بالزجاجة الفارغة، فشعر نيال بارتياح غريب، وهو يتخيَّل سقوطها وسط السواد. أطفأ مانيثو مرة أخرى المصباح.

بدأ المطر ينهمر، بعد ذلك مباشرة. رفع نيال غطاء رأس الرداء المصنوع من الفراء، واستخدم رباطه ليحكم لفه حول رأسه. كان الرداء مصنوعاً من جلد حيوان مملح، وواق من الماء تماماً. لكن تساقط المطر فوق غطاء الرأس أذهب النوم عن عينيه، وجعله هذا بالتالي يدرك خطر الاستسلام للإحساس بالأمن الكاذب. لو أنهم يمضون الآن في الطريق الصحيح، فلا بد أنهم قطعوا نصف المسافة إلى الدلتا. ويقول سيميون إن نقطة التقاء النهرين تبعد نحو ميل فوق اليابسة من الساحل. وسوف يكون من السهل، وهم يطيرون بالسرعة الحالية، تحديد المكان، والهبوط في الصحراء، عند الجانب القصي من الدلتا. . .

مد يده داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل، حتى يسيطر على احساسه بالقلق. تلاشى شعوره بالنعاس في الحال. ولكن ذلك كان غير ذي جدوى في البداية، بل إنه أصبح مدركاً على نحو أكبر بالمطر، وبتمايل المنطاد. ثم تحولت أفكاره إلى الحيوان الاسفنجي، الذي يستقر على ارتفاع بضع بوصات من رأسه، وبات على الفور مدركاً لوجوده. بدا الأمر كما لو أنه نقطة ضوء خافت، محاطة بخيوط طاقة طويلة، امتدت وسط الظلام. كان ثمة نبض ثابت الإيقاع، مثل دقات قلب في مركز نقطة الضوء، حيث تتجمع كل هذه الخيوط. أحس بأنه قد أصبح جزءاً من هذه النبضة، عندما ركز فيها. انتابه شعور غريب بأنها تحاول إجراء

اتصال معه. ثم أصبح هو نفسه النبضة. وبدا جسمه بعيداً وغريباً عنه، كما لو أنه ينتمي إلى شخص آخر.

لم يعد الظلام يلفه الآن. أدرك أن عينيه مغمضتان، ومع ذلك فإنهما بدتا مفتوحتين. كان يشق طريقه، وسط سديم أحمر، وحين ركز حواسه، رأى بوضوح، كأنه في وضح النهار، غطاء السحب القاتمة فوقه، والقمر شبه المكتمل يميل فوقهم. وفي الأسفل، رأى الأمواج المتكسرة. بل إنه اخترق، بجهد أكبر، سطح البحر، وتعرف على القاع.

شعر بالحيوانات الإسفنجية، في المنطادين الآخرين، واختلطت خيوط طاقته بخيوطها، واختلطت مداركها بمداركه. عرف الآن السر وراء بقاء المناطيد عند الارتفاع ذاته، وسبب عدم اصطدامها ببعضها البعض، فالحيوانات الاسفنجية تتعرف على بعضها، وتحافظ على المسافة بينها. انتابه إحساس غريب بأنها قادرة على تنظيم مدى ارتفاع المنطاد، ليس من خلال كمية الغاز التي تنفثها، أو تمتصها فحسب، بل لقدرتها على توجيهه أيضاً.

أصبح إدراكه مطابقاً الآن لإدراك الحيوانات الإسفنجية، ولم يعد يشعر بالقلق إزاء وضعه الراهن. وتلاشى نفاد صبره، ولم يعد الأمر يهم إذا ما كان في الهواء، أو فوق الأرض، وشعر أن بإمكانه الشعور بالسعادة إذا ما ظل المنطاد معلقاً بين السحب والبحر إلى الأبد. بدا إدراكه الإنساني، بيقظته وتوتره الأبديين، وكأنه مجرد ذكرى بعيدة، وبدلاً من أن يظل معلقاً في حالة من الإدراك قريبة من النوم، بات في حالة من الوعي الكامل.

أدرك أن «خيوط الطاقة»، التي ينفثها الحيوان الإسفنجي، ما هي في الواقع سوى جيشان لنوع من الطاقة، منخفضة التردد، وأنها ترتدّ عائدة عند اصطدامها بأي شيء، الأمر الذي يمكنه من «رؤيتها». دُهش لإدراكه بأنه يمتلك هذه القدرة ذاتها، ولكن بدرجة أقل كثيراً، حيث أنه لم يضطر مطلقاً لتطويرها، بعكس الحيوانات الإسفنجية، إذ أنه كان يفضل دائماً الاعتماد على حاستي النظر والسمع. والشيء ذاته صحيح بالنسبة لمانيثو، الذي يحدق الآن في الظلام، وهو بين النوم واليقظة. ترك إرادته تنهار، بعد أن شعر بالضجر، مما جعل ذهنه يتوقف تقريباً عن نفث «خيوط الطاقة».

أدرك على نحو مفاجىء أن هذه هي المشكلة الأساسية لكل البشر. فبمجرد شعورهم بالضجر، يتركون إرادتهم تنهار. ولا ترتكب العناكب ذلك الخطأ الجسيم، وهذا هو السبب الذي جعلها سادة العالم. فهي غير قادرة على الشعور بالضجر...

سحب دوجنز قنبلة حارقة أخرى من كيسه، وراقبه نيال وهو يحرك أداة التوقيت، ويلقي بها. تابعها وهي تهوي عبر الهواء الأحمر، حتى انشطرت فجأة ـ ورأى شظاياها هذه

المرة وهي تتناثر. رأى، بعينيه البشريتين، الانفجار كـوميض براق من الضـوء الأصفر، لكن حواسه الإسفنجية رأته كـانفجار مـزعج للطاقـة التي خرجت مثـل صوت يتـذبذب، ويـتردد صداه في العالم.

لم تكن هناك ضرورة للقنبلة الخارقة بالنسبـة لنيال، الـذي عرف، من خـلال حواسـه الممتدة أن الساحـل أصبح عـلى بعد عشرين ميـلاً إلى الجنوب. وتمتـد الصحراء فيـما وراءه. وسوف يعبرون الشريط الساحلي، بخط سيرهم الحالي، على بعد نحو ستة أميال شرقي الدلتـا. أدرك نيال، من هذه المسافة البعيدة، أن الساحل، الذي يقتربون منه، مكان منعـزل وقاس، به مستنقعات طينية، تتحول بعد عدة أميال للداخـل إلى صحراء صخرية. ولكن، على بعد بضعة أميال أخرى نحو الغريب، يوجد شاطىء رملي طويـل، يحميه حـاجز أمـواج طبيعي، من الأحجار المرجانية والجيرية. وهذه هي المنطقة، التي وصفها سيميـون، بأنها أفضـل مكان للهبوط فيه.

لم يكن ضروريـاً أن يصدر نيـال أمـراً ذهنيـاً إلى الحيـوان الإسفنجي، حيث أن ذهنـه ونظامه العصبي باتا امتداداً لذهنه. استدار الحيوان في حركـة طبيعية، تشبـه حركـة السبَّاح، عندما يغير اتجاهـه، في شكل قـوس بطيء طـويل، حتى أصبح في اتجاه الشـاطىء الرمـلي. دُهش من ميكانيكية العمليـة، حيث بدا الحيـوان الإسفنجي وكأنـه يتحدى قـوى الطبيعـة، واتجـاه الريـح. وبقدر مـا استطاع أن يفهم، فـإن السر يكمن في عدم إدراك الحيـوان لحقيقة انتهاكه لقانون الطبيعة.

فتح نيال عينيه، ودُهش عندما اكتشف أن الظلام قـد تبدد، والأمـطار توقفت، وبـزغ القمر من وراء السحب. مال للأمام وهز ذراع مانيثو، الذي استيقظ جافلاً.

قال نيال: اننا نقترب من الساحل.

هب مانيثو واقفاً، وأنعم النظر، وقال: لا أستطيـع أن أرى شيئاً. ـ لأنـه ما زال يبعـد عشرين ميلاً.

وقف مانيثو جامداً كتمثال، وهو يحدق في الأفق. ثم رفع يـديه نحـو فمه، بعـد خمس دقائق، وزأر قائلاً: «الساحل أمامنا». التفت إلى نيال، وقال، وقد علت وجهـه ابتسامـة تنم عن الرضا: «لقد كان خط سيرنا صحيحاً».

أصدر نيال أوامره إلى الحيوان الإسفنجي بالهبوط ببطء، عنـدما تمكنـا من تمييز أشجـار النخيل، وسط الرمال البيضاء. اختفى القمر، خلف السحب البيضاء، معـظم الوقت أثنـاء عملية الهبوط. ولما ظهر مرة أخرى، كـانوا يبتعـدون عن الشاطىء مسـافة ميـل، وتناهى إلى

مسامعهم هدير الأمواج، وتحطمها على الشاطىء، وتناثرها داخل المحمل التحتي. لعق نيال شفتيه، فأحس بطعم الملح. اهتز المحمل، بعد لحظات، من تأثير موجة عاتية، ثم انطلق فوق الشاطىء، حتى توقف على بعد عشرة أمتار من صف لأشجار النخيل. بدأ المنطاد في الحال ينهار فوق النخيل. شق نيال طريقه خارجاً من أسفل، وقد تعرقل للحظة في ساقي مانيثو المفتولتين، ثم وجد نفسه على يديه وركبتيه فوق الرمل الناعم.

غمره شعور غريب، وهو يحس بالأرض الصلبة تحت قدميه مرة أخرى، ويرى الأمواج وهي تتكسر ضعيفة على الرمل الأبيض، تصلبت قدماه، وأخذتا تؤلمانه، وهو يسير على الشاطىء باتجاه دوجنز وميلو، لكنه شعر بالنشوة، مع كل خطوة، فوق الرمل الرطب. وعلى بعد خمسين متراً أخرى، أخذ سيميون وأوليس يتخبطان، لإبعاد منطادهما عن شجرتي نخيل انحشر بينهما.

كان دوجنز في حالة من الابتهاج الشديد، وألقى بذراعه حول كتف نيال، وضغطه، وأشار بيده الأخرى إلى الشاطىء، الذي ينيره القمر.

ـ ما رأيك في هذا؟ قلت لك إنني محظوظ.

أمضوا نصف ساعة في تفريغ المناطيد، وسحبها، وطيها، ووضعها في مكان آمن وسط الأشجار. عثر ميلو، على بعد مائة متر، على بركة صخرية، تصب فيها المياه من نهير أودعوا فيه الحيوانات الإسفنجية، وأفرغوا وعاء من الديدان فوقها. بدأ الجميع يشعر بعاطفة معينة تجاه الحيوانات الرخوية، ذات الرائحة الكريهة.

امتدت أشجار النخيل بطول الشاطىء، وكانت توجد عند أقصى طرف الأشجار حفرة رملية، مغطاة بالعشب، وضعوا فيها أشياءهم، والأكياس، التي تحوي الأسلحة الحاصدة، والقنابل الحارقة. أراد ميلو وأوليس، اللذان كانا في حالة من الانفعال والبهجة، إشعال نار لإعداد وجبة، لكن سيميون نصحهما بألا يفعلا، فقد يؤدي ذلك إلى جذب زائرين غير مرغوبين من داخل الدلتا. استخدم نيال، في الوقت ذاته، مديته ليحفر تجويفاً صغيراً في الرمل، فرش فوقه الرداء المصنوع من اللدائن، الذي جلبه معه من البرج الأبيض. صنع وسادة من بطانية مطوية، وكسا نفسه ببطانية أخرى، ما تزال رطبة من تأثير الأمطار. شعر براحة كبيرة، تفوق تلك التي يمكن أن يوفرها له فراش من أوراق الأشجار، أو الحلفاء، وفي غضون دقائق استغرق في نوم عميق.

لما فتح عينيه مرة أخرى، وجد السماء وقد أصبحت رمادية اللون، فقد انبلج الفجر، رغم أن الشمس لم تسطع بعد. كان أول شيء يلاحظه هو الرائحة المميزة للدلتا. لم تكن

مجرد رائحة خضراوات عطنة، ولكنها رائحة من نوع آخر من الصعب تمييزها، جعلته يفكر في الأرض السوداء الرطبة، وفي الفطريات البيضاء. أصبح مدركاً للذبذبة، وهو يركز ذهنه في هذه الرائحة، محاولاً معرفة كنهها. لم يكن الأمر يحتاج إلى الانسحاب بشكل متعمد. لحالة من الاسترخاء الداخلي، فهنا عند حافة الدلتا تكون الذبذبة محسوسة بشكل واضح، مثل تنفس حيوان هائل.

كان من الواضح أن الآخرين مستغرقون في النوم، لكنه عندما دفع نفسه لينهض مستنداً على كوعه، التفت سيميون إليه مبتسماً، فقد كان مستيقظاً منذ فترة.

سأله سيميون بصوت خافت، حتى لا يوقظ الآخرين: ألم تشعر بالجوع بعد؟

أدرك أنه جائع، فقال له: بلى.

أزاح سيميون البطانية عنه، ونهض واقفاً، وأومأ إلى نيال قائلاً: تلك هي مشكلة الدلتا. لنرَ ما إذا كان بمقدورنا العثور على أي إفطار.

أخرج من كيسه مدية طويلة، يبدو أن نصلها، وهو على شكل منجل، مصمم لقطع النباتات. حمل أيضاً كيساً ضخماً من القماش، له حمالة كتفية. ثم شقا طريقهما، بخطوات حذرة حول النائمين، إلى قمة سلسلة من الكثبان الرملية، تمتد في أقصى جانب التجويف. شاهد نيال بإعجاب، بعد أن ازداد ضوء النهار، اخضرار النباتات، وغنى ألوان الأزهار، كما لاحت أوراق الشجيرات كأنها قد رُشت بدهان أخضر لامع، بينما بدت الأزهار الحمراء، والصفراء، والبنفسجية، التي انتشرت بوفرة فوق التربة الرمليّة، كما لو أنها تحاول لفت الأنظار إليها، مثل شفتين نديتين لفتاة جذابة. أثار هذا المنظر إعجابه للوهلة الأولى، كما أثار نفوره على نحو غريب.

كان المنظر مثيراً من فوق الكثبان الرملية، حيث امتدت الدلتا أمامهما. لاحظا من مكانهما أنها عبارة عن حوض من الأراضي الواطئة، تصل أعرض نقطة فيها إلى نحو خمسين ميلاً، وتحيط بها التلال من الشرق والغرب. كان معظمها، في تلك اللحظة، في الظلال، حيث ارتفعت الشمس بالكاد فوق الأفق الشرقي. انتشر سديم فضي فوق منطقتها الوسطى، التي تمتاز عن غيرها بوجود تل صغير مغطى بالأشجار. كما لاحظ تألق مياه نهر، تشقّ طريقها بين نباتات، شديدة الاخضرار. بدت الدلتا، في هذه الساعة المبكرة من الصباح، آمنة ورومانسية، لكن رائحتها المميزة كانت الشيء الوحيد الذي حمل رسالة تهديد.

سارا إلى واد آخر، اكتست جوانبه بسجادة من النباتات الخضراء اللامعة، تماثل بقلة مائية مبالغاً في نضجها. داسا فوقها بأقدامهما، فصدرت عنها رائحة حريفة، لكنها ليست

مقززة. كان يوجد بأقصى طرف الوادي عدد من الشجيرات الخفيضة، ذات أوراق على شكل القلوب، وذات ثمار صفراء كروية بها بقع بنفسجية.

أشار سيميون إليها، وقال: ذلك ما نبحث عنه. شجيرة السيف.

ـ هل ثمارها طيبة الطعم؟

ـ لا. إن طعمها رهيب.

اقتربا من شجيرة، تألّقت أوراقها الندية تحت أشعة الشمس. هَم نيال باقتطاف إحدى الثمار. لكن سيميون أمسك برسغه.

ـ انتظر! إذا كنت تريد البقاء على قيد الحياة في الدلتا، فلا تَنْصَعْ وراء دافعك الأول مطلقاً. فكل شيء تقريباً تنظر إليه يحوي شركاً.

وضع سيميون يده في جيب ردائه، وأخرج قفازاً جلدياً، ووضعه عند طرف المدية الطويلة، ثم مده حتى لمس إحدى الثمرات. حدثت عند أعماق الشجيرة حركة مفاجئة جعلت نيال يرتد، ثم رأى أن شوكة سوداء طويلة طعنت القفاز. سحب سيميون بسرعة نصل المدية من القفاز، فسقط عند أقدامهما، التقطه سيميون، ونزع منه الشوكة، التي كانت من خشب صلب لامع، ومدببة بشكل حاد مثل إبرة. وضع سيميون القفاز مرة أخرى في المدية، وحده هذه المرة نحو ثمرة قريبة من الأرض. قفزت شوكة مرة أخرى من خلف الثمرة، وطعنت القفاز. سحب سيميون من جديد النصل وأبعد الشوكة. كرر هذه العملية ثلاث مرات أخرى، ولكن عندما كررها للمرة الرابعة، لم يحدث شيء. حاول سيميون من جديد، وحينما لم يظهر أي رد فعلٍ من الشجيرة، مد يده وقطف الثمرة. وضع ست ثمرات في الكيس المدلى من كتفه.

ـ أرأيت؟ إن النبات يتعلم بسرعة، فلا تحاول ذلك مرة أخرى!

جثا نيال لينظر داخل الشجيرة، في محاولة لمعرفة أصل الأشواك.

قال سيميون: لقد تعلمت أن اليد خطرة، ولذلك تحاول قتل من يقربها.

ـ ولكن ماذا تفعل بمن تقتله؟

ـ تجتذبه إلى وسطها، وتتركه يتعطن، ثم تمتصه بطريقة أو بأخرى.

تطلع نيال بامتعاض إلى الشجيرة، التي تبدو غير مؤذية، وقال: «إنها حقاً مضللة».

ـ لكن يمكن فهمها. هل لك أن تتخيل، وقد انزرعت قدماك في الأرض، أتستطيع التحرك؟

أشار نيال إلى الأوراق شديدة الاخضرار تحت قدميه، ذات الرائحة الطيبة، وقال: أ خطيرة؟

- إذا ما نمت فوقها فقط. هذه الرائحة مخدرة، وسوف تجد نفسك مستغرقاً في أحلا لذيذة، ولن تستيقظ أبداً. مثل ذلك الشيء هناك. وأشار إلى رابية صغيرة تكسوها نباتاء لامعة.

- ما هذا؟

- لا أدري، ربما يكون خنزيراً وحشياً هبط من الغابة.

انحنى نيال، وأنعم النظر في الرابية، بعد أن أزاح بعض الأوراق. رأى بقايا فراء لكن السيقان البيضاء الشاحبة انغرزت في اللحم، لذلك لم يظهر معظمها من التربة.

قال سيميون: عندما تكون الضحية نائمة، ينمو هذا الفراء حولها من كل جانب، ا غضون ساعات، ويلتهمها، وهي ما تزال حية.

عادا أدراجهما نحو المخيم. توقف سيميون فجأة، وقال: آه. هذا ما كنت أبحث عنه.

تقدم نيال نحو أجمة بها شجيرات، ذات أزهار، ألوانها بهيجة، فرأى، عندما اقترب أن سيميون مهتم بشجيرة رمادية ملتوية، تغطيها كريات شوكية، يبلغ قطر الواحدة نحو ثلاث بوصات.

- ما هذه؟

- نسميها الواقية.

- أهي خطرة؟

- إذا ما تعثرت فيها دون أن تراها. فأشواكها مسممة، وتسبب أوراماً مؤلمة للغاية.

رفع سيميون مديته، وقطع إحدى الكريات، فسقطت على الأرض، مثل رأس مقطوع. دس سيميون يده في القفاز، والتقط الكرة بحذر في إحدى الأشواك. ثم ثبتها على الأرض، وأخذ يقطع الشوك، حتى أزاله، أو كسره. ووضعها في الكيس، ومضى يجمع ست كرات أخرى.

قال بارتياح: لقد قمنا بعمل رائع هذا الصباح. فهذه الأشياء تساوي وزنها ذهباً.

- ما فائدتها؟

- تردع الحشرات.

كان الآخرون ما يزالون نائمين، فاتجها نحو الشاطىء. كان البحر هادئاً ساحراً، وراحت المويجات الخفيفة تتكسر، فوق الرمل الناعم. ورسمت أشعة الشمس البازغة خيوطاً ذهبية شديدة التألق، فوق صفحة الماء.

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ سنحاول العثور على شيء نتناوله في الإفطار.

تفقدا البركة، التي تضم الحيوانات الإسفنجية، التي سبحت في الحال نحوهما فاتحة أفواهها لتكشف عن ألسنة وردية صغيرة. تناول سيميون إحدى الثمار الصفراء، من كيسه، ونزع قشرتها الصلبة، ووضعها فوق صخرة مسطحة، وقسمها إلى قطع صغيرة. راقبه نيال متشككاً، فقد شعر أن الحيوانات الإسفنجية لن تبدي اهتماماً بهذه الثمرة. ولكن بمجرد أن ألقى بها سيميون في البركة، قفزت الكائنات، والتقطتها بأفواهها المفتوحة. ولم تتبق شريحة واحدة من الثمرة، في غضون ثلاثين ثانية. التقط نيال القشرة واشتمها، ثم ألقى بها مشمئزاً، فقد كانت رائحتها تماثل تماماً رائحة اللحم المتعطن.

قال سيميون: إنها ليست الرائحة، التي تجتذب الكائنات، بل يبدو أنها تحوي بعض الزيت، الذي لا تستطيع الحيوانات مقاومته.

واصلا السير على الشاطىء، حتى وصلا إلى مكان انحدرت فيه الصخور المكسوة بالعشب نحو البحر. صعدا هذه الصخور، ليجدا نفسيهما ينظران إلى أسفل في بركة عميقة، اكتسى قاعها بأعشاب بحرية، بدت كما لو أنها مصنوعة من نسيج عنكبوتي أخضر. وارتفع القاع الصخري باتجاه البحر، ولذلك فإن البركة تظل ممتلئة إلى نصفها فقط بالماء، حتى لو حدث مد. جلسا، وقد تدلت أقدامهما فوق صفحة الماء، بينما راحا يقشران الثمار الصفراء. ثم قطع سيميون إحداها إلى مكعبات كبيرة، وعصر أحد هذه المكعبات بيده، فانسال العصير الزيتي فوق سطح الماء، فتلطخ بلون بنفسجي. وعندما ألقى سيميون باللب المسحوق، غاص ببطء إلى القاع، واختفى وسط الأعشاب البحرية. حدثت حركة، في الحال، عند أقصى طرف البركة، ثم خرج كائن غريب متقزح اللون، يزيد طوله عن ست بوصات، من تحت صخرة معلقة، واختفى وسط الأعشاب البحرية، حيث توجد قطعة من الثمرة. لم يكن نيال قد رأى من قبل قط القريدس، لذلك لم يدرك أنه ضخم. تبعته روبيان أخرى من كل مكان في البركة، بينما خرج حبار بني صغير، من كهف أسود تحت السطح، واستولى على شريحة من الثمرة، وعاد ليختفي في الكهف. انتهى سيميون من تقطيع الثمار، وألقى بها في البركة، التي باتت، بمجرد أن انتهى، مملوءة بالقريدس، الذي أخذ يتخبط للحصول على القطع.

اتجه سيميون، في الوقت ذاته، نحو طرف البركة المواجه للبحر، وفي يده المدية الطويلة، وأخذ يخوض بحذر في الماء. كان القريدس منشغلاً في الوليمة، فلم يبد اهتماماً بسيميون، وهو يغرس نصل مديته في واحد منها، ويخرجه إلى الرمل. جمع، في أقل من خمس دقائق، أكثر من عشرة منها. التقطها نيال، وهي ما تزال تتلوى، ووضعها في الكيس.

كان سيميون يضع مديته فوق قريدس كبير الحجم، وينتظر أن يغوص للقاع، عندما لاحظ نيال وميضاً أحمر عند أقصى طرف البركة. ظن، للحظة، أنه قريدس آخر، ثم أدرك، عندما أصبح تحت أشعة الشمس، ورأى قرنيه المتموجين، أنه حيوان صدفي مائي ضخم. جعله حجمه الهائل ينحشر، للحظة، عند مدخل الكهف الكائن تحت الماء. كان رد فعل سيميون سريعاً على الصيحة المذعورة التي أطلقها نيال، وقفز باتجاه الطرف الضحل من البركة. تبعه سرطان البحر الضخم، وفي اللحظة التي أطبق فيها مخلبه على ساق سيميون، كان نيال قد سحبه خارج الماء.

أُصيب نيال بالذعر، وهو يرى هذا الكائن البحري، يحاول الخروج من البركة لمهاجمتها، وكان بالنسبة له يماثل عقرباً هائلاً. لكن سيميون ثبت في مكانه، وعندما خرج سرطان البحر فوق الصخرة الملساء، رفع المدية، وهوى بها بكل قوته. سقط المخلب المفصول عند قدمي نيال، وأخذ يتشنج فوق الصخرة، التي انقسمت مثل جوزة مشقوقة. رفع سيميون المدية مرة أخرى، ولكن نحو عيونه هذه المرة، إلا أنه تراجع، واختفى في الماء.

نظر سيميون إلى ربلة ساقه اليمنى، فوجد اللحم قد تمزق، وأخذ ينزف بغزارة. لكنه حين تفقد الجرح عن قرب، وجده أقل خطورة مما بدا. لقد أمسك المخلب بالجزء اللين من الجلد، ومزقه، فتدلى، ولكن الجرح كان سطحياً. بدا واضحاً أن سيميون قد استعد للطوارىء، فقد أخرج من جيبه ضمادة، ولف بها ربلة ساقه. نظر نيال، في الوقت ذاته، إلى المخلب، الذي ما يزال ينفتح وينغلق، وذلك بافتتان مشوب بالرعب. كان طوله يبلغ نحو قدمين، ولاح حاداً بما يكفي لقطع ساق إنسان. لما توقف عن الحركة، رفعه نيال بكلتا يديه. قال سيميون وهو يتألم: ضعه في الكيس، فسوف نحتاج إليه في الإفطار!

كان المخلب أكبر من أن يوضع في الكيس، ولذلك اضطر لحمله بكلتا يديه.

لما أصبحا على بعد خمسمائة متر من المخيم، شاهدا دخاناً، فعرفا أن أحدهم قد أشعل ناراً. ارتفع الدخان بشكل عمودي في الهواء، فقال سيميون: لقد توقفت الريح.

قابلا مانيثو، الذي كان عائداً من النهر، ومعه قدر صغيرة بها ماء صافٍ. ووجدا أوليس، وقد تسلق نخلة، وأخذ يلقي ثمار البلح، بينما نشر دوجنز بطانية على الأرض،

لتكـون بمثابـة مفرش سفـرة، وأخذ يقـطع شرائح من رغيف خبـز أبيض طـويـل. ولمـا رأى القريدس، ابتسم، وراح يفرك يديه.

ـ هذا طبقي الأثير. لكني لم أر قريدساً بمثل هذا الحجم.

واتسعت عيناه، عندما رأى مخلب سرطان البحـر، وقال: إن طهي ذلـك الشيء سوف يستغرق اليوم بأكمله.

ابتسم سيميون، وقال: آه. لا أعتقد ذلك.

ألقوا بالمخلب وسط النار، فأخذت الفقاعـات تتشكل حـوله، وتصـاعد البخـار، بينما دفعوا القريدس وسط الرماد الساخن عند حافـة النار، غـطوه بالأغصـان المحترقـة. استغرق الأمـر نحو نصف سـاعة لإنضـاج معظمـه، ثم نزعـوا القشور المحـترقة، وأكلوا لحمـه، بعد إضافة الملح والزبد إليه. شعر نيال أن هذا ألـذ طعام تـذوقه في حيـاته، والتهم اثـنين بشهية رجل جائع. قلبوا، حـين تحولت النـار، بعد نحـو ساعـة، إلى رماد سـاخن، مخلب سرطان البحر، ووضعوه فوق بطانية، ثم سحبوه فوق رمال الشاطىء إلى البحر. تصدعت الصدفة، التي قاومت حرارة النار، بمجرد القاء المخلب في الماء. تمكن نيال من نزع شريحـة على شكـل شظية، وترك ماء البحر يبرد مـا بداخله. ولمـا برد المخلب، حملوه عـائدين إلى المخيم، حيث حطم سيميون الغلاف الصدفي بصخرة، ثم وزع على الجميع أجزاء منه. شعر نيال بـالأسف لأنه تناول قبل ذلك اثنين من القريـدس، فقد كـان لحم سرطان البحـر ريانـاً وشهياً، لكنـه اضطر للاعتراف بهزيمته، بعد أن تنـاول أقل من نصف حصتـه. والتهم سيميون كـل حصته بتصميم بالغ، وأحس نيال بسعادة سيميون وهو يقضم جزءاً من المخلب، الذي كـاد أن يبتر ساقه.

ولما انتهوا من الطعام، تناولوا شراباً قوياً مركباً من أعشاب منقوعة في ماء ساخن. عثر سيميون على حجر مفلطح، استخدمه في فتح الكريات الشوكية الـرماديـة. احتوت كـل كرة على ثمرة بيضاء ملساء، لهـا رائحة نفـاذة غريبـة، تؤلم العـين، سلم كل فـرد واحدة منهـا، وطلب منهم خلع مـلابسهم بـالكـامـل، وتـدليـك أنفسهم، من شعـر الـرأس حتى أخمص القدمين، بعصيرها، الذي أثار اهتياجاً مؤلماً، خاصة في المناطق الـرقيقة من الجسم. وعنـدما طلب مني دوجنز تدليك العصير في المنطقة الصلعاء بمؤخرة رأسه، تقلصت عضلات وجهه، وتساءل: «أيتعين علي ذلك؟».

ـ نعم، وسوف تشعر بالراحة، قبل أن ينقضي اليوم.

فك سيميون الضمادة من حول ساقه، ودلـك الثمرة البيضـاء فوق الجـرح، وقد أطبق

أسنانه من الألم. ولكن حين دلك اللحم الممزق ببقية العصير، ومسحه بعناية بحفنة من العشب، توقف النزيف في الحال، وابيض الجرح، والتأم، فبدا واضحاً أن للعصير خصائص قوية لمداواة الجروح.

تطلع مانيثو إلى الشمس، التي ارتفعت في السماء، وقال: «ألم يحن الوقت كي نتحرك؟».

هز سيميون، الذي أخذ يعيد لف الجرح بضمادة نظيفة، رأسه، وقال: كلا. إن أول درس عليك أن تعيه في الدلتا، هو ألا تتسرع مطلقاً. الآن أصغ! ثم تلفت حوله، وأضاف: وهذا ينطبق على الجميع. فاجلسوا وانصتوا للحظة. أريدكم أن تضعوا ما سأقوله في أذهانكم، إذا أردتم البقاء أحياء. لعلكم تعرفون أن النبات لا يتسرع على الإطلاق. وإذا شئتم البقاء على قيد الحياة في الدلتا، فعليكم أن تتعلموا التفكير بأسلوب النبات.

واستطرد: هناك أمر آخر أريد قوله، وقد لا تصدقونه، ولكن بمقدور النباتات قراءة أذهانكم. وذلك يعني أنه عندما تشعرون بالاجهاد والتوتر، فإنها تعرف ذلك. إذن فالأمر الأكثر أهمية هو أن تتذكروا ضرورة بقاء عقولكم في وضع سليم في الدلتا، وإن لم تفعلوا ذلك، فلن تخرجوا منها أبداً.

قال ميلو: ولكن أليس من المؤكد أن تحمينا الأسلحة الحاصدة من معظم هذه الأشياء؟

- ربما. ولكن أريدك أن تضع في ذهنك أن الدلتا تماثل كائناً حياً وحيد الخلية. ولا يبدو أنها تضع مثل هذه الأشياء في اعتبارها، وأومأ إلى المدية، ثم أضاف، ولكني أعتقد أننا قد نواجه رد فعل عنيفاً إذا ما حاولنا شق طريقنا بالقوة. لست على يقين مما أقوله، ولكني أشعر بأنني على صواب.

ونظر إلى دوجنز، وقال: في مكان مثل هذا، فإن قوة الذهن أكثر أهمية من قوة الأسلحة النارية.

قال دوجنز: تعرف عن الدلتا أكثر مما يعرفه أي واحد منا. ولذلك عليك أن تنصحنا بما ينبغي علينا عمله.

- حسناً. قبل كل شيء فإن الجو ساكن، وبالتالي لن نتمكن من استخدام المناطيد. وذلك يعني أنه يتعين علينا السير على الأقدام. يبلغ عرض الدلتا نحو سبعين ميلاً، والشيء الذي نبحث عنه يوجد في الوسط، وأنا لم أذهب إلى هناك من قبل، وكل ما أعرفه هو أنه يقع في النقطة، التي يلتقي عندها النهران. ولكن من الأفضل أن نتحرك بين التلال، فهي

أقل خطورة. وكلما ارتفعنا، أصبحنا في أمان. وربما تكون الشجرة الخانقة هي الخطر الحقيقي الوحيد، عند ارتفاع يصل إلى ألف قدم.

قال مانيثو: لم أسمع قط بهذه الشجرة.

ـ من المحتمل أنك لم تسمع قط بمعظم الأشجار والنباتات في الدلتا، ويتراءى لي أن نصفها من الأنواع الجديدة، ولم تطلق عليها أسماء، وتماثل الشجرة الخانفة شجرة أخرى تعودت على تسميتها بالصفصاف الأفعواني، وبها الكثير من النباتات المتسلقة المعلقة، المكسوة بالطحاب، والتي تبدو غير ضارة. ولكن النباتات المتسلقة في الشجرة الخانقة تنتظر حتى تقترب منها، ثم تنقض عليك.

تساءل مانيثو: وماذا عن النهر؟ هل هو صالح للملاحة؟

ـ يحتمل، رغم أنه مملوء بالحواجز الرملية، والبحيرات الطينية. لكنه مملوء أيضاً بعقارب الماء الضخمة، التي بمقدورها التغلب على أي قارب أو طوف. كما أن به يعاسيب آكلة للحوم، ذات مخالب قوية، بإمكانهم قضم ذراع إنسان. وبالتالي فإنني أرى أنه من الأفضل الالتزام بالتلال. ثمة كائنات أخرى يتعين علينا توخي الحذر منها، وهي السرطانات الحربائية، التي تهوى التمدد في كائن تحت أوراق النباتات السحلبية بالمستنقعات، والتي لها مخالب، بقوة ذلك المخلب، الذي التهمناه لتونا.

قال أوليس: هذا مجرد اقتراح... ولكن أليس من الأفضل الانتظار حتى تشتد الريح، وتهب في الاتجاه الصحيح، بما يسمح لنا باستخدام المناطيد؟

نظر سيميون إلى دوجنز، وقال: بإمكاننا ذلك. ولكن هذا قد يضطرنا للانتظار عدة أيام، أو حتى أسابيع.

هز دوجنز رأسه، وقال: لا. من الأفضل التحرك الآن. فقد تقرر العناكب المجيء إلى هنا، للعثور علينا، إذا ما بقينا لفترة طويلة.

أومأ سيميون وقال: وأنا أتفق معه في هذا الرأي. إن الشيء الوحيد الذي يجب علينا اتخاذ قرار بشأنه هو ما سنأخذه معنا، فنحن لا نستطيع حمل كل ما لدينا، واقترح أن تكون حركتنا خفيفة وسريعة.

أفرغوا محتويات أكياس القماش على الأرض. كانت هناك كميات كبيرة من الغذاء والشراب ـ معظمها داخل قوارير خشبية محكمة الغلق، بالإضافة إلى امدادات طبية. ضم كل كيس مُدية ذات نصل طويل، معلقةفي خرام، وفأساً حادة للغاية، ودلواً من القماش. وصرراً خفيفة تحمل على الظهر.

قال دوجنز: على كل واحد منكم أن يحدد الكمية التي يريد حملها، ولكن لا بد أن تكون خفيفة.

وضع نيال في صرته فطائر جافة، وكمية من الخبز، قدراً من العسل، صندوقاً من اللحم المجفف، وقارورة من النبيذ الذهبي. كما وضع أيضاً ضمادات، وفأساً صغيرة. بدا واضحاً أن الرداء المصنوع من الفراء، الذي سافر به، ثقيل بالنسبة لجو الدلتا، فتخلى عنه على مضض. واكتسى، بدلاً من ذلك، برداء مصنوع من قماش رمادي خشن. وضع في أحد الجيوب القضيب المتداخل، وفي الآخر الرداء المعدني الرفيع، الذي حصل عليه من البرج الأبيض.

أدركوا أن ترك الأكياس على الأرض سوف يلفت انتباه الحيوانات، فأغلقوها بعناية، ثم تسلق أوليس إحدى الأشجار الساحقة، حتى وصل إلى قمتها، وهو يحمل حبلاً، ورفع الأكياس، الواحد تلو الآخر، وربطها إلى جذع الشجرة. كما علقوا المناطيد المطوية، كإجراء وقائي، على الفروع المنخفضة، حتى تكون بعيدة عن العواصف، أو المد العالي.

أفرغ نيال صندوقاً من الديدان في البركة، التي تحوي الحيوانات الإسفنجية، واضطر إلى استنشاق الرائحة العطنة، التي جعلته يتقهقر، لكنه أدرك أن هذا هو أسلوب الحيوانات الإسفنجية في الإعراب عن امتنانها. لاح البحر ساكناً، والشاطىء نظيفاً، آمناً، فكان من الصعب عليهم تصور أنهم على وشك الانتقال لأخطر مكان في العالم.

كانت الشمس في كبد السماء، والحر شديداً، عندما انطلقوا. قادهم سيميون إلى قمة سلسلة من الكثبان الرملية، وتوقفوا أثناء شرحه لملامح الدلتا الرئيسية. اكتسى الحوض الأوسط بسجادة من السحب الضبابية، وتمكنوا من رؤية النهرين، وهما ينحدران من الجنوب الشرقي، والجنوب الغربي، رغم اختفاء النقطة، التي التقيا عندها وسط الغابة. كما أخفى السديم، التل الصغير بين النهرين. رأى نيال، في هذا الضوء المبهر، الظلال الخضراء المختلفة، التي شكلت رقعة في الحوض، كما اكتست التلال المغطاة بالأشجار، بظلال خضراء مشوبة بالزرقة.

أشار سيميون باتجاه الشرق، وقال: سنحاول الوصول إلى أقرب نقطة من قمة التلال، حيث تقل كثافة الأشجار، ويكون الجو هناك ألطف، وأقل خطراً.

أشار مانيثو إلى المنحدرات، التي تغطيها الأشجار، باتجاه الغرب، وقال: تلك تبدو أسهل.

- نعم. ولكن سيتعين علينا عبور النهر، ولا أريد المخاطرة بذلك.

ابتعدوا عن الشجيرات التي تماثل أوراقها السيوف، وأوضح سيميون أنه يريد تجنب النباتات، التي تشبه قرّة العين، المنتشرة فوق الأرض، بسبب رائحتها المخدرة. ولكن قبل أن يقطعوا نصف ميل آخر، وجدوا أنفسهم فجأة أمام سجادة من الأوراق اللامعة انتشرت بامتداد المنحدرات، التي تغطيها الأشجار. كانت البدائل أمامهم، العودة من حيث أتوا، أو الالتفاف باتجاه الشمال نحو البحر، ثم العودة إلى التربة الرملية والعشب.

قال سيميون: أرى أنه يتعين علينا المخاطرة، بما أننا في عجلة من أمرنا. ولكننا سنحاول الالتزام بالحافة الشمالية. وإذا ما أحس أحدكم بالدوار، فعليه أن يبلغنا بذلك على الفور.

شعروا، وهم يتقدمون، وسط سجادة الأوراق، التي تماثل في ألوانها نبات اللبلاب، بالرائحة الطبية، واكتست أحذيتهم بالمادة البيضاء المزبدة، التي تفرزها السيقان المهشمة. دُهش نيال الذي توقع أن يسيطر عليه الدوار، لشعوره بالحيوية والنشاط. بدت الرائحة لذيذة للغاية، مما أغراه بغمس أصبعه في المادة المزبدة لتذوّقها، لكنه قاوم هذا الإغراء.

أدرك أن هذا الشعور بالسيطرة المتزايدة، نابع من مرآة التأمل. أحس بقوة ذهنه وجسمه، ولم يعد يتصبب عرقاً، رغم ثقل ما يحمله، بالإضافة إلى الحاصد، الذي علقه فوق كيسه. من الواضح أن الآخرين شعروا بنشوة مماثلة، وأصبح أوليس ثرثاراً على نحو مفاجيء، وأخذت يتحدث عن جمال الأزهار، التي تنمو بين الأوراق اللامعة.

كانت سفوح التلال، التي تكسوها الأشجار، تبعد عنهم نحو ميل. أشار ميلو بإصبعه إلى منطقة تبدو فيها الأشجار أقل كثافة، وتمكنوا من رؤية منطقة مقطوعة الأشجار، قد تكون بداية لطريق يفضي إلى أعلى التل.

ـ لماذا لا نتجه إلى هناك؟

دُهش نيال، عندما سمع سيميون يقول: نعم، أظن أنه أقرب كثيراً.

أحاطهم، بعد خمس دقائق، بحر من الأوراق، التي تماثل نباتات قرة العين. أخذ نيال يتنفس بعمق، فقد كان الهواء كالنبيذ تماماً، يثير الشعور ذاته بالخفة والنشاط. وعندما أحس بالنشوة، أراد أن يعرف ما إذا كانت مرآة التأمل هي التي كشفت ذلك، فمد يده داخل سترته، وقلب الجانب المقعر، إلى الداخل.

جعله التأثير يلهث، فقد شعر بألم حاد في مؤخرة فروة رأسه، وتبخر الإحساس بالنشوة، مثلما تختفي الشمس فجأة وراء السحب. بدا ثقل الكيس، الذي يحمله على ظهره، وقد تضاعف. أحس برغبة جامحة في قلب مرآة التأمل مرة أخرى، لكنه عدل عن رأيه، في

اللحظة التي تحركت فيها يده. لماذا تقضي المرآة على إحساسه بالوضوح والسيطرة، بدلاً من زيادته؟ قاوم الصداع بتركيز ذهنه. ومع ذلك فقد تفاقمت الأمور. بدأ يشعر بالاختناق والدوار، وبدت ساقاه وقد تجمدتا كحجرين. وأصبح إغراء قلب المرآة لا يقاوم، فترك يده تزحف إلى داخل قميصه. وفي تلك اللحظة، جعله شيء من العناد يتردد، حيث بدا أن الراحة تبعد بضع ثوانٍ، فتحمل عامداً الإحساس بالاختناق والدوار. لقد تعلّم من تجاربه السابقة أنه إذا ما جعل هذه الإحاسيس تصل إلى الذروة، فسوف تختفي.

حدث ما كان يتوقعه، فقد ازداد الصداع، حتى بدت عيناه على وشك البروز من محجريهما، ثم تلاشى الألم، وحلّ مكانه إحساس بالراحة. لكن ساقيه ظلّتا ثقيلتين، كما وجد صعوبة مستمرة في التنفس.

أدرك فجأة وبدهشة ما حدث. فالإحساس بالنشوة والخفة لم تثره كميات النباتات المحدرة، بل قوة الحياة الغريبة، التي تنفثها الدلتا. تمكن النبات المماثل لقرة العين، من مراكمة ونقل هذه الحيوية، بطريقة غريبة، مستخدماً الضوء، الذي انعكس من سطح أوراقه اللامعة. أدرك الآن ما حدث، فقد لاحظ أنهم محاطون بقوة الطاقة المبهرة، التي أحس بها في الأزهار، بحديقة بيت دوجنز، وأنهم يتنفسون هذه الطاقة، وكذلك أبخرة النباتات المخدرة. ولأن الطاقة أقوى بكثير من الأبخرة، فإنهم لم يتأثروا بالرائحة المخدرة. ولكن ما السبب الذي يجعل النبات يتعمد إبطال مفعول تأثيره المخدر؟

جاءت الإجابة بعد بضع ثوانٍ. توقف أوليس فجأة عن الكلام، بعد ثرثرته المستمرة، ثم التفت إلى رفاقه، وقد بدت عليه علامات الحيرة. ولما سأله دوجنز: «ما الأمر؟» بدا في غاية الشحوب، ثم انهار عند اقدامه. جثا نيال في الحال، ورفع رأسه، فوجد أن وجهه قد ترقط بالزبد الحليبي.

بدت علامات الشحوب والإجهاد على الآخرين أيضاً. كما راح دوجنز يطرف بعينيه، ففهم نيال ما حدث. فقد توقف النبات عن بثّ ومضات الحيوية، ليتركهم تحت رحمة الأبخرة المخدرة.

سحب نيال الكيس من فوق ظهر أوليس، وأعطاه ليلو. وقال لمانيثو: اعط سيميون الحاصد، واحمل الكيس، وساعدني على رفعه، فسوف نضطر إلى حمله.

بدا مانيثو شاحباً، لكنه كان قادراً على استدعاء احتياطي قوته الجسدية. انحنى، دون أن ينبس ببنت شفة، وأمسك بذراعي أوليس، وجعله ينهض على قدميه. ثم ألقى بالجسم المترنح فوق كتفه القوية.

قال نيال لمانيثو: «سأحمل كيسك». وسحبه من فوق ظهره ووضعه فوق كتفه، لما أخذ الحاصد، وسلمه إلى دوجنز.

أشار إلى مكان يستطيعون منه رؤية الغابة بوضوح، وقال: علينا أن نسرع، لنتجه إلى هناك!

راحوا يسيرون فوق النباتات، ويهشمون سيقانها الهشة بأقدامهم. شعر نيال، وهم يواصلون تقدمهم، بأن النبات يحاول الالتفاف حول كواحلهم. أصبحت الرؤية غير واضحة، وأحس ببدايات تأثير الشراب، وضع في ذهنه هدفاً واحداً، وهو الوصول إلى حافة الغابة، والهروب من هذه النباتات المتسلقة، التي بدت رائحتها مثيرة للاشمئزاز.

لم يعد قادراً على مواصلة السير. وجد أنهم يدوسون على أعشاب إسفنجية، وأن أشجار الغابة باتت على مسافة تقل عن مائة متر. ألقى بالأكياس من فوق ظهره، وارتمى على الأرض ورأسه بين ركبتيه. وضع مانيثو أوليس بجانبه، وألقى بنفسه، ووجهه لأسفل، فوق العشب. كان دوجنز آخر من خرج من بحر الأوراق الخضراء، تعثر في سيره إلى أن وصل للعشب، فسقط على الأرض. ثم نزع عنه كيسه، وتمدد على ظهره، وقد نشر ذراعيه.

تمددوا نحو عشر دقائق، حتى شعروا بحر الظهيرة، فتحامل نيال على نفسه، وتحرك وهو يتعثر، إلى ظل أقرب الأشجار. انضم إليه الآخرون في الحال، وقد سحب مانيثو أوليس من تحت إبطيه. اختار نيال شجرة صغيرة اكتسى جذعها بلحاء فضي أملس، جلس، وأراح ظهره عليه. بدت الأوراق فوق رأسه ـ وهي أوراق عريضة خضراء وحمراء، يزيد عرض كل ورقة عن عرض الكف ـ تخشخش، كما لو أن نسيماً يداعبها. لكنه أغمض عينيه، بمجرد أن جلس، وشعر مرة أخرى بالإحساس المنعش البارد، كما لو أن مياه شلال تتناثر عليه في جلسته. فتح عينيه، وقد أصبح مدركاً أن الشجرة، مثل النبات المخدر، قادرة على نقل وابل من الطاقة الحيوية.

عرف الآن أن هذا يعني خطورة الشجرة؛ فالغرض من وابل الطاقة هو حثه على البقاء، وربما النوم. لاحظ باهتمام ما يحدث، وقد أخذ حذره من هذا الاحتمال. راحت الفروع الخارجية للشجرة تنحني ببطء باتجاهه. كان إحساساً مخيفاً، كمراقبة الحركات البطيئة لحيوان يستعد لاصطياد فريسته، لكنه شعر، مع وجود الحاصد على بعد بضع بوصات فقط من أطراف أصابعه، بأنه يستطيع تحمل الانتظار لمعرفة ما سيحدث. راحت الفروع تنخفض أكثر فأكثر، حتى كادت تلمس الأرض، ووجد نفسه محاطاً بخيمة خضراء، منعت دخول أشعة الشمس. ثم أدرك أن اللحاء الأملس، الذي يسند إليه ظهره، قد بدأ يهتز اهتزازاً

خفيفاً، كما لو أنه يستيقظ. وجده، حين أنعم النظر فيه، يتغير، فقد اختفى السطح الأملس، وراحت تظهر فجوات صغيرة. تناهت إلى مسامعه، بعد بضع ثوانٍ، هسهسة خفيفة، تماثل صوت غاز يتسرب، واشتم رائحة طيبة مستساغة، أثارت في جسمه النشوة. بدا الأمر وكأنه يرى مروجاً معشوشبة عريضة، وتلالاً بعيدة. تحول هذا إلى إحساس بتراخ لذيذ، مما أغراه على الاستلقاء فوق العشب، والاستغراق في النوم. لكنه جلس، بدلاً من ذلك، وزحف على أطرافه الأربعة خارجاً من الخيمة الورقية.

لاح المنظر من الخارج كما لو أن الشجرة قد تحولت إلى بيت أخضر صغير. التقت الأوراق لتشكل معاً قالباً مغطى، هدفه هو منع تسرب الغاز المخدر. وقف، ولاحظ الفروع وهي تتباعد ببطء عن بعضها البعض، وترتفع عن الأرض. ثم عادت الشجرة، بعد خمس دقائق، إلى الوضع الذي كانت عليه عندما جلس تحت ظلها.

استلقى الآخرون، وقد أغمضوا عيونهم، ورأى نيال أن الفروع فوقهم طبيعية. طرأت فكرة على ذهنه، فأمسك أوليس من رسغيه، وسحبه إلى أن وصل تحت الشجرة، ذات اللحاء الفضي. أراح ظهره على الجذع، ثم جلس بجواره. اهتزت الفروع، ثم احاطهما، بعد لحظات قليلة، وابل طاقة الحياة، مثل رذاذ عطري. تحرك أوليس، وفتح عينيه. هز رأسه، وتطلع إلى نيال، وقد علت وجهه ابتسامة تنم عن البهجة، وسأله بمرح: «كيف وصلت إلى هنا؟»

ـ حملك مانيثو.

قال أوليس بصوت طبيعي للغاية: لقد فعل خيراً. ماذا جرى؟ في الوقت الذي راح نيال يوضح فيه لأوليس ما حدث، أخذت الشجرة تنفث غازها المخدر، وتميل بفروعها ببطء وهدوء نحو الأرض. كان أوليس مستغرقاً تماماً، فلم يلحظ ما يحدث. ولما أشار نيال إلى أنهما أصبحا الآن داخل خيمة من الورق الأخضر، تلفت حوله بدهشة، وتساءل: «ما الذي ستفعله الشجرة؟».

ـ من المرجح أنها ستلتهمنا. بإمكانك البقاء لمعرفة ما سيحدث.

لاحظ نيال، بعد أن زحفا إلى ضوء الشمس مرة أخرى، تورد خدي أوليس، وإشراق عينيه، كما اختفى شعوره بالتراخي، وبدا كما لو أنه استيقظ لتوه من نوم عميق طوال الليل، أعاد إليه النشاط.

ذهب نيال، وأيقظ سيميون، فوجده شاحب الوجه، أخذ يتأوه وهو يحاول الجلوس.

أشار نيال إلى الشجرة، وقال: أتعرف ماهية تلك الشجرة؟

حدق فيه بفتور، ورد: لا. لِمَ؟

أعاد نيال على سمعه ما حدث.

ـ ولم تشعر بأي تأثير؟

ـ كلا ألبتة. لا يحدث شيء إذا ما تحركت قبل أن تجعلك تنام. جرب بنفسك.

تركهم سيميون يساعدونه على النهوض، لكنهم اضطروا لإعانته على السير تحت الفروع. وجدوا أنفسهم، بعد لحظات، يتعرضون لوابل من القوة الحيوية. تنهد سيميون، ثم راح يتنفس بعمق وهدوء، ومال رأسه على الجذع. ولما وصلت الفروع إلى الأرض، كان قد راح في نوم عميق. لكن الدم عاد إلى وجنتيه.

هز أوليس ذراعه، قال: حان وقت التحرك!

أفاق سيميون، وتبعهم على مضض، وهم يزحفون إلى الخارج، ثم وقف، وحدق بانبهار ورعب للفروع، وهي ترتفع ببطء في الهواء، ولاح في حركتها شيء يماثل التنويم المغناطيسي.

قال أوليس: ولكن ما الذي تفعله تلك الشجرة؟

أمسك سيميون بطرف فرع بين أصابعه، وقال: هنا تكمن الإجابة.

كان الطرف أملس، مثل جلد مطاط، وينتهي بسن غير حاد، ولكن عندما ضغط سيميون عليه، انفتح السن، وكشف عن فم صغير مستدير.

هز رأسه بحزن، وقال: من المرجح أنه مصاص للدماء. يا له من أمر يدعو للرثاء أن يكون شيء بهذا القدر من الجمال ذا طبيعة خائنة.

سأل مانيثو، الذي جلس، واضعاً رأسه بين يديه: ماذا تسمى هذه الشجرة؟

ـ ليس لها اسم، على حد علمي.

قال أوليس: يتعين أن نسميها شجرةالأرجوان.

دمدم سيميون قائلاً: ذلك ينطبق على كل شيء في الدلتا.

ومال على دوجنز، وهزه، وهو يقول: استيقظ! لدينا ما نريدك أن تراه. وقف نيال، وأخذ يراقب مانيثو، دوجنز وميلو، وهم يجربون سحر الانتعاش، الذي تمنحه شجرة الأرجوان، وقد انضم إليهم مرة أخرى أوليس وسيميون.

لم يشعر نيال برغبة في إعادة التجربة، وأدرك أن لا فائدة من ذلك، وأن المسألة تماثل

تناول الطعام عندما لا يكون جائعاً. فمبقدور قوة الدلتا الغريبة زيادة الحيوية إلى مستوى معين فقط، أما أكثر من ذلك، فمتروك للشخص نفسه.

بدأت الشمس تهبط من سمتها، فقرر نيال أن الوقت قد أصبح عصراً.

قال سيميون، وهم يبدأون في سحب أكياسهم: قبل أن ننطلق، هناك مسألة ينبغي بحثها. لقد عرفتم ما تكنه الدلتا. هل نريد حقاً الاستمرار؟ أليس من الحكمة العودة إلى مخيمنا، والانتظار حتى تهب الريح، كي نتمكن من استخدام المناطيد؟

قال أوليس: أريد مواصلة ما بدأناه.

تجاهله سيميون، وراح يتطلع إلى دوجنز الذي قطب، وأخذ يعض على شفته، ثم قال: أتظن أنه من المحتمل أن نواجه أي شيء لا تستطيع الأسلحة الحاصدة التعامل معه؟

هز سيميون كتفيه، وقال: من المستحيل الإجابة على هذا السؤال.

لكنه أضاف، بعد فترة صمت: ولكن من غير المرجح أن نواجه شيئاً نعجز عن التصدي له بالأسلحة.

قال دوجنز: إذن أعتقد أنه يجب علينا مواصلة السير.

ونظر حوله، ثم قال: ما رأي الباقين؟

قال مانيثو وأوليس وميلو في صوت واحد: لنواصل السير.

- وما رأيك يا نيال؟
- أعتقد أنه ينبغي علينا أن نعود الآن، ثم نستأنف السير صباح غد.
- وأنت يا سيميون؟
- اتفق مع نيال.

قال دوجنز: إذن النتيجة أربعة إلى اثنين، لننطلق!

هز سيميون كتفيه، وقال: ولكن أرى أن القرار أثار ضيق نيال.

سار دوجنز ومانيثو في المقدمة، وخلفهما نيال وسيميون، ومضوا في طريق يفضي بهم مباشرة لأعلى التل. ورغم أن الأشجار كانت شائكة وكثيفة، إلا أنها لم تكن متلاصقة، ولم يضطروا لاستخدام المدى سوى في حالات نادرة. وجدوا صعوبة في صعود التل، ولكن ظلال الأشجار خففت من مشقة الصعود، وعندما وصلوا إلى أعلى بعد ساعة من السير، أصبح الهواء بارداً منعشاً. دُهش نيال من التغير، الذي طرأ على طبيعة الأشجار، ورأى عند

الروابي أشجاراً متنوّعة على نحو مذهل، مما جعله يعتقد أنـه لا توجـد شجرتـان متماثلتـان. كما لاحظ أنها مدركة لوجودهم، وأن الجذوع تعتريها رعشات خفيفة، وهم يمرون بجوارها، بينما تهتز الفروع، وكأن النسيم يداعبها. اختفى هذا التنوع، بعد أن واصلوا الصعود، وأصبحت الأشجار ضخمة. وفي النهاية بدت الغابـة، مثل أيـة غابـة، في أية منـطقة معتـدلة، مـا عدا الأشجار الهائلة، التي كانت سامقة حولهم، وكأنها أعمدة تسند السماء.

وصلوا، بعـد ساعتـين من مغادرة الـوادي، إلى منطقـة مقطوعـة الأشجار، تـطل على التـلال الغربيـة. كانـوا فوق سلسلة تـلال، تمتد بـزاوية يمنى إلى الـطريق الذي يسـيرون فيـه، بينـما امتد جـانب التل، فيـما وراء ذلك لمسـافة ألف قـدم أخرى عـلى الأقـل. خفت كثـافـة الأشجار هنا، وبدا كما لو أن الحيوانـات تستخدم الـطريق بامتـداد سلسلة التلال. استـأنفوا السير، بعد أن استراحوا لفترة من الوقت، وشربوا من ماء نهير. لم يواجهوا أي شيء خـطير على مدى أكثر من نصف ساعة. أخـذ البعوض الكبـير والصغير يئـز حولهم، من حـين إلى آخر، ولكن يبدو أن العصير، الذي دهنوا به أجسامهم، منعه من مهاجمتهم.

تساءل أوليس: هل سنخيم هنا؟

أومأ دوجنز، وقال: أظن ذلك.

ـ يا للأسف! أود أن أعثر على شجرة أخرى من أشجار الأرجوان.

ـ إن المكان هنا شديد الارتفاع.

ساروا لمسافة مائة متر أخرى، وهـم مستمتعون بالسير فوق أرض مستويـة. قال أوليس فجأة: إنه ليس كذلك!

بدت علامات الحيرة على وجه دوجنز، وسأله: ليس ماذا؟

ـ ليس شديد الارتفاع. انظر!

وأشـار إلى وادٍ منخفض، انحـدر إلى الشرق من سلسلة التـلال. رأوا عشبـاً شـديـد الاخضرار بين الأشجار، وأزهاراً زرقاء لامعة، تنتصب في وسطهـا شجرة تمـاثل الشجـرة ذات اللحاء الفضي، والأوراق العريضة.

التفت أوليس إلى دوجنز، وسأله: هل لنا أن نجربها؟

بـدا أن دوجنز لا يـرغب في التوقف عن السـير، ولكن بعد سـاعتين من تسلق التـل، شعر الجميع بالتعب والإرهاق، وتصلّب الأقدام.

هز كتفيه، وقال: ليكن ذلك.

ألقى أوليس، وقد تهلل وجهه من الفرح، بكيسه على الأرض، ثم جذب نيال من ردائه، وقال: «سأسابقك».

ما حدث بعد ذلك، أصابهم جميعاً بالدهشة. فقد جرى أوليس فوق العشب باتجاه الشجرة كطفل يلهو. كانت الأرض مستوية، مما أعطاهم القدرة على الرؤية لمسافة خمسين متراً في كلا الاتجاهين. ثم وجدوا أوليس، وقد أحاط به، على حين غرة، شيء أسود نتأ من الأرض. ظن نيال، للحظة، أنها زهرة سوداء ضخمة، ذات رأس شبيه بالبوق، ثم انقسم الرأس إلى مجسات، التفت حول ذراعي أوليس ورقبته، فراح يصرخ ويتخبط.

كان دوجنز أول من أفاق من الصدمة، فسحب الحاصد من كيسه، وصوبه نحو أوليس، لكن سيميون أنزل بسرعة الماسورة، وقال: «لا تفعل! إنك ستقتله».

كانت صرخات أوليس مرعبة، لكنها توقفت حينما التف مجس أسود حول رأسه، وغطى فمه.

قال دوجنز: يا إلهي! ما هذا؟

رد سيميون، وهو يسحب مديته من الجراب، قائلاً: إنه جبار أرضي، ويمكن قتله إذا ما بترنا جذوره.

جرى فوق العشب، وخلفه مانيثو. لم يظهر من أوليس سوى رأسه، أما بقية جسمه فقد اختفى تحت الجبار الأسود، بينما اختفت ساقاه في الأرض، لكنه ظل يتخبط بعنف. سحب مانيثو مديته للخلف، وضرب عند المكان الذي خرج منه الجبار في الأرض. أظهر الجلد مقاومة، كما لو أنه مطاط. واصل مانيثو وسيميون توجيه الضربات فبدأ الجبار يختفي مرة أخرى تحت الأرض اللينة. أدركا أن توجيه ضربات أخرى، قد يُعرض أوليس للخطر، فألقى مانيثو بمديته، ولف ذراعيه حول الجبار، الذي سرعان ما التفت مجساته حول رقبته. وعندما حاول سيميون تخليص مانيثو، أمسك به هو أيضاً. برزت مجموعة مجسات للجبار من تحت الأرض، حيث راحت تلتف حول ساقي مانيثو.

هرع ميلو، وتقدم حاملاً الحاصد، واتجه نحو أقصى طرف المجموعة المتخبطة، ليتجنب مانيثو وسيميون، وصوب بحذر نحو الأرض. لم يشاهدوا أشعته بوضوح تحت ضوء الشمس، لكنهم سمعوا نشيش الأرض المبللة، ورأوا سحابة بخار. حرك الحاصد ببطء من جانب إلى آخر، ثم توقف التخبط فجأة. انهار الجبار على جانبه، مثل زهرة سوداء طويلة، ومعه مانيثو وسيميون. وجدوا مانيثو يسحب، بعد لحظة، أوليس إلى سطح الأرض، وقد تحرك الجبار، الذي انفصل عنه جذره، معهما.

صاح دوجنز: هل أنت بخير؟

أومأ أوليس، وهو يسعل، ثم تقيّأ:

انضم نيال إليهم، ونظر في الفجوة، فرأى كتلة سوداء لامعة، بدت مثل بقايا يرقة هائلة، ما تزال تتحرك، وهي تنفث رائحة، تماثل رائحة الدلتا العطنة. استمرت بقية الحبار الأرضي تتخبَّط، وتتلوّى على الأرض، مفرزة مادة لزجة خضراء اللون، لكنه لم يعد قادراً على إلحاق المزيد من الضرر بأحد.

استعاد أوليس، بعد أن تمدد، ووجهه إلى الأرض لمدة عشر دقائق، قوته ونهض واقفاً. سار بخطوات ثقيلة تحت فروع شجرة الأرجوان، وجلس، وقد أسند ظهره إلى جذعها، مغمضاً عينيه. ثم فتحهما بعد بضع لحظات.

ـ لم يحدث شيء.

تطلع نيال إلى الفروع، فلم يلحظ أية حركة فيها.

قال ميلو: ربما تكون درجة الحرارة منخفضة للغاية هنا.

هز سيميون رأسه، وقال: في تلك الحالة، ما الذي يجعل الشجرة تنمو هنا؟ إنها ستتعرض للموت.

تغضن وجهه، عندما ذهب وجلس بحوار أوليس، وبدت علامات الاشمئزاز عليه، وقال: أنت بحاجة لأن تستحم يا بني! ثم تبدلت العلامات على وجهه وقال. لقد فهمت الآن. إن الشجرة لن تهاجمك، لأنك قد اكتسيت بالمادة اللزجة، التي أفرزها هذا المخلوق البشع.

صاح مانيثو: أرى نهراً هناك.

هبط أوليس التل بخطوات مرتعشة، وقد اتكأ على ميلو. ثم خلع ملابسه ونزل إلى الماء، الذي وصل إلى خصره. ولما خرج، بعد خمس دقائق، قدم له ميلو رداءً احتياطياً، أصفر اللون، غير مهندم، لكنه كان بديلاً مقبولاً لرداء السفر الرمادي، الذي أصبح متصلباً بفعل المادة اللزجة الغروية. حينما جلس تحت ظلال شجرة الأرجوان للمرة الثانية، اهتزت الفروع هزات خفيفة، وبدأت تنحني ببطء إلى أسفل. ذهب الآخرون وجلسوا بجواره، وأسندوا ظهورهم إلى الجذع، وشعر نيال مرة أخرى بانتعاش وانتشاء، يماثل إحساسه عندما تتساقط على جسمه قطرات المياه وهو يغتسل. بدأ الاجهاد ينزاح عن جسمه، ويحلّ مكانه للحظة، إحساس قريب من الألم. ولما اشتم رائحة الغاز الغريبة اللذيذة، فتح عينيه، فوجد

أن الفروع قد لمست الأرض. هز دوجنز، الذي جلس بجواره، وقال له: «من الأفضل أن نتحرك الآن قبل أن نتعرض للالتهام».

زحفوا على مضض، مبتعدين عن الخيمة الخضراء. بذل بعض الفروع جهداً فاتراً للالتصاق بهم، لكنهم أزاحوها بسهولة، فالشجرة تعتمد على تحذير ضحاياها ليصبحوا في حالة من الضعف تحول دون مقاومتهم لها.

تلاشى الإجهاد، الذي شعر به نيال من قبل، لكن عضلات مفاصله ظلت تؤلمه، بسبب عملية التسلق، التي استغرقت فترة.

سأل أوليس: هل تشعر بالقوة التي تجعلك تواصل السير؟

قال دون حماس: أظن ذلك.

قال سيميون: سوف يحل الظلام في غضون ساعتين، ومن الأفضل أن نبدأ البحث عن مكان لننصب فيه خيامنا.

حملوا أكياسهم، وواصلوا السير بامتداد سلسلة التلال. لكن تجربة الحبار الأرضي هزتهم جميعاً، فركزوا عيونهم على الطريق أمامهم. توقف سيميون، بعد أن قطعوا نصف ميل آخر، وأشار إلى منطقة عشبية مقطوعة الأشجار، أسفل الطريق مباشرة، وقال: «انظروا! هناك واحد آخر».

لم يدركوا في البداية ما يعنيه. ثم تمكّن نيال من تمييز بقعة قائمة غير متناسقة، وسط دائرة من الأزهار الزرقاء.

ـ هل أنت واثق مما تراه؟

ـ تماماً. اقتربوا أكثر، وانظروا عن قرب!

اتجهوا نحو البقعة بحذر، وأمسك دوجنز حاصده، وهو في وضع الاستعداد. أدرك نيال، وقد انتابه الرعب، أنه يتعرض للمراقبة، واكتشف أن البقع الصغيرة لفطريات بيضاء، ما هي إلا عيون ضاقت، عندما دنوا منها.

أطلق دوجنز النار، وقال باشمئزاز: «سأقتله». أصاب اللهب الأزرق الرفيع، الذي يماثل خيطاً زجاجياً مضيئاً، بقعة الأرض السوداء. تناهت إلى مسامعهم أصوات هسيس عنيف، مثل صوت بخار متسرب، فارتدوا جميعاً للخلف في ذعر، حين برز الحبار من الأرض، وقد راحت مجساته تتذبذب، وضربتهم رائحة العطن مثل لطمة. زادت الرائحة عندما شطرته الأشعة. أخذوا يهرعون مبتعدين، وقد أصابتهم رائحة جلد الكائن المحترق بالأعياء.

صاح سيميون فجأة: توقفوا!

توقف الجميع، فقال سيميون: نحن نعدو بسرعة، ماذا يحدث لو أن أحد هذه الكائنات يتمدد في طريقنا؟ إننا نعرض حياتنا للخطر.

نظر إلى دوجنز، واستطرد قائلاً: «من الأفضل ألا نقتل أي شيء حتى نضطر إلى ذلك.

شعر دوجنز بوجاهة التوبيخ، فقال: «آسف. لكنني حسبت أن الأرض ستكون أفضل بدون ذلك الشيء».

هز سيميون كتفيه، قال: ذلك ما تراه، ولكن إذا كنا نراه تهوراً وطيشاً، إذن فهو تصرف خاطىء. لنواصل السير ببطء، ونركز على الطريق.

بدأ الضوء يخفت. وعندما وصلوا، بعد نصف ساعة، إلى منطقة أخرى مقطوعة الأشجار، كانت الشمس تلامس قمم التلال الغربية.

أسند أوليس ظهره إلى جذع شجرة، وقال: هل بالإمكان التوقف الآن؟ أنا في غاية التعب.

شحب وجهه، وراح العرق يتفصد منه.

نظر دوجنز إلى سيميون، وقال: ماذا تقول؟ هل سننصب خيامنا هنا؟

مسح سيميون الأرض بعينيه، وقال: أظن أنها آمنة.

ألقوا بأكياسهم على الأرض، بارتياح. استلقى أوليس على ظهره، وأغمض عينيه، وفي غضون لحظات، راح في سبات عميق وبينما ذهب مانيثو للبحث عن ماء، جمع نيال وميلو أغصان الأشجار اليابسة، وهما يحملان سلاحيهما في وضع الاستعداد، لكنهما لم يصادفا شيئاً أثار ذعرهما. عثر نيال على شجيرة فراولة، ورغم أنها لم تصل بعد إلى درجة النضج، إلا أنها كانت لذيذة. جلسوا، بعد نصف ساعة، حول النار، وقد لفهم الغسق، وتناولوا وجبة من لحم سرطان البحر المطهي ـ وكان سيميون قد احتفظ بما تبقى من لحم المخلب ـ وجبن الماعز، وفطائر مجففة مكسوة بالزبد، وفراولة برية. ثم تناولوا بعد الوجبة كأساً من النبيذ الذهبي. لم يشعروا، بعد الانتهاء من وجبتهم، أن الخطر يحيط بهم. وعاودتهم الفكرة التي رسموها في أذهانهم منذ البداية لرحلتهم إلى الدلتا على أنها مغامرة مثيرة. ولو لم يكونوا قد تعودوا الحذر، لما انتابهم أي خوف. ومع ذلك شعر نيال بالقلق، وهو ينظر إلى أوليس، الذي راح في نوم عميق. فقد بدا وجهه شاحباً، بينما لا يكاد يسمع تنفسه. ولما حاول ميلو

ايقاظه لتناول الطعام، فتح عينيه، وابتسم، وهز رأسه. لاحظ نيال، بعد ذلك، أن سيميون ينظر بين فترة وأخرى إلى وجه أوليس النائم، فانقبض قلبه.

عندما حل الظلام، ألقى مانيثو بمزيد من الخشب في النار، وسرعان ما أضاء اللهب المكان المقطوع الأشجار. تمطّى نيال، وتساءل إذا ما كان بوسعه أن يستريح داخل البطاطين.

برز شيء من وسط الظلام، محدثاً طنيناً، ليضرب مؤخرة رأسه، ثم يطير إلى داخل النار. وثب الجميع واقفين. كانت فراشة زاهية الألوان، يصل طول جناحها إلى قدمين، جذبها اللهب، فسقطت في النار، وراحت تضرب بجناحيها بهستيرية، فملأت الجو، بالشرر والرماد. أمسك مانيثو بفرع جاف، وأسقط الفراشة على الأرض، ثم قتلها بضربة واحدة. ولكن بمجرد أن عادوا إلى أماكنهم حول النار، خرجت فراشتان أخريان من الظلام، واتجهتا نحو اللهب مباشرة. كان حجمهما الهائل يعني أنهما ستثيران رماد الخشب، في كافة أنحاء المكان. تخبطت أجنحة أخرى في الظلام، وباتت النار مجرد كتلة من الجمرات المتوهجة، والرماد الساخن، ولم يعد هناك ضوء يكفي لجذب المزيد من الفراشات. ولذلك فقد تمددوا في الظلام، تحيط بهم رائحة دخان الخشب، والأقمشة المحترقة؛ حيث تساقطت الجمرات فوق البطاطين، وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث عن الغد، وما يمكن أن يواجههم فيه، وعن طبيعة رد فعل الخنافس والعناكب على اختفائهم. نشر نيال مرة أخرى، الرداء المعدني فوق العشب كملاءة، ولف نفسه ببطانيتين، واستخدم الرداء الاحتياطي، الموجود في كيس المؤونة، كوسادة. خف الحديث تدريجياً، ثم راح أحدهم يشخر.

كان نيال قد نام، عندما أيقظه صوت ميلو، الذي راح يردد بهدوء: «سيميون» ولكن لم يرد أحد، فقد كان سيميون هو الذي يشخر. أخذ ميلو ينادي على سيميون بصوت أعلى. تناهى إلى مسامعه صوت دوجنز، وهو يسأله: «ماذا جرى؟»

ـ أظن أن أوليس قد مات.

استيقظوا جميعاً. استخدم مانيثو علبة القدح ليشعل ناراً. وفي غضون ذلك وضع نيال يده فوق جبهة أوليس، فعرف أن ميلو على صواب، فقد كان أوليس بارداً وساكناً، وبدا وجهه في ضوء اللهب شاحباً، كالرخام، فشعر بموجة من الأسف والأسى.

قال سيميون: ولكن ما الذي قتله؟ هل بسبب لهب رقاقات الخشب المحترقة؟ وراح يفحص ذراعي أوليس العاريتين، ثم ساقيه. وحين تأرجح ضوء اللهب فوق ركبة أوليس، أشار سيميون، قائلاً: هذا ما قتله.

كانت الركبة اليمنى متورمة، وبها كدمات. رأى نيال، عندما فحصها عن قرب، ثقباً صغيراً في وسط الورم.

قال سيميون: لا بد أن لذلك الحبار زبانياً. أعتقد أنه كان يعرج. . .

لم يكن هناك شيء يمكن القيام به وسط الظلام، فغطوا جثة أوليس ببطانية، ونقلوها بالقرب من الجمرات، كما لو أن الدفء قد يعيد إليه الحياة. ثم تمددوا، وناموا من جديد. أحس نيال بأن ميلو يصرخ، رغم أنه لم ير أو يسمع شيئاً.

تمدد متيقظاً محدقاً في السماء السوداء، وقد تلاشت أية رغبة للنوم. بدأ، لأول مرة منذ أن تركوا مدينة الخنافس، يتساءل عن الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه. لقد هزه موت ماركوس، يورج، سيبريان، وأخيراً أوليس. أحسّ بكل كيانه يتشنج، وقد انتابه شعور بالبؤس والثورة. لم يعد مجدياً القول بأن موتهم جزء من نضال بطولي. فقد بدا موتهم مجرد خطأ أحمق.

كانت ثورته الداخلية في غاية الحدة، فوجد أنه من الصعب عليه الاستلقاء ساكناً. حثته غريزته الطبيعية على النهوض والتجول، لكنه أدرك أن ذلك سيكون تهوراً يعرضه للخطر. لذلك فقد ركز كل قوة إرادته بكبح جماح رغبته في التحرك، وأجبر نفسه على الاستلقاء ساكناً تحت البطاطين.

تناهي إلى مسامعه صوت صرخة حيوان، وتحطم جسم ثقيل. مد يده بحذر ليتأكد من أن الحاصد قريب منه، وأحس بالارتياح، عندما أمسكت أصابعه بالمكان الذي تلتقي فيه الماسورة بأصل السلاح. ثم تراءى له أنه يرى صورة دوجنز وهو يقضي على الحبار الأرضي، فتبلور إحساسه بالاستياء. فهم، للمرة الأولى، طبيعة المزيج الغريب بين العار والنشوة، وهو المزيج الذي شعر به عندما حمل الحاصد للمرة الأولى. لقد جاءت النشوة من الإحساس بالقوة، لكنها النوع الخاطىء للقوة.

أصابته بصيرته بالحيرة، للحظة. ففوق كل شيء يعد الحبار الأرضي مخلوقاً مرعباً وخطيراً، ولا أحد يلوم دوجنز لأنه قتله. ومع ذلك لم يكن هناك ما يدعو للقضاء عليه. فقد كان بإمكانه محاولة قهره بذهنه، ليتخلص من مشاعر الخوف والاشمئزاز، اللذين أثارهما لديه منظره.

ذكّره ثقل القضيب المتداخل فوق فخذه بالبرج الأبيض. بدا له فجأة الآن، أنه يسمع كلمات السيد ستيج، التي رنت في أذنيه بوضوح، فظن أنها نابعة من داخل رأسه. «أريد

معرفة السبب، الذي يجعلك تظن أن العناكب تستحق الفناء، والإنسان يستحق البقاء. هل البشر أفضل من العناكب؟»

لقد ذهب ستيج مباشرة إلى هدفه. ما الحق الذي يجعل الإنسان يسعى للاستيلاء على الأرض من العناكب؟ لقد أظهر تاريخه السابق أنه غير مناسب ليكون سيد الأرض؛ فقد فشلت كل إنجازاته في تحقيق السعادة له، وتأكد فشله حين رحل عن الأرض، واستعمر مجموعة نجوم الظُلمان.

أيمكن أن يكون هذا هو الرد على أحجية ستيج؟ أيكون هو السبب وراء عدم قدرته على مساعدة نيال على التخلص من العناكب؟ انقبض قلبه من جراء هذا التفكير، ومع ذلك فكلما قلب الأمر على أوجهه المختلفة، وجده محتملاً. وعندما فكّر في الذباب الصمغي، وكيف أن دوجنز أجبره على الطيران، حتى استنزف ونفق، شعر بالحزن والعار. ومع ذلك فعندما يتذكر مرحه، وهو يصوب الحاصد إلى العناكب، ويسحب الزناد، يجد أنه ليس في وضع أفضل من دوجنز.

أثارت هذه الأفكار شعوراً مخيفاً لديه، فأحس كأنه يسقط من فوق تل. كما اختلط عليه الأمر، بطريقة غريبة، فمنذ بضع دقائق لم يكن يشعر بأي شك في هدفه الأساسي، وهو المساعدة على تحرير الإنسان من هيمنة العناكب، أما الآن فقد بدا الأمر، على نحو مفاجىء، محلّ تساؤلات عديدة.

بدأ أحدهم يشخر، قد يكون دوجنز، فشعر بشيء من الراحة، حيث أعاده ذلك إلى حالته الطبيعية. فكر، للحظة، في أن يأسه ما هو إلا نوع من الخطأ وحالة مؤقتة من الإحباط. ثم عاد ذهنه إلى الحقيقة الأساسية، وهي أن البشر ليسوا مناسبين ليكونوا سادة الأرض بشكل أكبر من العناكب، وأحس مرة أخرى بأنه يسقط من علٍ.

زحفت أصابعه إلى مرآة التأمل، ثم تراجعت. بدا له أن لا جدوى من استخدامها، كما لم يشعر برغبة في تركيز ذهنه. ثم قلبها، كما لو أنه يتحداها أن تحدث أي تغيير في إحساسه باليأس. شعر كأن قبضة تطبق على عقله، وتلاشى يأسه، وأحس، مرة أخرى، بالقوة والسيطرة. أدرك بسرعة خاطفة الإجابة على المشكلة. لقد وصلت الحضارة الإنسانية إلى درجة الفشل، لأن الإنسان نجح في السيطرة على العالم المادي، دون السيطرة على عقله. ولكن هذا لا يعني أنه ليس للإنسان الحق في أن يكون سيد الأرض، فالعناكب تفتقر هي الأخرى للسيطرة على عقولها ـ وقد أكد ذلك قسوتها وحماقتها، واللهو الذي تمارسه وهي تستخدم قوتها. أما الإنسان فيتمتع، على الأقل، بالبصيرة، التي يدرك عن طريقها أنه يفتقر

للسيطرة على ذهنه. ويمكن أن يزعم، في هذا الصدد، أنه أفضل من العناكب...

بدأ لون السماء فوق رأسه يتحول إلى الأزرق الفاتح، فتمكن من رؤية الحدود السوداء لقمم الأشجار في الفراغ الأزرق. راح القمر يرتفع، وراء الأشجار، وبالرغم من أنه لم يظهر، لكن ضوءه انعكس من خلال السحابة الوحيدة، التي تحركت فوق رأسه. شعر بأن الضوء يترشح في عالمه الداخلي. لم يكن مصدراً مرئياً بعد، لكن المعرفة بوجوده أثارت فيه إحساساً بالراحة والأمان.

- ٥ -

أدرك نيال، بمجرد أن أفاق، ذبذبة الدلتا، التي لم تعد تذكره بتنفس حيوان هائل، بل بذبذبة آلة ضخمة آتية من مكان بعيد.

باتت السماء، فوق قمم الأشجار، بالجبهة الشرقية، فاتحة اللون، رغم أن الظلام ما زال يلفهم. إلا أن المستنقعات دونهم وضحت تحت أشعة الشمس الواهنة. فَهم أن ذبذبة القوة الملحة، ما هي إلا استجابة لظهور الشمس. أثار هذا التفكير فضوله. فإذا كانت القوة تستجيب للفجر، فلا بد أنها تستيقظ من نومها، مثل نبات أو حيوان هائل. . .

كان من السهل عليه، وهو ما يزال يترنح بين النوم واليقظة، أن يغرق في سكون الوعي العميق. أدرك، حين فعل ذلك، وجود الأشجار، وعرف أنها تسيقظ هي الأخرى. فهم فجأة سبب ضخامتها؛ فالقوة النابعة من تحت الأرض، توقظها من وعيها النباتي الضئيل، الذي يشبه الحلم، وتمنحها طاقة أكبر. ولكن لأن درجة الحرارة هنا منخفضة للغاية، مما يحول دون استيعاب هذا الوعي الجديد، فإنها توجه جهدها لأعلى، نحو السماء.

تغلغلت الذبذبة إلى نيال أيضاً، مثيرة نشوة غريبة. ومع ذلك فإنه لم يشعر برغبة في الاستسلام لها؛ إذ أن ذلك يعني خفض مستوى ذكائه لمعدل أقل. فقد طور الجنس البشري بالفعل معدلاً عالياً من الذبذبة، ورغم أن جسمه استجاب لهذه الطاقة القوية، فإن ذهنه وجدها عادية لا تلبي طموحه. ومع ذلك، فقد منحته الشجاعة، لأنها جعلته يدرك أنه قادر على زيادة معدل هذه الذبذبة إلى مستوى ذبذبة ذهنه.

كان الآخرون مستغرقين في النوم. فحمل حاصده، وشق طريقه بين سلاسل التلال، إلى أن وصل للمجرى المائي، الذي كانت مياهه ضحلة في هذا المكان. خلع رداءه، وجلس فيه، فأحس بنشوة ساكن الصحراء عندما يرى ماء وفيراً، انعكست السماء الشاحبة على صفحته. عاوده، من جديد، السراب، الذي تراءى له، وهو في المجرى الضحل، في قرية النهال. استمر ذلك لجزء من الثانية فقط، لكنه غمره بشعور غريب من البهجة. لمح، وهو يداعب جسمه بالماء، مصدر هذه البهجة. بدا الأمر كما لو أن باباً قد انفتح، ليرى، على

نحو مفاجىء، عالماً سحرياً داخلياً هائلاً. فهم، في تلك اللحظة، السبب وراء تدفق ذبذبة الدلتا بجانبه، لتتركه دون أن تصيبه بشيء، ذلك لأنه يمتلك بالفعل داخله هذا المصدر الهائل للبهجة، والتي تزيد كثافتها بكثير عن كثافة طاقة الدلتا، التي تنبع من جوف الأرض. كما أن حياته ليست مقتصرة على اللحظة الراهنة، كما هو الحال في الأشجار، فكلّ لحظة بهجة مرّ بها، يتمّ تخزينها بعناية في عالمه السحري الداخلي، بانتظار إعادة الحياة إليها بكل كثافتها الأصليّة. إنه الإدراك بأن البشر، وليست النباتات والحيوانات، هم سادة العصر، وليسوا عبيده.

لم يبال البرد، بعد أن سحب رداءه ليغطي جسمه المبلل، وفي الواقع، فإن المشقة، التي عانى منها، أثارت في نفسه نشوة وبهجة غريبة. حمل الحاصد كيفما اتفق، وهو في طريق العودة. فقد عرف بحدسه أنه في ظل هذه الحالة الذهنية، لن تكون حياته تحت رحمة أي حادث عارض.

كان سيميون قد استيقظ بالفعل، وانهمك في لف جثة أوليس داخل بطانية. استيقظ مانيثو، وتلفت حوله، وقد علت وجهه ابتسامة عريضة منشرحة، وتثاءب.

ـ هذا المكان يجعل الشخص نهماً، بإمكاني التهام جمل مشوي.

قال سيميون: ليس هناك وقت للشواء، فأمامنا يوم طويل. هل تستطيع تسلق الأشجار؟

تطلع مانيثو بشك إلى الأعمدة، التي ترتفع لنحو مائة قدم فوقهم، وقال: أظنّ ذلك. لِمَ؟

ـ أعتقد أنه يتعين علينا ترك أوليس فوق شجرة، بدلاً من دفنه. ففي هذه الأرض، لن يبقى طويلاً، ولكن إذا ما وضعناه فوق شجرة، فقد نتمكن من العودة وحمله معنا إلى المدينة ودفنه هناك.

جلس ميلو، الذي أيقظته أصواتهم، وأزاح عنه البطاطين. بدا شاحباً ومجهداً، من الواضح أنه لم ينم نوماً هادئاً. وضع يده على خد أوليس، وقال: هل أنت متيقن أنه قد مات؟

ـ تماماً. إنه متصلب كلوح خشبي.

بدا وجه ميلو جامداً، وهو يحملق في صديقه، وكأن مشاعره قد تجمدت.

تناولوا طعام الإفطار من الخبز واللحم المجفف، ومع أكواب من الماء البارد. لم يكن هناك وقت لإضرام نار، فقد أحس الجميع بضرورة التحرك على الفور، فتناولوا طعامهم بأسرع ما يمكن. كان ميلو أول من انتهى من طعامه، فأخذ من كيسه لفة من حبل رفيع،

وربط في طرف الحبل قطعة ثقيلة من خشب محترق في النار، ثم ألقى بها، بكل ما أوتي من قوة، نحو أقرب فرع شجرة، كان جذعها بعرض عشرة رجال معاً. لم يصل الحبل إليه، وكادت قطعة من الخشب تسقط فوق رأس مانيثو، الذي التقطها، وألقى بها بقوة، فطارت في الهواء، والتف الحبل حول الفرع، وسقط من الجهة الأخرى. كان طول الحبل يزيد عن مثلي المسافة بين الأرض والفرع. أمسك مانيثو كلا الطرفين بإحكام بيديه الضخمتين، وتسلق عليه حتى وصل إليه، ثم رفع جثة أوليس المتصلبة، داخل البطانية، في الهواء، وربطها بإحكام بالحبل حول الفرع، ثم هبط إلى الأرض. وقفوا للحظة، محدقين في سكون لأعلى، مودعين أوليس، وتقدمهم دوجنز، دون أن ينبس بكلمة، ليواصلوا السير.

ساروا لمدة ساعتين بين سلاسل التلال، إلى أن اختفت، ووجدوا أنفسهم أمام وادٍ تحيط به الأشجار، تمكنوا، في هذا المكان، من رؤية منطقة الدلتا الوسطى دونهم، بغابتها الخضراء المصفرّة، وشاهدوا في منتصفها المياه اللامعة. كان النهران يلتقيان على بعد عشرة أميال إلى الجنوب، وارتفع بينهما التل المكسو بأشجار نمت وسط مستنقعات مسطحة، كنصب غريب. رأوا، من هذه المسافة، أن التل يعلوه بناء يماثل البرج.

أصبح أمامهم الآن خياران، إما هبوط الوادي إلى الغابة تحتهم، أو السير إلى أقصى طرف الواردي، والاستمرار في الاتجاه ذاته، مثلما حدث في رحلة سلسلة التلال، التي أفضت بهم إلى هذا المكان. ونظراً لوجود اتفاق ضمني بأن هدفهم الآني هو نقطة التقاء النهرين، فقد بدا من المعقول مواصلة خط السير الحالي وسط الغابة، وتأجيل الهبوط إلى السهل حتى آخر لحظة. ولذلك فقد جددوا نشاطهم في مياه النهر المتدفقة، التي تجري إلى الوادي، ثم صعدوا التل المكسو بالعشب، نحو أقرب فجوة بين الأشجار.

لاحظ نيال، وهم يصعدون التل، أن طبيعة النباتات مختلفة. فالعشب أكثر سماكة واخضراراً منه على الجانب الآخر من المجرى، وعندما تعثر بالمصادفة وسقط عليه بكلتا يديه، انتابه شعور غريب غير متوقع، فقد تراءى له أنه نابض بالحياة، ويتلوى ليبتعد عنه، وأحس بأنه كثيف ورطب، ولما قبض عليه بشدة، شعر كما لو أنه يقبض بأصابعه على مجموعة من المجسات الخضراء الرفيعة. حاول قطعة بالمديه، لكنه بدا صلباً، قوياً.

لاحظوا، عندما اقتربوا، أن طبيعة الأشجار قد اختلفت أيضاً. فهي ما تزال ضخمة، لكنها لم تعد عريضة، أو مستقيمة الجذوع. إنها ليست غابة، ولكنها أحراش استوائية؛ فالجذوع سوداء، شكل العديد منها يماثل شكل الزواحف المحرشفة، بعضها كان عريضاً عند القاعدة، مستدق الطرف تحت الفروع، وكلها ذات أشكال ملتوية، وكأنّ عملاقاً قد أحاطها

بذراعيه، محاولاً نزعها من الأرض. وتنبض هذه الأشجار بالحياة بشكل يفوق أشجار الغابة على الجانب الآخر من الوادي، كما يبدو وكأن جذورها تحاول شق طريقها خارج التربة. جعل بعضها نيال يتذكر متقززاً العناكب الجاثمة. شعر، بمجرد أن أصبح بينها، بأنه مُراقب، كما لو أن عيوناً خفية تتفحصه من بين الفروع.

كانت الأرض تحت قدميه مكسوة بالنباتات الصغيرة والمتسلقة، ومن بينها العديد من الأزهار الغريبة الشكل. حدَّق دوجنز في هذه النباتات متشكّكاً، وسأل سيميون: أهي مأمونة الجانب؟

ـ عند هذا الارتفاع نعم. ولكن ذلك الشيء خطير.

وأشار بإصبعه إلى زهرة قرنفلية جذابة بشكل ملفت، برزت من وسط نباتات متسلقة تبدو كالأفاعي. ثم التفت إلى مانيثو، وقال: أعطني مديتك!

عبر المنطقة المقطوعة الأشجار، وقد أمسك مدية في كل يد، واقترب من الزهرة، التي بلغ عرضها نحو قدمين. بدت البتلات غريبة الشكل، مثل أشرعة قارب، لكن منظرها أوحى بأنها غير ضارة. مد سيميون يده اليسرى، التي تحمل المدية، ولمس الزهرة، فقبضت البتلات في الحال، على النصل، وسقطت المدية من يده، فنزل بيده الأخرى، التي يحمل بها المدية الثانية، وبحركة واحدة قوية قطع العنق الأخضر العريض، الذي يسند الزهرة، فراح يتلوى كأفعى، بل ونزف منه، وسط دهشة نيال، سائل أحمر كالدم. هوت الزهرة القرنفلية، وهي ما تزال تقبض على المدية، وسط النباتات المتسلّقة، عند قاعدة الساق. انحنى سيميون، وسحب المدية من مقبضها. انتصبت النباتات الزاحفة، فجأة، وقبضت على رسغه وساعده. أخذ يوجه لها ضربات متتالية بالمدية، في يده اليمنى، ونجح في قطع معظمها، ولكن، في هذه الأثناء، برز من قاع التربة نبات متسلق ضخم، يبلغ عرضه نحو سمك ذراع مانيثو، والتف حول كاحل سيميون، الذي التفت، وصاح: «ساعدوني»، ثم فقد توازنه، وسقط وهو يئن من الذعر، عندما راح النبات الزاحف الكثيف يجره إلى وسط الأجمة.

هرع الآخرون لنجدته، في غضون لحظات وأخذوا يوجهون ضربات متتالية إلى النباتات المتسلقة. لاحظ نيال أن الساق، الذي لا رأس له، يهاجم هو الآخر سيميون، ويلتف حول أحد إبطيه، ويحاول جره إلى الأوراق العريضة، فشطره بضربة واحدة. لكن الأمر استغرق أكثر من خمس دقائق قبل أن ينجحوا في تخليص سيميون الذي نهض واقفاً على قدميه، وألقى نظرة على النبات، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كالحة.

ـ ليكن هذا درساً لكل من يبالغ في الثقة بنفسه. لقد كان التعامل مع هذه الأشياء

اللعينة سهلاً عندما كنت هنا آخر مرة ـ منذ خمس سنوات. أما الآن فقد ازدادت خطورتها كثيراً، وهذا يعني أنها في حالة تغير دائم.

ثم نظر حوله، واستطرد: لم يبق شيء على حاله في الدلتا.

مسح السائل، المماثل للدم، الذي راح يتحدر على خده، ثم تحسس العصير بأصابعه، واشتمّه. كانت الزهرة القرنفلية ممددة على الأرض، وما تزال بتلاتها تقبض على المدية، التي التقطها سيميون، وقطع بها إحدى البتلات، واشتمها، ثم وضع جزءاً منها في فمه.

قال دوجنز: احترس! قد تكون سامّة.

ـ هذا الاحتمال ليس وارداً، فلهذا الشيء نظام دفاعي مختلف.

ثم استطرد وهو يلوكها: إن طعمها مثير! جرِّبها!

وقدم قطعة إلى دوجنز، الذي هز رأسه رافضاً إياها، لكن نيال قبلها، وقضم منها على مهل، فوجدها مستساغة الطعم، وذكّره مذاقها بالنبيذ الذهبي. قطع بتلة أخرى من الزهرة، وقدمها لميلو، قائلاً: جربها! إنها لذيذة. ثم تغلب دوجنز على شكوكه، خلال دقائق، وراح يمضغ قطعة منها بابتهاج واضح.

قال سيميون: إنه نبات صائد بطبيعة الحال. فالزهرة تجتذب الحشرات إلى الأجمة، وتلتهمها.

ثم أشار إلى نبات متسلق، يشبه الأفعى، يتمدد ممزقاً عند أقدامهم، وقال:

ـ وهذا يسعى إلى أسر الحيوانات الكبيرة.

قال ميلو: لم أر أية حيوانات حتى الآن.

ـ سترى.

قال مانيثو: لا يوجد العديد منها بالتأكيد، وسط نباتات مثل هذه.

هز سيميون رأسه، وقال: إذا كانت الدلتا كأي مكان آخر على الأرض، فأنت محق فيما تقوله. ولكن الدلتا عبارة عن بوتقة صهر، متطورة باستمرار. فكل هذه الأشياء حولنا تحت التجربة. وإذا لم يتمكن أحدها من البقاء على قيد الحياة، فسوف يلغى من الوجود، ليحل شيء آخر مكانه. ولذلك فهناك إحلال مستمر لأشكال جديدة مختلفة من الحياة.

كان لحم الزهرة القرنفلية مريحاً للمعدة، وبدا أنه يحتوي على مادة منبهة، أثارت حالة من الانتعاش. شعر الجميع بنشوة، وثقة أكبر، حين استأنفوا رحلتهم. ورغم أن الأرض اكتست بأنواع عديدة من الشجيرات، والأزهار، والنباتات المتسلقة، إلا أن كل ذلك لم يشكل أية عقبة حقيقية أمام تقدمهم. فكانوا يرفعون أقدامهم، ويدوسون بثبات فوق

الأرض، فتتهشم النباتات تحتها، وتُصدر رائحة طيبة عطرة، يلفها عبير الأزهار. تصرف نيال بحذر بعد تجربة اليوم السابق، فبذل جهداً لكي يسترخي، مما جعله يدرك أن هذه النباتات لا تحاول بث ذبذبات الدلتا، وبالتالي فإنها ليست مؤذية. لكنه وجد صعوبة في الإبقاء على تلك الحالة من الإدراك المسترخي، نظراً لأن لكل شيء يمر به نوعاً من الإدراك الخاص به، بدءاً من النباتات السحلبية العملاقة، التي يقتصر هدفها الوحيد على جذب النحل لينثر الطبقة الغبارية، التي يكتسي بها جسمه، وحتى الأشجار الخانقة المرعبة، بنباتاتها المتسلقة التي تماثل المجسات، والتي تسعى كي تلتف حول الضحية وتخنقها. كان يشعر في البداية بالانتعاش وهو يخوض هذا الوعي المتعدد الجوانب، ويدرك أن وعيه الإنساني المحدود ليس إلا نوعاً واحداً من بين أنواع عديدة، لكنه أحس بعد نصف ساعة بالتشبع من هذه الانطباعات الجديدة، وشعر بالراحة، عندما عاد بإدراكه إلى حالته الطبيعية، المحدودة الضيقة.

كان واضحاً أن الطريق، الذي يسيرون فيه، قد مهدته الحيوانات، أو ربما حيوان واحد هائل، حيث نحيت، في بعض الأماكن، أشجار ضخمة، بينما سويت شجيرات عديدة بالأرض. بدأ الطريق، بعد ستة أميال، ينعطف إلى أسفل التل، ولاحظوا الارتفاع التدريجي في درجة الحرارة. تناهى إلى مسامعهم طنين الحشرات الضعيف والمستمر، بينما ازدادت كثافة النباتات. التف نبات متسلق، بنفسجي اللون، فجأة حول ساق مانيشو، ولما أبعده بضربة واحدة، أخذ ينتفض، ويتلوى كدودة منشطرة، وأخذ سائل أزرق ينز من طرفه المقطوع. سمعوا أزيزاً حاداً، جعلهم يتقهقرون مذعورين، والتقطت حشرة طائرة، لها جسم طويل، وعينان خضراوان، وزباني مدبب ناتىء من الذيل، شريحة النبات. قال سيميون إنها من النُعر(*). كانت الذبذبة، طويلة القوائم، التي خطفت النبات المتسلق، ذكراً، وبالتالي غير مضرة بالنسبة للبشر، فالذكور يفضلون امتصاص رحيق الأزهار. ووصف سيميون الأنثى، التي تمتص الدم، بأنها واحدة من الحشرات الأكثر خطراً في الدلتا. ويقيهم العصير، الذي دلكوا به أجسامهم، خطر النُعَر، وبعوضة الملاريا، ولكن نظراً لأن مفعوله قد خف، خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، فقد توقفوا ودلكوا أجسامهم بمزيد منه، خاصة في الأماكن المكشوفة من البشرة، كما نقعوا ملابسهم فيه، وقد تعودوا على رائحته الأمونية الحادة، وما عادوا يستغربونها.

انحدر الطريق، الذي اصطفت على جانبيه الأشجار، وتمكنوا من مشاهدة وادي

(*) فصيلة من الذباب الضخم اللاسع.

الدلتا. رأوا، أمامهم مباشرة، ربما على بعد عشرة أميال، تلاً له بروز يشبه البرج. بدا شكله مثيراً، كما لو كان رأس عملاق، تحلل الجزء الأسفل منه متخذاً شكل لحية متدفقة، امتزجت مع الغابة التي تحتها، بينما بدا البروز، الذي على شكل برج، كنتوء مدبب فوق خوذة غريبة الشكل.

سأل نيال سيميون: أتعرف ما هذا الشيء؟

ـ لا. لم أقترب منه قط لأكتشف كنهه. وفي الواقع فإنني لم أقترب إلى هذا الحد من قبل.

ازدادت رائحة النباتات العطنة، عندما هبطوا المنحدر، وأصبحت الأرض، التي تكسوها أوراق الأشجار، رطبة ولينة. وحين التف نبات متسلق آخر حول كاحل ميلو، رفع دوجنز حاصده، وقال: لِمَ لا نطلق النار في الاتجاه الذي نسير فيه لنمهد طريقنا؟

هز سيميون رأسه، وقال: ليس بعد. فهذا المكان نابض بالحياة، ولا يمكنك أن تعرف طبيعة رد فعله.

نظر دوجنز إليه بشيء من الدهشة، كما لو أنه يشك في سلامة عقله، لكنه خفض الحاصد.

رأوا في النهاية، وبعد عشر دقائق، الكائن الذي مهد الطريق وسط الأشجار. فقد انعطف الطريق أمامهم، ولما اقتربوا من الانحناءة، لاحظ نيال ميلاً مفاجئاً في قمة شجرة، تبعد عنهم نحو بضع مئات من الأمتار. أمسك بذراع سيميون، وتوقف الجميع، ثم راحوا يتقدمون بحذر. استداروا مع الانعطافة، ثم توقفوا، وقد علت علامات الدهشة وجوه الجميع، ظنوا أن الكائن الأخضر الهائل، الذي اتجه نحوهم ببطء يسروع عملاق، ولكن انعكاس الشمس على درعه الأخضر، أكد أنه دودة ألفية. وتيقنوا من ذلك، عندما سحب رأسه من النباتات، ونظر نحوهم بفضول، ليكشف عن رأسه البشع، وقوائمه الملتوية الصغيرة، التي تقوست للخارج، مثل فكي سرطان بحري. رفع دوجنز الحاصد مرة أخرى، لكن سيميون دفعه لأسفل بهدوء.

ـ إنها غير مؤذية على الإطلاق، ما لم تمش فوقك.

سد جسم الدودة الألفية الطريق، الذي يبلغ عرضه نحو ثمانية أقدام، ولا يقل طوله عن عشرين متراً. نظرت بعيونها المفلطحة الغريبة نحوهم، لبضع لحظات، ثم حنت رأسها، وواصلت التهام العشب. راح فكاها يصدران جلبة طحن مستمرة، بينما حركت رأسها ببطء، من جانب إلى آخر، وهي تجمع الأزهار والنباتات المتسلقة، بدقة، كآلة حاصدة.

التهمت العشب بسرعة فائقة، وتقدمت نحو عشرة أقدام باتجاههم، وهم يحملقون فيها. وحين تمدّدت زهرة نضرة بعيداً عن متناولها، عند منطقة خالية بجانب الطريق، هزت بهدوء النصف الأخير من جسمها، فتحطمت الأشجار والأزهار على الجانبين، فأحدثت جلبة. ثم استأنفت، بعد أن نظفت بكفاءة المنطقة من الأزهار، تقدمها البطيء.

نظر الجميع إلى سيميون، ليحدد لهم ما يفعلونه، فقال: لنجرب المرور من جانبها، فلن تهاجمنا.

قال دوجنز: وإذا ما مشت فوقنا؟

ـ هذا أمر غير مرجح. لنحاول على أية حال.

ولكن بمجرد أن اقتربوا بضعة أقدام منها، رفعت رأسها مرة أخرى، ونفثت فجأة رائحة جعلتهم يتقهقرون، وهم يترنحون ويسعلون. فقد كانت أسوأ ما اشتمّ نيال في حياته.

قال مانيثو، وهو ما يزال يسعل ويتقيأ: لنلف حولها، فلا شيء يمكن أن يكون أسوأ من هذه الرائحة.

ابتعدوا عن الطريق، إلى المنطقة التي تكسوها الأعشاب، وقد شهروا أسلحتهم الحاصدة. تلوّت النباتات المتسلقة تحت أقدامهم، لكنها لم تبذل أية محاولة لمهاجمتهم. استنتج نيال أن هذا يرجع إلى خوفها من الدودة الألفية القريبة منها، التي استأصلت النباتات الأخرى من جذورها. توقف مانيثو، الذي سار في المقدمة، حين وجد الطريق وقد سدته شجرة تفترش أغصانها، الملتوية كمجسات، الأرض، ولكن عندما تفقدها عن قرب، اكتشف أنها شجرة صفصاف أفعوانية، وهي من فصيلة الشجرة الخانقة، ولكنها غير مؤذية، فأزاحوا الفروع عن طريقهم، دون أية صعوبة. إلا أنهم واجهوا، بعد عشرة أمتار، الشجرة الخانقة ذاتها. بدت للوهلة الأولى مثل شجرة الصفصاف الأفعوانية، حيث اكتسى جذعها برقائق مُشعِرة غريبة، ومئات من النباتات الخضراء المصفرة المتسلقة، التي تبدو مثل شعر امرأة. لكن هذه النباتات لاحت أكثر نضارة واخضراراً من النباتات المعلقة في شجرة الصفصاف الأفعوانية، التي تجتذب نوعاً من الطحالب الرمادية، تتعلق بالنباتات، وتكسوها بإفرازات رطبة، فتقلل من نضارتها.

وبينما راح سيميون يوضح الاختلاف بين الشجرتين، حطت انثى ذبابة النُعرة، ووقفت على مؤخرة رأس مانيثو، واستعدت لغرس خرطومها، الذي يماثل المبضع، داخل الجلد ولكن يرجح أن تكون رائحة العصير الواقي قد اربكتها، للحظات كانت كافية لأن يمد مانيثو يده، ويمسك بأحد جناحيها، ويلقي بها بعنف بعيداً عنه. فسقطت على الأرض عند

قدمي نيال، ثم طارت في الحال وحطت فوق النباتات المعلقة. لم يحدث شيء للحظة، ثم سقطت النُعرة، وهي تتخبط، وبدت كأنها على وشك الهرب، ثم التفت المجسات حول جسمها بسرعة مذهلة، واختفت داخل الفروع. طنت الذبابة طنيناً يائساً، وهي تتلاشى. ارتخت النباتات المتسلقة، بعد بضع لحظات، وبدت الشجرة مرة أخرى مسالمة، مثل ابنة عمها شجرة الصفصاف الأفعوانية.

ـ ماذا جرى للذبابة؟

قال سيميون: ثمة فم في أعلى الجذع.

أصيبوا جميعاً بقشعريرة، وهم يفكرون في ذلك.

خف الآن صوت الدودة الألفية، وهي تأكل العشب، خلفهم، ونظراً لأن شجرة سدت عليهم الطريق، فقد قرروا العودة من حيث أتوا. عرجوا إلى طريق خالٍ تماماً من أي نباتات. وكأن إنساناً قد مهده. كانت الدودة الألفية قد تقدمت حوالي مائة متر نحو التل.

قال ميلو: انظروا! إنها تستدير.

رفعت الدودة رأسها، وراحت تلتهم النباتات عند حافة الطريق، ثم نظرت إليهم، وقد تدلت من بين فكيها شريحة من النبات المتسلق، وحينما شعرت أنهم مسالمون، واصلت أكلها.

قال نيال: إن ذيلها يأكل هو الآخر.

حدقوا في دهشة فاغرين أفواههم. لم يكن هناك أي شك، فللدودة رأس عند ذيلها. بدا الرأس الذي التفت ناحيتهم أصغر وأكثر حدة من الرأس الآخر، لكنه راح يؤدي وظيفته بالكفاءة ذاتها، رغم أنه تغاضى عن أعشاب عصيرية عديدة، خاصة تلك التي على حافة الطريق، ولكن الرأس، الذي في المؤخرة، التهم كل الأعشاب، بدقة متناهية، حيث كان لديه متسع من الوقت لاستكمال مهمته. رمقتهم الدودة، وهي تمضغ النبات المتسلق، الذي راح يتلوى باهتياج، وهو يختفي في ركن فمها، بعيونها الناعسة المفلطحة، التي ندت عنها شحنة من الأشمئزاز، فانفجروا جميعاً ضاحكين، وتعالت ضحكاتهم عندما ذُعِرت الدودة، وهرعت للأمام عدة أمتار.

قال دوجنز: حسناً، يبدو أن للدلتا جوها المرح.

رد سيميون: ذلك الشيء لم يظهر له رأسان لمجرد إثارة الضحك.

واصلوا هبوط التل، وقد ارتفعت معنوياتهم، وشعروا بالمتعة والأمان، نتيجة لعدم وجود أية نباتات تحت أقدامهم. لكن نيال سرح بفكره بعيداً، وتعمد المشي وراء الآخرين،

حتى لا يضطر للدخول في مناقشة معهم. فقد أثارت رؤية الدودة الألفية ذات الرأسين دهشته، وانفعاله الشديد. بدا الكائن مثيراً للضحك، رغم أن السبب وراء مظهره غير الطبيعي خطير للغاية، وأدرك مدى الكارثة من تطور هذا الكائن. أدت الطاقة الهائلة في الدلتا إلى نموه حتى أصبح بضخامة صف من البيوت، وذلك يعني أنه سيكرس كل وقته، بل وحياته لالتهام الطعام حتى يُشبع جسمه العملاق، مما يجعله معرضاً للأعداء، ومشغولاً عنهم، وبالتالي فقد طور رأسين حتى يتمكن من رؤية أعدائه، وهم يقتربون من كلا الاتجاهين. ولكن في تلك الحالة، لماذا لم يطور سلسلة من العيون بامتداد عموده الفقري، أو على جانبيه؟ الحل المنطقي لذلك هو أنه كان عليه أن يقلص حجمه، ويطور أسلحة أقوى. لكن افتقاره للعقل منعه من تحقيق الخيار الصحيح . . .

كل هذا أفضى به مرة أخرى إلى السؤال التالي: ما الخطأ الذي حدث بالنسبة لتطور الإنسان؟ لقد جعلته ملايين السنين من الصراع، متخصصاً في فن البقاء على قيد الحياة. واتخذ تطوره مساراً منحدراً، متسماً بالعرض. ثم لماذا أصيب بالإحباط والاستياء، عندما أجبره المذنّب على الرحيل عن الأرض؟ ولماذا يبدو البشر عاجزين عن تحقيق السعادة الحقيقية؟

بدت الإجابة واضحة إلى حد ما: فقد كان الإنسان عاجزاً عن تقدير قيمة الحياة، بدون مشاكل. ومع هذا فقد وجد الإجابة غير منطقية، إذ أن الإنسان استحدث الحضارة لحل مشاكله: مشكلة الغذاء، مشكلة الأمن، ومشكلة سلام العقل. إذن لماذا شعر بالضجر والاستياء، بعد أن توصل الى حلول لها. . . ؟

قال ميلو: آه. . انظروا! هناك أشجار من الفصيلة ذاتها.

أصبحت الغابة أقل كثافة، عندما اقتربوا من حافتها، فتمكنوا من الرؤية لمسافة أبعد خلال الأشجار. لاحظوا كثافة الأعشاب تحت أقدامهم، ولكنها لم تكن من الفصيلة الخانقة. انتصبت على بعد عشرة أمتار، في منطقة صغيرة مقطوعة الأشجار، شجرة أرجوان كبيرة، يصل طولها إلى مثلي طول الأشجار، التي مروا بها من قبل، بدت بهيجة المنظر، بأوراقها المهتزة.

قال ميلو: هل يمكن أن نتوقف لنجربها؟

رد دوجنز: لا. فأمامنا طريق طويل، ينبغي قطعه، وقد أصبح الوقت ظهراً.

ـ لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق.

ـ ليس هناك متسع من الوقت.

قال مانيثو: بمقدوري تجربتها خلال لحظات.
وقال ميلو بسرعة: وأنا كذلك.
توقفوا، وأنزلوا الأكياس من فوق ظهورهم.
قال دوجنز: يا إلهي!
ـ ماذا؟
أشار نحو الأرض، وصاح: انظروا!

لم ير نيال شيئاً غير عادي، في العشب الأخضر الكثيف، فقال له دوجنز: انظر!

رفع كيسه، فوجد الأرض تحته، خالية من العشب. أنزل الكيس ببطء، فوق رقعة أخرى من الأرض، على بعد بضعة أقدام، فهرب العشب مبتعداً، بحركة هادئة كالموجة، وحين رفع الكيس، وجد الأرض خالية من العشب مرة أخرى. لكن البقعة البنية الجرداء، التي تبعد عنهم بنحو بضعة أقدام، كستها الأعشاب.
ـ أرأيت شيئاً كهذا من قبل؟
هز سيميون رأسه نافياً، وقال: مطلقاً.

انحنى، والتقط عشبة، وحين سقط ظل يده فوقها، تفرقت بقية الأعشاب. أمسك بها تحت ضوء الشمس، وقال: انظر!

نظر نيال من فوق كتفه، فرأى جذوراً بيضاء صغيرة، عند أصل العشبة، التي لم يزد سمكها عن ربع بوصة. وأخذت هذه الجذور تتلوى، كأنها قوائم دودة ألفية، حين ضغط سيميون عليها.
ـ عشب مَشّاء!

جثا نيال على الأرض، وقبض على حزمة من العشب، الذي حاول الهرب من ظل يده، لكنه لم يتمكن من التحرك بسرعة. بدا كأنه يحاول الإفلات من يده. لاحظ، حين قلبه، ألوفاً من القوائم البيضاء الرفيعة، التي راحت تتلوى. أعاده إلى الأرض، في وسط الطريق، الذي مهدته الدودة الألفية، فأحس به كأنه قد أطمأن للبقاء في هذه البقعة. أمعن النظر فيه، فوجد القوائم الصغيرة وقد اختفت، في تلك اللحظة، داخل التربة. ولكن بمجرد أن مد يده، ليسقط ظلها عليه، خرج من الأرض، وتحرك مبتعداً، ليتمركز مرة أخرى على بعد بضع بوصات.

اقتلع عشبة واحدة، وقضمها بتأن. وجد مذاقها مستساغاً، ممتعاً، فابتلعها في الحال.

ضحك ميلو، وقال: هل لك أن تتصور التعبير الذي يرتسم على وجه تلك الدودة

الألفيـة، وهي تحاول قضم كميـة هائلة منهـا، وتكتشف، في النهايـة، أنها قضمت حفنة من التربة؟

قال سيميون: إن حركتها ليست سريعة بالقـدر الذي يمكنهـا من الهرب بعيـداً عن أية حيوانات عادية تقتات على الأعشاب، انظر!

حرك يده فوق العشب، الذي انكمش ليتحول إلى كتلة سميكة، في محـاولة للهـرب. وأعاقها هذا التزاحم والانكماش، وأثار حركة كالموجة البطيئة.

ـ إذن لماذا يتحرك؟

ـ للهرب من الشمس، عندما يكون الجو حاراً، ومن الـظل، حين يكـون الجو شـديد البرودة. وهو مثل آخر على تطور الكائنات المستمر في الدلتا.

نـظر حولـه في إعجاب، وقـال: هذا المكـان يمكن أن يجعل ألف عـامـل منهمكـين في العمل، لمدة قرن.

قال ميلو: أُفضل أن أبقى في بلدي.

عبرت وجهه سحابة حزن، فعرف نيال أنه يفكر في أوليس.

قال دوجنز: أرى أن بإمكاننا التوقف هنا، لتناول الطعام، فالمنطقة التي سنجتازها، لا يتوفر فيها الكثير من الأماكن الظليلة.

كانت الأرض أمامهم تنتشر بها المستنقعات، والأعشاب الخضراء الكثيفة، والشجيرات اليانعة، ولكن لم يكن هناك سوى القليل من الأشجار.

قال مانيثو: أرى هناك أزهاراً قرنفلية أخرى، هل لي أن أجلبها؟

رد دوجنز: ولكن كن على حذر!

ثم التفت إلى نيال، وقال: من الأفضل أن تذهب معه.

كانت الشجيرة، وسط الأشجار، على الجـانب القصي من الطريق. لاحظ نيـال، وهما يقـتربان، الـرعشة الخـفيفـة التي انتقلت بين كـل أوراقها. أطبق يـده على الحـاصد، ولكن عندما أصبحا على بعد بضعة أقدام منها توقفت عن الحركة. نشرت الأزهار القرنفلية رائحتها الـطيبة القـوية، وبـدت الشجيرة آمنـة مثل أيكـة في بستان. اختبـأت المجسات، التي تمـاثل السياط وراء الأوراق الزاهية. وقفا يتأملانها للحـظة، ويراقبـان أية دلالـة قد تكشف عن أن الشجيرة تدرك وجودهما، لكنها ظلت دون حراك.

رفع مانيثو المدية، وبحركة سريعة قطع إحدى الأزهار، فسقطت على بعد بضعة أقدام

على الأرض القاحلة. قفز مانيثو، في اللحظة ذاتها، للخلف. لكنه لم يتحرك بالسرعة الكافية لإبعاده عن المجس الأخضر، الذي انطلق من الشجيرة، وقبض على رسغه. التفّت مجسات أخرى حول ساقيه، أثناء محاولته الإفلات. حاول مجس آخر الإمساك بنيال، لكنه كان يقف بعيداً عن مداه.

صوب نيال بدقة، ثم ضغط الزناد. مزقت الأشعة الزرقاء المجس، الذي كان يقبض على رسغ مانيثو. وخفض سلاحه ليشطر المجسات الأسمك، التي قبضت على ساقيه. تدحرج مانيثو ليسقط على الأرض. راحت الأطراف المقطوعة للمجسات تتلوى، بينما تقهقرت الأخرى عائدة إلى الشجيرة.

التقط مانيثو الزهرة القرنفلية، فحاولت على الفور إطباق أوراقها على يده، لكنها كانت واهنة للغاية، فلم تتمكن من إحكام قبضتها. قطع مانيثو شريحة من البتلة، ووضعها في فمه.

ـ ممتازة، وأفضل من الأخرى.

ـ لا بد وأنها كذلك، فالنبات أشد خطراً.

تقاسما البتلات، وأكلاها مع الفطائر واللحم المجفف. كانت النكهة، كما قال مانيثو، أشهى من تلك التي تذوقاها من قبل. ودهش نيال حين لاحظ أن رائحتها تماثل العسل، أما نكهتها فذكرته باللحم الطازج. أضفت البتلات العصيرية مذاقاً لذيذاً على اللحم المجفف والفطائر.

ألقى دوجنز نظرة سريعة إلى الشمس، وقال: لقد حان وقت التحرك.

أحس نيال، عندما تكلم دوجنز، بوخز في فخده الأيمن، فأدرك على الفور أنها الذبذبة الغريبة، التي يحدثها القضيب المتداخل. مد يده إلى جيبه، فوجد أن الوخز الكهربائي شديد للغاية على أطراف أصابعه، فسحب يده بسرعة. توقف الوخز عندما أوشك أن يخرجه من جيبه.

لاحظ سيميون تغيراً في تعبيرات وجهه، فسأله: أحدث شيء؟

ـ لا.

اعتقد نيال أن الأمر لا بد وأن له علاقة بجو الدلتا المتغير.

وقف ميلو، وقال: سأذهب لأجلس تحت ظلال الشجرة للحظات.

قال سيميون: أسرع، وخذ معك الحاصد!

نظر ميلو بدهشة، وتساءل: الحاصد؟

ـ لا تخاطر بحياتك في الدلتا.

رأى نيال أن الجلوس لبضع دقائق تحت ظلال الشجرة سوف يبدد حالة النعاس، التي شعر بها بعد تناول الطعام. فحمل حاصده واقتفى أثر ميلو. نهض مانيثو واقفاً هو الآخر.

حين انحنى ميلو ليتفادى الفروع، رأى نيال أنها تهتز. استثيرت حاسة الخطر لديه فجأة، فقد بدا الاهتزاز مثل تعطش حيوان جائع للطعام. توقف، وصاح: «كن على حذر!». لكن الشجرة أسرعت، وأطبقت فروعها عليه، في اللحظة التي صاح فيها، كما لو أنها شرك. كانت الحركة السريعة للغاية، مثل قفزة لعنكبوت الباب المسحور. صرخ ميلو عندما أطبقت الفروع عليه، بحركة تلقائية تماثل حركة انقباض أصابع اليد.

رفع نيال الحاصد، لكنه تردد. فوسط هذه الكتلة الملتوية من الفروع، التي انطبقت على الجذع، كان من المستحيل تحديد مكان ميلو. إلا أن الصرخة المذعورة التي أطلقها ميلو مستغيثاً: «ساعدوني!» أبعدت تردده. صوب الحاصد على الجزء الأعلى من الشجرة، وسحب الزناد، وهو يحرك السلاح في الجانبين. أصدرت الشجرة هسيساً مثل أفعى غاضبة، عندما انهارت الفروع العلوية منها. لكن الفروع التحتية واصلت إحكام قبضتها، وضغطها، وانغلقت على بعضها بشدة، حتى برزت جذور الشجرة فوق سطح الأرض. صوّب الحاصد لأسفل، وسحب الزناد. ارتعشت الشجرة، وأخذ بعض الفروع يتلوى في حركة مذعورة. تراجع حين بدأت الشجرة تسقط باتجاهه. وفي اللحظة ذاتها، توقف ميلو عن الصراخ. ضرب أحد الفروع نيال، فسقط على الأرض، وهوت الشجرة على بعد بضعة أمتار منه.

قاومت الفروع، وهم يحاولون فكها، وبدا الأمر كأنهم يحاولون تخفيف قبضة أصابع حديدية. ثم نحى مانيثو أحد الفروع جانباً بالقوة، وصاح: «لقد عثرت عليه، اعطني حاصداً!». سلمه نيال حاصده، فصوبه مانيثو، وشطر بعناية أعلى ستة أقدام من الشجرة. خففت الفروع فجأة قبضتها. نحاها سيميون، وخلص ميلو، الذي كان وجهه ممتقعاً، وملابسه ملطخة بالدم.

انحنى سيميون فوقه، ومزق رداءه، ثم وضع أذنه فوق صدره.

ـ ما يزال يتنفس. أحضر قليلاً من الماء!

أحضر دوجنز زجاجة ماء فَرشها سيميون على وجه ميلو، مستخدماً يده لإبعاد الدم. هش نيال بعنف نُعرة، حاولت الوقوف على صدر ميلو، فأبعدها بضعة أقدام فتح ميلو عينيه، وحاول أن يلتفت.

ـ هل أنت بخير؟

حاول أن يتكلم، لكن صوته انحبس، قامت النعرة بمحاولة ثانية للوقوف عليه، لكن مانيثو وجه إليها لطمة بيده الضخمة، ألقت بها على الأرض، ثم سحقها بقدمه، فانتشرت في الهواء الرائحة الغريبة اللاذعة.

نزعوا رداءه، وغسلوا جسمه في الماء البارد. رأوا، بعد أن نظفوا جسمه من الدم، أن جلده اكتسى برضوض صغيرة، وعلامات ثقوب، كما لو أن ألف شوكة قد اخترقته. كما راح ينزف من أنفه، فتحسس سيميون أطرافه، وضغط عليها باحثاً عن كسر في عظامه، فشهق ميلو، وصرخ، ثم غاب عن الوعي.

لاحظ سيميون أن كاحله متورم، فقال: لا يوجد كسر في عظامه، على حد علمي. لكنه لن يستطيع المشي لبضعة أيام.

ثار دوجنز غاضباً، وقال: ماذا عسانا نصنع الآن؟

ـ أمامنا خياران، إما أن نصنع نقّالة ونحمله عائدين، أو نتركه هنا.

فتح ميلو عينيه، وقال بصوت واهن محشرج: أمضوا أنتم في سبيلكم!

تبادلوا النظرات، وقال سيميون: سأضطر لملازمته، إذ ليس بوسعه البقاء بمفرده.

حاول ميلو النهوض معتمداً على كوعه، وقال: أستطيع البقاء. وسأكون على ما يرام. إنه خطأي على أية حال...

نظر دوجنز إليه شزراً، وقال: نعم إنه خطؤك أيها الأبله.

قال نيال: لا، إنه خطأي، لقد حاول السيد ستيج تحذيري.

نظروا إليه، وقد علت وجوههم علامات الاستفهام، فأضاف: لقد أصدر القضيب وخزاً لبضع ثوانٍ، قبل أن يذهب إلى الشجرة.

أخرج نيال القضيب من جيبه، وقال: لقد أدركت سبب هذا الوخز بعد فوات الأوان.

نظر سيميون باستغراب إلى الأسطوانة المعدنية، وتساءل: حَذرك؟ كيف يمكنه معرفة ما سيحدث؟ إنه مجرد حاسب آلي.

وضعه في جيبه مرة أخرى، وقال: إن بمقدوره قراءة الأذهان. ولكن كان يجب أن أكتشف ذلك بنفسي. لقد أدركت عندما فصلنا رأس تلك الزهرة القرنفلية، أنها أسرع عشر مرات من الأخرى، والسبب أنها أكثر قرباً من مركز القوة. لذلك لم تكن بحاجة لأن تُفقد

ضحيّتها الصواب بالمخدرات ـ لأن بمقدورها تحقيق هدفها بالسرعة الفائقة التي رأيناها.

قال دوجنز: إذا كنت على صواب، فإننا نتعرض لخطر متزايد، كلما اقتربنا من المركز.

هز نيال كتفيه، ولم يحر رداً.

جلسوا، وقد لفهم صمت كئيب، يراقبون سيميون، وهو يداوي جروح ميلو، التي استمرت في النزيف كلما تم تنظيفها. بل إن ميلو نفسه راح ينظر إلى جُسمه بتجرد غريب.

ـ أظن أن هذه الشجرة قد حقنتني بمخدر، أو سم. أشعر بخدر شديد.

ثم غاب عن الوعي مرة أخرى.

استخدم سيميون كل الضمادات، في محاولة لوقف النزيف، لكنها تشربت بالدماء في غضون دقائق.

قال سيميون: أخشى أن يكون على صواب، لا بد أن الشجرة حقنته بمادة مضادة للتجلط. وإذا ما استمر هذا الوضع، فسوف ينزف حتى يموت، في أقل من ساعة.

سأله دوجنز: هل هناك أي شيء يمكن أن نفعله؟

ـ سوف يساعد الطين على وقف النزيف، وكذلك أوراق شجيرة «السوفا».

ـ كيف تبدو هذه الأوراق؟

ـ هي أوراق طويلة، في وسطها كرمة بنفسجية اللون.

قال مانيشو: لقد رأيت أوراقاً تشبهها، ونحن في طريقنا إلى هنا، لونها أخضر داكن للغاية، بلون اللبلاب.

ـ إنها هي.

ـ سأذهب وأحضرها.

ـ كن على حذر، فنحن لا نستطيع تحمل فقدان شخص آخر.

حاولوا، عندما مضى مانيشو، إعداد الطين في دلو من القماش وذلك بخلط التربة مع الماء. لكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة مرضية، بسبب جفاف التربة.

ـ قال نيال: يتناهى إلى مسمعي خرير ماء، من جدول، بالقرب من الشجيرة ذات الزهرة القرنفلية.

تابع سيميون يائساً الدم، وهو ينزف، وقال: ليكن. حاولوا ذلك!

حمل نيال الحاصد بيد، والدلو القماشي بالأخرى. تقدم بحذر بالغ، وسار في طريق طويل ليتفادى الشجيرة ذات الأزهار القرنفلية. وجد بعدها أيكة وبها أشجار صفصاف

أفعوانية، تفحصها بعناية، وتأكد من وجود الطحالب الرمادية بفروعها، ثم شق طريقه بينها. عثر على الجدول، الذي يبحث عنه، في الجانب القصي من الأيكة. كسا عشب أخضر كثيف، وأزهار صفراء صغيرة ضفتيه المنحدرتين. تنحى العشب جانباً، وهو يهبط الضفة، ليكشف عن الأرض الجرداء، بينما انسحبت الأزهار داخل الأرض، لتبقى قمم رؤوسها فقط فوق التربة. لف حولها بحذر حتى لا يدوسها.

كانت المياه ضحلة، ومغطاة بالعشب الأخضر، ذي الأوراق اللامعة، التي تشبه نباتات قرة العين. وعندما وطأ فوقه، زلت قدماه لتنغرسا في الطين الغريني. تمكن من ملء الدلو بالطين اللزج، بعد أن نزع العشب عنه.

غسل يديه، بعد أن ملأ الدلو، في المياه العكرة. جفل وهو يتسلق صاعداً، إذ رأى على بعد ستة أقدام منه وجهاً يحدق فيه، بعينين ناتئتين، وفم عريض يشبه فم الضفدع، ويبلغ حجمه مثلي وجه الإنسان. بحث عن الحاصد كرد فعل تلقائي، لكنه تذكر أنه وضعه فوق الضفة. اختفى الوجه بعد لحظة، لكنه لمح جسماً منتصباً، لونه أبيض مائل للرمادي، يختفي بين الأشجار، عند أقصى طرف الجدول. وقف يحدق فيه لدقيقة على الأقل، لكنه لم يلحظ أية حركة أخرى، فتنهد بارتياح عميق.

شعر بالأسف، لأنه انشغل بالطين، وسمح للكائن الذي يشبه الضفدع بالاقتراب منه، لكنه أحس بالارتياح حين بدت عليه علامات الذعر، الذي شعر به هو أيضاً. رفع الدلو إلى أعلى الضفة، ثم تبعه متسلقاً، ومن شدة انهماكه لم يهتم بتجنب المشي فوق الأزهار. التقط حاصده، وأحس للحظة بالأسف لأنه تركه فوق الضفة، لكنه أدرك أن المسألة لم تكن ستختلف كثيراً، فهو ما كان سيؤذي الكائن، وهو يفر من أمامه. ثم سار عائداً، وقد شغله التفكير، بينما حمل الحاصد بيده الأخرى، ليوازن ثقل الدلو.

ندت عن سيميون زفرة ارتياح، عندما رأى الطين. نظف أحد الجروح الصغيرة، ثم وضع حفنة من الطين فوقها. تنهد بسعادة، بعد ثلاثين ثانية، حينما لم تظهر أية دلالة على تجدد النزيف، وأخذ يزيل الضمادات، التي امتلأت ببقع الدم.

عاد مانيثو حاملاً دلو مملوءاً بأوراق الأشجار، يتوسط كل ورقة شيء أسود متورم، يشبه حبة العنب الصغيرة. ولما شق سيميون أحدها بإبهامه، تعبق الجو برائحة طبيّة غريبة. نظف سيميون الجروح بمساعدة مانيثو ودوجنز، وعصر ورقة من شجرة «السوفا» فوق كل جرح، ثم وضع حفنة من الطين البني الداكن. اكتسى ميلو، في أقل من عشر دقائق، بالطين من رأسه حتى أخمص قدميه. لكنه راح يتنفس بانتظام، وتورد خداه.

انتظر نيال حتى انتهوا، قبل أن يحدثهم بما رآه. قطب سيميون، وهز كتفيه، وقال: لقد سمعت أشياء كثيرة، لكنني لم أر شيئاً منها.

قال نيال: لقد كان مسالماً تماماً، وفر بمجرد أن تلفّتّ للبحث عن الحاصد.

رد سيميون: قليل من كائنات الدلتا مسالم، فهي لا تستطيع البقاء، إذا ظلت مسالمة.

أدركوا من وضع الشمس في السماء، أن الوقت قد أصبح عصراً، ولم يتبق أمامهم من ضوء النهار سوى سبع ساعات.

تساءل مانيثو: ما رأيكم في أن أُعد نقالة لميلو؟

نظر دوجنز إلى سيميون، وقال: أنت أدرى بالدلتا. ماذا عسانا نفعل؟

هز سيميون كتفيه، وقال: أرى أن تمضوا أنتم الثلاثة، وتتركوني هنا مع ميلو.

ـ أتعتقد أنك ستكون بخير؟

ـ ولِمَ لا. إنني بهذا الحاصد سأكون أكثر خطراً من أي كائن آخر في الدلتا.

نظر دوجنز إلى نيال ومانيثو. لم تكن هناك حاجة لقول أي شيء. فالجميع يعرف ما يدور برأسه، فإذا ما تخلف سيميون، ستكون رحلتهم محفوفة بالأخطار. كما سيتعرض هو أيضاً لخطر كبير إذا ما واجه بمفرده الليل مع رجل مصاب. ولذلك فإن الخيار الوحيد هو الاعتراف بالهزيمة والعودة من حيث أتوا. أثارت هذه الفكرة تمرد نيال، وأحس بالعناد ذاته يطل من عيون رفاقه.

قال دوجنز: ليكن.

انحنى وراح يغلق كيسه، وفعل نيال ومانيثو الشيء ذاته.

قال سيميون: أريدكم أن تتذكروا أمراً واحداً. تتزايد خطورة الدلتا، كلما قل انتباهكم، لذلك احرصوا على أن تكونوا في حالة يقظة دائمة!

وضع دوجنز يده فوق كتف سيميون، وقال: ولتهتم أنت أيضاً بنفسك. ونأمل أن نعود غداً، وإذا لم نعد في غضون يومين، فحاول أن ترجع إلى الوطن، ولكن لا تنس أن تترك علامة نفهم منها ما صنعت!

ـ سأفعل.

رحلوا دون أن ينظروا خلفهم. أفضى بهم الطريق بسرعة، إلى حافة الغابة. امتد أمامهم، في نهاية المطاف، حوض الدلتا الكبرى، وتمكنوا من تكوين فكرة دقيقة عن جغرافية المكان. فهناك، ربما على بعد عشرين متراً، تمتد سلسلة التلال الغربية، التي تتوازى مع السلسلة، التي تمتد الآن خلفهم. وعن يمينهم، تنحدر الدلتا بالتدريج نحو البحر، ونحو

سهل مقفر، يكسوه العشب، والشجيرات القصيرة. استمرت سلسلة التلال عن يسارهم، ورأوا، فيما وراء المستنقعات طريقاً يفضي إلى الغابة. أضحت سلسلة التلال المزدوجة، في البعيد، أقل ارتفاعاً، وهم يقتربون منها. هبت ريح جافة ساخنة من هذا الاتجاه. امتدت المستنقعات في مواجهتهم، وحين هبطوا إلى السهل، لاحظوا أنه مغطى بنباتات قصب طويلة، يمكن أن تخفي رجلاً. كانت رائحة العطن هي الوحيدة المنبعثة من الغابة، ودمدمة الريح هي الصوت الوحيد المسموع وسط القصب.

بدا الهدف ـ وهو التل المطل على نقطة النهرين ـ أمامهم. ولكن لم يعثروا على طريق يفضي إليه. وعندما عبروا منطقة الأعشاب الفاصلة، وجدوا أنفسهم في مواجهة غابة القصب والشجيرات. تقدمهم مانيثو، حاملاً المدية في يده، متجهاً نحوها مباشرة. لم يعترضهم شيء لمسافة مائتي متر على الأقل، ورغم أن الأرض، تحت أقدامهم، كانت لينة، إلا أنها تحملت خطواتهم فوقها. ثم تغيرت طبيعة القصب، الذي أصبح أطول، وأكثر كثافة، فاضطروا لاستخدام المدى. وكان بعضه صلباً وقوياً، مثل خشب البامبو. استغرق الأمر ربع ساعة أخرى، ليتقدموا مائة متر فقط، وراح مانيثو يتنفس بصعوبة، مع تزايد الحر والرطوبة في الجو.

قال دوجنز: توقفا للحظة! لا أمل في أن نحقق شيئاً، إذا استمر هذا الوضع. وقد نظل لأسابيع هنا إذا ما تحركنا بهذا المعدل.

أمسك بالحاصد، وقال: سأجرب طريقة أخرى.

جثا على ركبتيه، وصوب الحاصد، ثم سحب الزناد. هشمت الأشعة الزرقاء الرفيعة، وهو يحرك يده يميناً ويساراً، عيدان القصب، مثل منجل هائل، فتساقطت على الجانبين فوق الأرض، ليظهر أمامهم طريق ممهد يمتد بضع مئات من الأمتار.

قال دوجنز، وقد انفرجت أساريره، من نشوة الانتصار:

ـ هكذا يكون التصرف.

ثم تقدمهما. ولكن رغم أنهم أصبحوا قادرين على السير فوق عيدان القصب، بعدما كانوا يهشمونها، أو ينحّونها، فإن تقدمهم ظل بطيئاً. فقد شكلت العيدان سجادة كثيفة، سقطت فيها أقدامهم، وراحوا ينكفئون، في كل خطوة تقريباً. بل كانت هناك أماكن تزداد فيها كثافة القصب، ويجدون صعوبة بالغة في المرور فوقها. استخدم دوجنز الحاصد مرتين، قبل أن يعترفوا بالهزيمة. راحوا يتخبطون، وهم يتقدمون لمدة ساعة على الأقل، حتى وجدوا طريقاً عريضاً مستقيماً وسط القصب، ورأوا العديد من العيدان الأكثر سماكة من تلك التي

واجهتهم في بداية الطريق. اكتشفوا أنهم لم يبتعدوا كثيراً عن البقعة التي تركوها منذ ساعة.

قال دوجنز: نحتاج إلى دودة ألفية أليفة لتتقدمنا.

وحدق مكتئباً في القصب المحيط بهم، والذي يصل طول بعضه إلى ثمانية أقدام. ثم أضاف: أحسب أن من الأفضل العودة، والبحث عن طريق آخر.

جلسوا لمدة خمس دقائق، حتى عاد تنفسهم إلى حالته الطبيعية، وجفف نيال العرق، الذي تحدر فوق وجهه وعنقه، بمنديل، فقد كان الهواء خانقاً. رفع مانيشو يده، وهم يهمون بالوقوف، ليلتزموا الصمت. تناهى إلى مسامعهم صوت شيء يتهشّم وسط عيدان القصب. أخذ الصوت يقترب شيئاً فشيئاً، حتى بدا أنه يتجه نحوهم مباشرة. وقفوا بهدوء، شاهرين أسلحتهم، وأصابعهم على الزناد. لكن الحيوان غير اتجاهه، على بعد بضعة أمتار منهم، وصاحبته جلبة نخر خافتة، وصوت تنفس ثقيل.

وقعت أبصارهم، بعد لحظة، على كائن، له ظهر مدرع ومحدب، يتحرك بين عيدان القصب، على بعد بضعة أمتار. ظن نيال، للحظة، أنه ينتمي لفصيلة سلاحف ضخمة. اندفع الحيوان خارجاً من القصب خلفهم، وعبر الطريق، الذي مهدوه لتوهم. لمحوا وجهاً مفلطحاً، يشبه وجه ضفدع الطين، به نتوءات على شكل قرون فوق حاجبيه، وله ظهر مدرع هائل، وقوائم قصيرة قوية، وأرجل عريضة ذات أنسجة، كأرجل البطة، تتحرك كيفما اتفق، ثم لمحوا، في النهاية، ذيلاً قصيراً، لكنه مدرع وقوي.

قال مانيشو: يا إلهي، ما هذا الحيوان؟

رد دوجنز: ليس لمعظم هذه الكائنات اسماء. ولكنني أخمن أن السبب الذي يجعله يثير كل هذه الضجة، هو أنه لا يوجد أي شيء يمكن أن يلحق به الأذى، وهو داخل كل هذه المدرعات.

عادوا أدراجهم، ثم توقفوا عند الطريق، الذي هشم فيه الكائن عيدان القصب. لم يعد الحيوان مرئياً، بينما ظلت أصوات تهشم العيدان تصل أسماعهم من بعيد.

قال دوجنز: لنسلك ذلك الطريق، فهو أفضل من العودة.

أصبح السير أسهل، وهم يقتفون أثر الوحش المدرع. فقد أدى ثقل جسمه إلى تسوية عيدان القصب بالأرض، بل إنه حطم شجيرة صغيرة في طريقه. ساروا في طريق ينعطف يميناً. ولكن بعد مسافة ربع ميل، باتت الأرض مشبعة بالماء، الذي راح ينبثق من بين عيدان القصب، وهم يدوسون عليها. اختفى أثر الكائن داخل العيدان، عند هذه النقطة، ووجدوا أنفسهم يتجهون، مرة أخرى، نحو قلب الدلتا.

كان نيال، الذي يسير في المؤخرة، يلقي نظرات عجلى خلفه، بين حين وآخر، ليس لكونه يشك أن شيئاً يقتفي أثرهم، ولكن لشعوره بالمسؤولية، وأنه يجب أن يلفت انتباه سيميون، ليأخذ حذره. ولكن، بعد أن غيروا اتجاههم، وساروا لبضع مئات من الأمتار، انتابه إحساس غير مريح، فتوقف ونظر خلفه: هل كان هذا وهماً، أم أن عينيه لمحتا حركة عند النقطة التي اختفى فيها أثر الكائن داخل القصب؟ واصل مانيشو ودوجنز سيرهما، غير مدركين أن نيال قد توقف. وحين ابتعد وقع أقدامهما، وساد السكون، سمع صوتاً آخر؛ حركة انسلال وسط القصب، على يساره بنحو بضعة أقدام. مال للأمام، وأرهف السمع، ولكن عندما تحرك، تهشم عود قصب، فتوقفت الخشخشة في الحال. لم يشعر بالخوف، فقد منحه ثقل الحاصد في يديه إحساساً بالسيطرة على الموقف. تقدم للأمام بحذر، مستخدماً ماسورة الحاصد، لتنحية عيدان القصب.

وعلى حين غرة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الكائن، الذي يشبه الضفدع. فقد كان يبعد عنه مسافة تقل عن قدمين، وقد أذهلته الصدمة، مثلما أذهلت نيال، الذي تجمد في مكانه، فتساقط القصب، ورفع ذراعيه، بصورة غريزية، ليحمي نفسه من السقوط. تحولت شفتا الكائن إلى ما يشبه العقدة، ووجد نيال نفسه ينظر إلى صفين من الأنياب الصفراء المدببة. سمع هسهسة، ثم اندفع سائل دافىء إلى خديه وصدغه. ولما عاد إليه توازنه، كان الكائن قد مضى، ولمح جسمه الرمادي، وهو يشق طريقه وسط عيدان القصب بخفة، فلم تتهشم.

سمع دوجنز، وهو يهتف: نيال! أين أنت؟

أصابه السائل، الذي سال فوق خديه، بألم حاد، فانحنى، وغسل بشرته بحفنة من الماء العكر.

قال دوجنز: ماذا جرى؟

ـ كان ثمة من يتبعنا.

بدأ جلده يؤلمه، فبلل منديله، ودلك به خده، وقال:

ـ إنه ذلك الكائن، الذي يشبه الضفدع. لقد بصق عليّ.

وقفوا مكانهم، يرهفون السمع، لمدة خمس دقائق على الأقل، لكنهم لم يسمعوا أي صوت.

سأله دوجنز: أما زلت تعتقد أنه غير مؤذ؟

ـ ليس بعد أن رأيت أسنانه. إنه آكل لحوم بالتأكيد.

تطلع دوجنز إلى السماء، وقال: من الأفضل أن نواصل السير؛ فالجميع يعتقد أن المستنقعات ليست المكان المناسب لتمضية الليل.

بدأ وجه نيال، بعد أن استأنفوا السير، يؤلمه، واضطر للتوقف بعد عشر دقائق، ليغتسل مرة أخرى. نظر دوجنز إليه، وقد بدت عليه علامات القلق، وقال:

ـ إنه يزداد احمراراً، لا بد أنه سم من نوع ما.

قال مانيثو: لقد تعرض أحد البحارة، ذات مرة، لأصلة باصقة، وكادت تصيبه بالعمى.

ارتجف نيال، وهو يفكر في احتمال إصابة عينيه بهذا السم الحارق.

واصلوا السير في طريقهم، وسط عيدان القصب المهشمة. تحولت الأرض بالتدريج إلى مستنقعات، وأدرك الجميع أن العيدان، ونباتات السُمار الكثيفة، المفروشة على الأرض، هي التي يمكن أن تمنع الطين من الوصول إلى ركبهم. أحسوا بآلام في أقدامهم، وتفصد العرق من أجسامهم، من شدة الحر، فبلل ملابسهم، فبدوا كما لو كانوا يسبحون.

أصبح القصب أقل كثافة وطولاً. تناهى إلى مسامعهم صوت الكائن المدرع، وهو يتحرك في مكان ما. راح نيال ينظر خلفه من حين إلى آخر، لكنه لم ير أي حيوان من تلك الكائنات الشبيهة بالضفادع. بات من الصعب عليه الاستمرار في تركيز انتباهه، فقد تركزت رغبته الآن في العثور على مكان يستريحون فيه.

وطأ مانيثو، الذي كان يسير في المقدمة، فوق كتلة من القصب، ثم سقط في الماء، الذي وصل إلى خصره. ساعداه على الخروج، وانتشلا حذاءه القماشي، الذي التصق بالطين. شعر نيال، حين خاض وسط القصب، بحركة حول خصره، فأبعد ذراعه بسرعة، حيث رأى علقة سوداء، يبلغ طولها أربع بوصات على الأقل، تزحف فوق ساعده. أبعدها باشمئزاز، ثم استخدم حزمة من العشب المبلل ليمسح بعنف المنطقة اللزجة، التي خلّفتها.

بات الطريق، الذي يسلكونه، وعراً، ومع ذلك استبعدوا فكرة العودة. وقفوا حائرين، لا يعرفون ماذا عساهم يصنعون، لكن صرخة ألم شتتت ما يشعرون به من إجهاد. تناهت إلى أسماعهم أصوات تساقط أشياء في الماء، وزئير مدو. ثم ساد الصمت، على نحو مفاجىء تماماً.

تلاشى الإرهاق، ووقفوا يتبادلون النظرات، وقد شهروا أسلحتهم الحاصدة. لم يعد يصل إلى أسماعهم الآن سوى أصوات واهنة لتناثر المياه، وقرقرة..

قال نيال: أرى من الأفضل أن نعود أدراجنا.

قطب دوجنز، وقال: أريد أن أعرف ماذا يجري هناك.

بدأ يتحرك للأمام بحذر، متفحصاً كل خطوة، قبل أن يخطوها. اقتفى الآخران أثراه، بحذر، استدار دوجنز عند انعطافة في الطريق، ورفع حاصده. ثم خفضه ببطء، والتفت إليهما، وطلب منهما التحرك بهدوء، فانضما إليه، بعد لحظة.

وجدوا أمامهم عدداً من المستنقعات، امتزجت مياهها بالطين. ارتفع حدب الكائن المدرع، من وسط الماء، وقد أشاح برأسه بعيداً عنهم. فلم يتمكنوا من رؤية ما يأكله، لكن حركاته دلت بوضوح على أنه يقبض على شيء بين كفيه الأماميين، وينهش لحمه. أدار رأسه، والتفت إليهم، وكأن الحاسة السادسة لديه قد خدرته من شيء. نظر إليهم شزراً، بعينيه الصغيرتين، من تحت النتوءات القرنية فوق جبهته، فرأوا أن وجهه ذا الثآليل، الشبيه بوجه الضفدع، مغطى بالدم، الذي راح يتساقط من فكيه. استعد نيال للضغط على الزناد، لكن الكائن انصرف عنهم، بعد أن تفحصهم للحظة، ليواصل تناول طعامه. بدا واضحاً أنه شعر بالأمان التام، وهو داخل غطائه المدرع، فلم يعر لوجود هذه الكائنات البشرية أي اهتمام.

تبادلوا النظرات، فالطريق أمامهم كان مغلقاً. ورأوا، خلف الكائن المدرع، المستنقعات وقد وصلت إلى نهايتها، وأن الأرض آخذة في الصعود التدريجي نحو الروابي.

وعلى الجانب الآخر منها، ربما على بعد خمسة أميال، ارتفع التل ذو البروز، الذي يشبه البرج. إلا أنهم رأوا، من هذه المسافة، أن البروز ليس برجاً صنعه إنسان، ولكنه بدا مثل قرن مكسور لكائن مدرع ضخم.

تراجعوا عدة خطوات، ليتدارسوا وضعهم، فوجدوا أنه إلى الشمال منهم يمتد المزيد من المستنقعات، وليس هناك ما يبرر السير في هذا الاتجاه، وإذا ما أرادوا الالتفاف حول الكائن، فإن عليهم الاتجاه نحو الجنوب، وشق طريقهم وسط نباتات القصب مرة أخرى.

ارتفعت معنوياتهم، حين فكروا في إمكانية تجاوز المستنقعات، صوّب دوجنز الحاصد، وضبطه على أدنى درجة، ثم سحب الزناد. انهارت عيدان القصب أمامهم، كما لو أن عملاقاً خفياً قد سار بينها. سمعوا، في اللحظة ذاتها هسهسة حيوان مصاب.

قال دوجنز: لقد أصبنا أحدها.

شقوا طريقهم، وقد شهروا أسلحتهم، فعثروا، على بعد عشرة أمتار، على بقايا

الكائن. وجدوا أن جثته الرمادية قد شطرها الحاصد، الذي أصابت أشعته مكاناً تحت الخصر بعدة بوصات. ظهرت الأسنان الصفراء، بين الشفتين المفتوحتين، اللتين تعبران عن حالة الألم التي انتابته. رأى نيال داخل الفم المفتوح، فوق ظهر اللسان، الأنبوب الضيق، الذي يخرج منه السم.

كان الكائن، في الواقع، أقرب في الشبه بإنسان منه إلى ضفدع، رغم أن الأرجل ذات وترات، والقوائم الطويلة، كثيفة الشعر وقوية. ورغم أن القائمتين الأماميتين كانتا ذاتي وترات أيضاً، إلا أن الأصابع تتمتع بقدرة الإمساك بالأشياء. بدا لون اللحم أزرق مائلاً للرمادي. انبعثت رائحة مقززة من الأمعاء المكشوفة، فابتعدوا مسرعين، بعد أن توقفوا للحظة. تناهت إلى أسماعهم أصوات خشخشة صادرة من عيدان القصب حولهم، فأدركوا أن هناك من يتبعهم.

رأوا، بعد ربع ساعة، الروابي، فيما وراء المستنقعات. قلّت كثافة القصب على الجانبين، فتمكّنوا من الرؤية لمسافة تصل إلى عشرة أمتار. ورغم أنهم ظلوا يسمعون أصوات أجسام متحركة، فإنهم لم يلمحوا أية كائنات.

لم يعد ضرورياً الآن استخدام الحاصد، لتمهيد طريق، وسط المستنقعات، فقد أضحت عيدان القصب متباعدة، ولم يواجهوا أية عقبات. لكن الأرض تحت أقدامهم باتت أكثر لزوجة. وفقد نيال حذاءه، واضطر إلى انتشاله من الطين الأسود اللزج، الذي نشر في الجو الرائحة العطنة المألوفة. تعودوا على هذه الرائحة، وتوقفوا في إحدى المرات لتأمل الطين.

صرخ مانيثو، حين بدت الأرض الصلبة على مرمى البصر، وأخذ يغوص في الطين، واختفى نصف جسمه الأسفل، حتى خصره. أمسك نيال ودوجنز بيديه، وراحا يشدانه. وفي تلك اللحظة، صاح مانيثو: «انتبها!» فالتفتا ليجدا قطيعاً من الكائنات، التي تشبه الضفادع، تندفع بسرعة من وسط القصب باتجاههما. ترك نيال ودوجنز يدي مانيثو، فغاص، في الحال، في المياه الطينية، وخطفا سلاحيهما من على الأرض. كان دوجنز أول من أطلق النار، فشق اللهب الأزرق طريقاً بين الأجسام المهرولة، وأشعل النار في عيدان القصب، خلفها. مع ذلك فقد واصلت بقية الكائنات عدوها، باتجاههما. أطلق نيال النار، وقد صوب الحاصد إلى قوائمها، وهو يحرك يديه ببطء متعمد؛ فقد شعر بالاشمئزاز من حركة انشطار أجسامها، كما لو أنه يلحم منجلاً، لكنه لم يجد أية طريقة أخرى. بدا الأمر كما لو أن الكائنات لا تشعر بأي خوف، كأنها فقدت أي إحساس بالرغبة في البقاء، ليصبح هدفها

الوحيد هو القضاء على هؤلاء الدخلاء، وليتحول موت بقية الكائنات المرافقة إلى مسألة تافهة.

ثم توقف الزحف نحوهما، وتغطت الأرض بأجسام الكائنات، وقد بترت قوائم معظمها، التي ظلت تتلوى، بينما تحولت مجموعة أخرى منها إلى مجرد بقايا متفحمة؛ فقد استخدم دوجنز حاصده، وهو على درجة طاقة مرتفعة. عبقت رائحة اللحم المحترق الجو، فخفض نيال حاصده، وهو يشعر بالغيثان. استمر دوجنز في إطلاق النار، حتى لم تعد هناك أية حركة. أزت ماسورة الحاصد الساخنة، عندما أعاده دوجنز إلى مكانه فوق الأرض المبتلة.

غاص مانيثو في الأرض إلى أن وصل الطين إلى صدره، وكلما ازداد تخبطه، غاص جسمه. ولما حاول نيال ودوجنز سحبه للخارج، انزلقت أقدامهما فوق الأرض الطينية. أخرج نيال، في نهاية الأمر، حبلاً من صرته، وقاما بربطه تحت إبطي مانيثو، ثم تقهقرا، حتى عثرا على أرض صلبة، وبذلا كل ما لديهما من قوة، وساعدهما مانيثو بالتشبث بالأرض. خرج جسمه فجأة من المستنقع، بينما سقط نيال ودوجنز على ظهريهما.

جلسا في مكانهما لمدة عشر دقائق، لالتقاط الأنفاس، بينما حاول مانيثو تنظيف نفسه من الطين، مستعيناً بحزمة من الأعشاب. هبطت الشمس فوق قمم التلال الغربية، فأدركوا أن الظلام سيحل بعد أقل من ساعتين. لكنهم رأوا من مكانهم أن النقطة، التي تنتهي عندها المستنقعات، وتبدأ بعدها الأرض الصلبة، تبعد بضع مئات من الأمتار فقط.

وقف نيال، وحمل كيسه فوق ظهره، كما نهض الآخران بتثاقل. نظر مانيثو خلفه إلى البقايا المتفحمة، وقال:

- لندع الله ألا نراها مرة أخرى.

قال دوجنز: آمين.

تقدموا ببطء وحذر، وسط برك المياه الراكدة، التي غطتها النباتات، وغُثاء مادة خضراء تشبه العوالق. كان عليهم، ليصلوا إلى الأرض الصلبة، أن يسيروا في طريق متعرج بينها. نظر مانيثو، الذي تقدمهما، من فوق كتفه، وقال:

- أتعرفان ما الذي أريده حقاً؟

- لا.

- حمّام ساخن.

ضحك دوجنز، وأشار إلى سطح البركة المغطى بالنباتات، وقال: أتصلح هذه البركة لحمامك؟

انشق السطح الأخضر، وهو يتحدث، وحدق وجهٌ يشبه الضفدع فيهم. رآه مانيثو وقطب جبينه. ثم انفتح الفم، قبل أن يتمكن نيال من تحذيرهما، وقذف بسم أخضر اللون، ليصيب وجه مانيثو، الذي صرخ، وترنح متقهقراً. صاح دوجنز غاضباً، ورفع حاصده، وأطلق النار، لكنه أخطأه. فأحاطت بهم، فجأة، سحابة كثيفة من البخار الساخن. جثا نيال على ركبتيه، وغطى وجهه بيديه، لكن البخار شق طريقه إلى عينيه وأنفه. أحس، للحظة، باليأس التام، ثم تراجع البخار، فتمكن من الرؤية مرة أخرى. كادت البركة، التي كان يحدق فيها منذ بضع ثوانٍ، أن تختفي لتحل مكانها حفرة من الطين الأسود، المغطى بالنباتات، والعوالق الخضراء. وراحت المياه تتدفق من بركة مجاورة. أما الكائن الذي يشبه الضفدع، فقد تمدد في الطين، ووجهه إلى أعلى، وقد باعد ما بين قائمتيه، وانتفخ جسمه، وبات أبيض اللون، وتدلى اللحم من أحد قائمتيه، ليكشف عن العظم، فقد اكتوى جسمه بالبخار الساخن.

راح مانيثو يصرخ ويولول، ضاغطاً وجهه على الأرض المبللة. ألقى دوجنز ونيال بكيسيهما، وأخرجا قطعة قماش إضافية، ونقعاها في الماء. أدرك نيال مدى المعاناة التي يشعر بها، خاصة وأن وجهه ما يزال يؤلمه، وتشققت بشرة خديه، وامتلأت بالبثور. أخذ مانيثو يئن، ويحاولان الإمساك به، ووضع قطعة القماش المنقوعة فوق عينيه، ثم جلس، وأخذ يهتز للخلف والأمام في ألم، بينما نظر نيال ودوجنز إليه بأسى.

شعر مانيثو في النهاية، بقدر من الراحة، بعد أن تمدد، ووضع جبهته، وعينيه في مياه يئن، وهما يحاولان الإمساك به، ووضع قطعة القماش المنقوعة فوق عينيه، ثم جلس، وأخذ يهتز للخلف والأمام في ألم، بينما نظر نيال ودوجنز إليه بأسى.

ـ لقد أُصبت بالعمى! لا أستطيع رؤية شيء.

انهار على أطرافه الأربعة، فوق الأرض، وهو يبكي. نظر نيال إليه، وقد أحس بالبؤس، وتمنى أن يكون الألم، الذي يعاني هو منه أعظم، حتى لا يشعر بالحزن، والشفقة عليه.

وضع دوجنز ذراعه بحنو حول كتفي مانيثو، وقال: أعرف أن عينيك تؤلمانك، ولكن علينا أن نواصل السير، وإلا فإننا سنموت هنا.

بذل مانيثو جهداً للسيطرة على نفسه، وقال: عليك أن تقودني!

ـ نعم سوف نقودك.

نهض مانيثو، وقال: أي طريق سنسلك؟

نظر دوجنز إلى نيال، وقال: سنعود أدراجنا.

- وسط المستنقعات؟

- إنها الطريق الوحيد. علينا أن نعيده إلى سيميون، فليس هناك ما يدعو لاستمراره معنا، وهو لا يستطيع أن يرى شيئاً.

أدرك نيال أنه على صواب، فتطلع خلفه نحو الشمس، وقال:

- يجب علينا أن نسرع الخطى.

أخذت أسنان مانيثو تصطك، فقال ببؤس: آسف.

رد دوجنز بحنو: ليس هناك ما يدعو للأسف. هل بوسعك العودة إلى المخيم؟

- نعم. لكنني لا أستطيع أن أرى.

- سوف تكون على ما يرام. وسوف نأخذ بيدك، ولكن يتعين علينا أن نتحرك الآن.

وضعا حاصد مانيثو فوق الكيس، الذي يحمله على ظهره، وأشفقا عليه من هذا الحمل الثقيل، ولكن لم يكن هناك أي حلّ عملي آخر، وإذا حمله أحدهما، سينخفض معدل السير إلى النصف.

دُهش نيال، وهم عائدون وسط عيدان القصب، حين شعر أن تعبه قد تلاشى. فقد جددت الأزمة قوته، وساعدته على السحب من احتياطي طاقته الكامنة. تركز اهتمامه الوحيد في العودة إلى مكان المخيم، قبل هبوط الظلام. أمسكا بيدي مانيثو، وأخذا يسرعان الخطى. أدرك مانيثو، هو الآخر، أن حياتهم تتوقف على السرعة، فلم يجأر بالشكوى، حين تعثر، وسقط على ركبتيه. راح يسأل بين فترة وأخرى: هل حل الظلام؟ فيجيبانه: لا. ليس بعد. كان نيال قد اقتنع، بينه وبين نفسه، عندما انطلقوا في رحلة العودة، بأن الظلام سوف يلفهم قبل وصولهم إلى المخيم، بفترة طويلة، لكن معدل تقدمهم شجعه، فعاوده الأمل مرة أخرى.

ولما وصلوا إلى الزاوية، التي لمحوا منها للمرة الأولى أحد الضفادع، التي تشبه البشر، عرف أنهم قطعوا أكثر من نصف المسافة، فراح قلبه يخفق فجأة. وصلوا بعد عشرين دقيقة إلى طريقهم الأصلي. غابت الشمس وراء الأفق الغربي، لكن السماء ظلت بلون الغسق. ثم خرجوا، فجأة من وسط القصب، ورأى نيال ضوءاً، من بين الأشجار، أمامه مباشرة. راح هو ودوجنز يصيحان معاً: سيميون! ميلو! علت وجه مانيثو المتورم ابتسامة. وصلوا، بعد خمس دقائق، إلى المنطقة المقطوعة الأشجار، التي أضاءتها نار المخيم، بينما راح سيميون

يساعدهما في نقل مانيثو. رفع ميلو، الذي كان يتمدد بجوار النار، وقد لف نفسه ببطانية، جسمه، وهو يتألم مستنداً إلى كوعه، وقال:

ـ هل عدتم بهذه السرعة؟ هل وفقتم في الرحلة؟

ألقى نيال بنفسه على الأرض مباعداً ما بين ساقيه، وأغمض عينيه. شعر بالبهجة والاسترخاء لبضع دقائق، كما أحس بالأمان الكامل، الذي كان دائماً ما يشعر به وهو صبي بين ذراعي أمه. لم يعد يهمه أن الأخطار ما تزال تحيق بهم، وأنهم قد لا يستطيعون الهرب مطلقاً من هذا المكان المرعب. لكنهم الآن في أمان، ولذلك فقد استرخى، كما لو كان رجلاً مجهداً وجد أمامه فراشاً من الريش.

فيما راح دوجنز يروي ما حدث لهم، وضع سيميون أوراق شجيرة السوفا في الماء ليغليها، ثم غسل بها عيني مانيثو، الذي أخذ يئن من الألم، والسائل يتحدر فوق عينيه. لكنه تنهد بعمق، بعد لحظات، وابتسم بارتياح. ثم صنع سيميون كمادات من أوراق السوفا، وأخذ يضعها فوق جفونه. تأكدوا، بعد بضع دقائق، من انتظام تنفسه وهدوئه، أنه راح في نوم عميق.

سأله دوجنز بهدوء: أتعتقد أنه سيرى مرة أخرى؟

ـ لا أدري. لو أنه يشبه سم الأفعى الباصقة، فإنه لن يؤدي إلى العمى، بشرط أن يُنظف في الحال.

نظر دوجنز بشفقة إلى وجه مانيثو المتورم، وقال: أرجو أن يكون بخير.

بدأت النجوم تلمع وسط السماء المظلمة، وهب نسيم عليل على الوادي، من جهة البحر، ورغم أن الأشجار تحميهم، إلا أن الهواء راح يتنهد ويئن وسط فروع الأشجار.

سأل نيال سيميون: لماذا لا توجد فراشات؟

ـ لأن هذا المكان يشكل خطراً بالغاً عليها، إنها تفضل التلال المرتفعة، حيث لا تلتهمها النباتات.

ـ هل تنام النباتات أثناء الليل؟

ـ من المرجح ذلك. ألم تلحظ أن الأعشاب قد توقفت عن الحركة؟

ـ كلا، لم ألحظ شيئاً.

نزع نيال حزمة من الأعشاب السميكة، وقربها من النار، فرأى أن القوائم البيضاء

الصغيرة ساكنة لا تتحرك. وعندما ألقى بها مرة أخرى على الأرض، لم تبذل أية محاولة لغرس نفسها في التربة.

ـ إذن فالدلتا أكثر أماناً أثناء الليل؟

ـ هي كذلك، ما لم توجد حيوانات.

قال دوجنز، وهو يتثاءب: من الأفضل أن نتناوب الحراسة.

ـ أعتقد ذلك. وقد تعودت البقاء مستيقظاً طوال الليل، ولذلك فسوف أتولى نوبة الحراسة الأولى.

تناولوا ما تبقى من لحم سرطان البحر، مع الفطائر المجففة، لكن نيال أحس بتعب شديد، أنساه جوعه. فلم يأكل سوى القليل، ثم دفع صحنه جانباً، واستلقى على أن يكمل طعامه بعد أن يستريح، لكنه راح في نوم عميق، في غضون لحظات.

شعر كأنه لم ينم سوى بضع ثوانٍ، عندما هزه دوجنز، فقال وهو نائم: سوف أكمله بعد قليل.

ولكن حين فتح عينيه، رأى النار وقد تحولت إلى كومة من الرماد الأبيض، والجذوات الحمراء، وأن سيميون وميلو نائمان.

همس دوجنز: لقد حان وقت نوبتك.

ـ ما الوقت الآن؟

ـ حوالي الثانية قبل الفجر.

تثاءب، وجلس وهو يرتعش. كانت الريح الباردة ما تزال تعوي وسط الأشجار.

أشار دوجنز إلى الظلام، وقال: ثمة شيء يتحرك هناك. ولكني لا أظن أنه سيجرؤ على الاقتراب.

ألقى بفرع جاف آخر في النار، وكان سيميون قد جمع كومة من الفروع، واستخدم الحاصد ليقطعها قطعاً صغيرة، وفي لحظات بدأ اللهب يتصاعد.

قال دوجنز: سأذهب لأنام.

ولف نفسه ببطانية، واستلقى بجانب النار، وفي أقل من خمس دقائق كان يشخر بهدوء.

حدق نيال بقلق في الظلام. لم يتمكن من سماع شيء، نتيجة لعصف الرياح، لكن تراءى له أنه لمح بريق عينين وسط الأشجار. رفع الحاصد، ثم تراجع، فلو كان حيواناً

ضخماً، فإن خواره سوف يوقظ الآخرين. ألقى بفرع آخر في النار، ولف نفسه في بطانيته، وجلس، وظهره لجذع شجرة الأرجوان، ووضع الحاصد بين ركبتيه.

تنبهت حواسه، بعد أن شعر أنه مُراقب. مد يده داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل نحو صدره، فزاد في الحال تركيزه، لكنه أدرك أنه قد يتعرض لهجوم من الخلف، إذا ما ظل جالساً، وظهره لجذع الشجرة. حاول استخدام ذهنه لمسح المكان المظلم المحيط به، ولاكتشاف مكان الخطر الكامن، إلا أن التركيز، الذي أحدثته مرآة التأمل، جعل ذلك مستحيلاً. مد يده، على مضض، داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل مرة أخرى. من خلال تحفيز نقطة الضوء المتوهجة داخل جمجمته، خلق حالة من السكون الداخلي، امتد فيه إدراكه إلى الظلام، مثل نسيج عنكبوتي. أدرك فجأة طبيعة الحيوان الذي يراقبهم من وسط الظلام. بدا أنه ليس من الزواحف أو الحيوانات، ولكنه خليط من الاثنين معاً، ورغم صغر حجمه، إلا أنه في غاية القوة، وبمقدوره الانقضاض عليه في وثبة واحدة. وقد اجتذبته رائحتهم، التي أثارت فيه حالة من الجوع الشديد. لكن الحيوان شعر أيضاً بأن هذه الكائنات الغريبة، التي أثارت شهيته، أكثر خطورة مما تبدو، وأنه من الغباء الاستسلام لجوعه، وشن هجوم عليها.

لم يشعر نيال بأي قلق أو إحساس بالخطر، لأنه كان مستوعباً لاحتياجات ورغبات الكائن، ومتعاطفاً معه، بعد أن شعر كما لو أن هويتهما قد امتزجتا معاً.

كان من الصعب عليه أن يدرك إذا ما كان يستند بظهره إلى جزع شجرة، أم يجثم وراء شجيرة، واضعاً يديه اللتين تشبهان المخلبين على الأرض أمامه. انتابه في الوقت ذاته إحساس غريب بالاختناق والشفقة. فهذ الحيوان محاصر داخل مصيدة رغباته وغرائزه، كأنه حبيس في زنزانة، وتخيّله كآلة قاتلة.

ضاق نيال ذرعاً بدوره كمجرد مُراقِب، وأراد أن يعرف مدى قدرته على التأثير على الحيوان. لكن حالته الذهنية بدت سالبة تماماً، كما لو أنه مجرد عنكبوت في قلب نسيجه. مد يده داخل قميصه ببطء، وهو يحاول الإبقاء على حالته الذهنية السالبة، التي اضطربت بمجرد أن لمس بأصابعه مرآة التأمل. لكن الجهد، الذي بذله للتركيز، أعاد حالته إلى وضعها الأول. ثم قلبها، بصبر وأناة، حتى أصبح الجانب المقعر في مواجهة صدره. حدث صراع، للحظة، عندما هدد تزايد الحيوية، التي أثارتها المرآة، بتمزيق نسيج العنكبوت، وتصفية إدراكه الذهني.

استرخى، مرة أخرى، واستخدم تنفسه للسيطرة على التوتر، الذي بدأ يعتريه. ثم تعدل الموقفان، على حين غرة، ولم تعد قوة مرآة التأمل تهدد بتمزيق نسيج العنكبوت.

أدهشته نتيجة هذا التعديل كثيراً، ففقد اهتمامه بالكائن المتواري وسط الظلام، بعد أن أصبح يشكل جزءاً من مداركه. لكنه ذهل من إمكانية تحقيق التوازن التام لهذين الجانبين من كيانه، وهما قوة الإرادة، وإدراكه الذهني. وأنه بإمكان قوة الإرادة السيطرة على الإدراك الذهني، دون أن تدمره. لقد كان يؤمن، دون أن يطرح المسألة على نفسه، أو يفكر فيها، وكأنها أمر مسلم به، بأن الجانبين ضدان تماماً لا يمكن أن يلتقيا؛ فالإدراك الذهني لفهم العالم، وقوة الإرادة للسيطرة عليه. أما الآن فقد أدرك وهو في هذه الحالة من التآلف بين الجانبين، أنه كان مخطئاً، فالإدراك الذهني ما هو سوى وسيلة للتغلغل إلى عالمه الداخلي.

كان إحساساً مثيراً. فقد شعر كما لو أنه يقف فوق عتبة مملكته الداخلية، ينظر من علٍ إليها، مثلما كان ينظر إلى أرض ديرا من قمة القلعة فوق الهضبة. بدت كل حياته الماضية ماثلة أمامه، بالقدر ذاته من الواقعية، التي يشعر بها في الوقت الحالي. ولو أنه رفع ناظريه، لأصبح مدركاً لآفاق أبعد كثيراً من هذا، لحيوات وراء الحياة الحالية، ولحيوات كل الكائنات البشرية الأخرى. كان هذا يماثل الإحساس ذاته، الذي انتابه وهو يجلس في الجدول منذ بضع ساعات، لكنه ارتفع ليصل إلى درجة أرقى من الواقع.

لقد توصل الآن للإجابة عن السؤال، الذي أزعجه منذ أن وصل إلى الدلتا، وهو لماذا دأب الإنسان دائماً على الشعور بالاستياء من حياته؟ أصبحت الإجابة واضحة، وهي: لأن كل إنسان يحتضن داخل نفسه الطاقة التي تسمو على الحاضر، وتهيمن على كيانه الداخلي. كان الإنسان معداً لأن يكون سيد هذه المملكة الذهنية، وليس منفياً، يائساً، محاصراً في الحاضر، دائم التغير. ولأن كل البشر وُلدوا بهذه المعرفة الغريزية، فإن أحداً لم يشعر بالرضا تجاه اللحظة الراهنة، مهما تمكنت من تلبية رغباته.

أثار هذا الإدراك إحساساً بالحزن العميق، بدأ يشعر بالشفقة على الكائن الجاثم خلف الشجيرة، الذي ينتظر اللحظة التي يثب فيها عليهم، ويمزقهم إرباً. فهذا الكائن لا يمتلك مملكة ذهنية، وهو سجين العالم المادي، مثل السجين وراء القضبان. وهذا هو السبب الذي يجعل الدلتا مكاناً مليئاً بأعمال العنف والوحشية، وبإحباط السجناء الذين يتضورون جوعاً.

لقد كانت الحياة على الأرض، بطبيعة الحال، تماثل الحياة في الدلتا. فإذا ما تركت الكائنات الحية لحالها، فسوف تركن للراحة، والاسترخاء، تحت الشمس، في الطين. لقد تعلمت القوة الكامنة وراء التطور، حيلة دفعتهم بها إلى البؤس والموت جوعاً. ومع ذلك فقد سُمح للإنسان، على الأقل، بالتطور ببطء على مدار ملايين السنين، وهذا المعدل كان سريعاً للغاية في حد ذاته. لكن كائنات الدلتا أُضطرت للتطور بسرعة تفوق ذلك مائة مرة. وهذا

هو السبب الذي يجعل الحياة في الدلتا تصبح بمثابة دعابة مرعبة مثيرة للغثيان. وتماثل بوتقة الانصهار التطورية هذه حلماً سادياً، فقد أجبرت هذه الكائنات على التطور لمجرد أن تتمكن من القضاء على بعضها البعض، مثل العناكب، التي تطورت كي تتمكن من القضاء على الكائنات البشرية...

أخرجه طنين بعوضة من حالة التأمل، التي استغرقته، فراح يهشها بطريقة تلقائية. أدرك مندهشاً أن الفجر قد انبلج، وأن النار قد تحولت منذ فترة طويلة إلى كومة من الرماد الأبيض.

رأى على بعد مائة قدم خطوط الشجيرة، التي ما يزال الحيوان الجائع رابضاً خلفها. كانت ذبذبات جوعه مثل صرخة بؤس. أحس أن القضاء عليه سيريحه من هذا الألم... ولكنه أدرك، رغم أنه رفع حاصده، استحالة ذلك، وصوب النار، بدلاً من ذلك، إلى الشجرة خلف الشجيرة، وشطر فرعاً مائلاً. حدثت حركة عنيفة، ثم اختفى الكائن، بوثبة واحدة، بين الأشجار. لمح نيال ظهراً أخضر محرشفاً، وقوائم طويلة، كقدم ضفدع ضخم.

استغرق الآخرون في النوم، فالتقط نيال فرعاً جافاً، وقلب النار حتى ظهرت الجمرات الحمراء، فاشتعلت من جديد. ظل انفعاله متوهجاً بداخله، لكن الرؤى اختفت، ليعود إلى اللحظة الراهنة. بات كل ما تبقى مجرد ذكرى مختلطة لتلك الهيمنة، التي لمحها من أبراج قلعته الداخلية. وعندما شعر بتدفق القوة الكامنة تحت الأرض، التي نفخت الحياة في الدلتا، انتابه إحساس مزعج، هو مزيج من الغضب والانفعال؛ الغضب من القوة، التي أحدثت هذه الدعابة الكئيبة، والانفعال من قوة ذهنه، التي رأت ما هو أبعد من أغراضها القصيرة النظر.

- ٦ -

ازداد تـورم وجه مـانيثو، حتى كـاد لا يتعرف عليـه أحد، وبـدا كأنـه تعـرض لضرب وحشي. ولكن عندما باعد بأصابعه بين كريـات اللحم المنتفخة، التي أخفت عينيـه وقال إنـه تمكن من رؤية ضوء النهار، رفع من معنوياتهم، فقد كان التفكـير في إصابتـه بالعمى الـدائم يثير رعبهم، بشكل أكبر من التفكير في الموت.

لكن ميلو ظل يعاني من حالة ضعف عامة، وقال إن ساقيه متخدرتـان، وحينها حـاول النهوض، سقط في الحال. ازرقت قدماه وساقاه، ولما فحصها سيميون، بدت عليه علامـات القلق. لكنه قرر أن يجرب علاجاً تعلمه من جدته، وهـو غلي أوراق الشجـرة الـتي تسببت في الإصابة، واستخدامها مثل الكمادات.

لم يكن هناك متسع من الوقت أمام نيال ودوجنز للانتظار لمعرفة النتيجة، فأمـامهما يـوم طويل، وأي تأخير قد يعرضهما للخطر. انطلقا مرة أخرى تجاه التل الغريب، الذي بـدا مثل رأس عملاق، وذلك بعد أن تناولا إفـطاراً خفيفاً، من اللحم المجفف، والفـطائر، وشراب من الأعشاب، المحلاة بالعسل.

رافقهمـا سيميون حتى حافة الغابة، وكانت الشمس قد ارتفعت فوق قمة التل خلفهما، بينما لف ضباب فضي رقيق حوض الدلتا الأوسط.

قال سيميون: لقد كنت أفضل الذهاب معكما، لكن هذا مستحيل. لذلـك اسمحا لي أن أسدي لكما نصيحة، كي أشعر بالراحـة. أعرف أن هنـاك الكثير من المخـاطر في الـدلتا، لكن الخطر الأعظم يكمن في ذهنيكما. تقضي الدلتا عادة على أولئك الـذين لديهم استـعـداد للانهيار، وتضطر لتجاهل أولئك الذين يرفضون أن يكونوا ضحايا لها. عليكـما أن تدركـا أن ضمانتكما الأساسية للبقاء على قيد الحياة هي التصميم، فتحليا بالشجاعة، ولكن بدون تهور، وليحفظكما الله برعايته.

تصافحوا، وضغط سيميون بشدة عـلى يد نيـال، الذي أدرك، دون أن يحـاول سبر غـور

ذهنه، أن الرجل العجوز يشعر بأنه لن يراهما مرة أخرى. وقف سيميون وظل يتابعهما بعينيه، حتى اختفيا بين عيدان القصب.

كانا قد قررا، قبل الرحيل، أن يسيرا في الطريق، الذي سلكاه من قبل، حتى يصلا إلى حافة المستنقعات الغربية. ولكن الشيء الذي لم يتوقعاه، أن يجدا الطريق وقد طُمست معالمه. ونمت عيدان قصب جديدة مكان النباتات التي قطعاها بأسلحتهما الحاصدة، ووصل طولها لأكثر من قدم. تمكنا من شق طريقهما، وسط القصب الجديد، دون أية صعوبة. كما اكتشفا أن معظم النباتات، التي سحقها الكائن، الذي يشبه وجهه الضفدع، نمت من جديد، لكنها كانت أقل كثافة، فانهارت حينما تعرضت لأشعة الحاصد. أدى شعورهما بالنشاط، بعد أن استراحا خلال الليل، إلى تقدمهما بترو، فكانا يتوقفان، من حين لآخر، للإصغاء لأي صوت يشير إلى وجود من يتبعهما، ولكنهما لم يسمعا شيئاً سوى عصف الرياح بين عيدان القصب الطويلة.

استغرقا أكثر من ساعتين، حتى وصلا إلى المكان الذي سد فيه الكائن الطريق عليهما. كانت الدلالة الوحيدة على وجوده بقعة حمراء في مياه البركة، حيث التهم ضحيته. كشف طريق مؤلف من عيدان القصب المهشمة، عند أقصى طرف هذه البركة، أن الكائن قد واصل السير باتجاه حافة المستنقعات. لم يضيعا وقتاً في محاولة السير حول البركة، ولكنهما استدارا، وسارا في طريقهما السابق صوب المكان الذي هاجمهما فيه الكائن.

أصيبا بالدهشة، عندما اكتشفا عدم وجود أية دلالة تشير إلى صراعهما مع الكائنات، حيث توقّعا رؤية أكوام من بقاياها المتفحِّمة. لم يتبقَّ أي شيء، بل لم يجدا أي أثر للأعشاب، التي أحرقتها أشعة الأسلحة الحاصدة، ولم يكن أمامهما سوى العشب الأخضر الجديد، الذي نما في التربة الطينية.

قطب دوجنز، وقال: معنى ذلك أن من المرجح وجود المزيد من الضفادع حولنا، ولا بد أنها سحبت الجثث بعيداً.

لكن نيال راح يحدق، وقد انتابته الحيرة، في حفرة دقيقة الاستدارة، في الطين عند قدميه. وما أثار فضوله هو أنها أخذت تمتلىء ببطء بالماء. سحب مديته، وغرسها في الأرض المبللة، وحركها بشكل دائري ليرفع شريحة من الطين مخروطية الشكل، فانتزعها بعشبها. ارتد للخلف مذعوراً مما رآه. كان النصل قد شطر دودة بيضاء ضخمة، يصل قطرها إلى نحو بوصة. راح أحد نصفيها يحفر نفقاً في الطين، ثم اختفى، وهما يتابعانه، بينما تلوى النصف الآخر بيأس، في قاع الحفرة، التي يغمرها الماء ببطء. ثم انزلقت دودة أخرى من

فوق حافة الحفرة. ولمح نيال فمهـا، الذي يشبـه فم سمكة القـرش، وأسنانها المـدببة، التي قضمت بها قطعـة لحم بحجم رأسها. ظهـرت، بعد لحـظات، دودتان أخـريان، شـاركتا في الوليمة، بدا واضحاً أن الأرض، تحت أقـدامهما، تعج بهذه الكـائنات. أحسن نيـال، وهو يراقبها بانبهار واشمئزاز، في الوقت ذاته، بلمسة خفيفـة على كعب قـدمه، فـارتد مـذعوراً، ليرى دودة أخرى قد نتأت من الأرض خلفه، وهي تتلوى كثعبان. شطرها بضربة واحدة من مديته، فأخذ الجسم المقطوع الرأس، يتلوَّى على الأرض، بينما ظهـرت ديدان أخـرى، هاجمت الجسم.

بصق دوجنـز، وقـال: نحمـد الله أننـا لم ننم في المستنقعـات، فهـذه الأشيـاء اللعينـة كالأسماك الضارية.

أدركا، بعد أن اختفت الدودة المقطوعة الرأس، ما حدث لجثث الضفادع.

هرعا باتجاه مكان مرتفع، وأخذا يحدقان بريبة في البـركة، التي يكسـوها الـزبد، والتي هوجم مانيثو عندها، لكنهما لم يلحظا أية حركة فوق سطحها الأخضر. وطئت أقدامهما، بعـد خمس دقائق، فوق أرض صلبة مرة أخرى.

تـوقفا لاستكشـاف المنطقـة المحيطة بهـما. كانـا يقفان فـوق أعشـاب خشنـة، شبيهـة بالسلك، تضارب لونها الأخضر الداكن مع لون المستنقعات الأخضر. بدا المكـان، وكأنـه لا يمت للدلتا بصلة، وكأنما ينتمي لمنطقـة ذات مناخ بـارد. تحولت الأرض أمـامهما، إلى سلسلة من الروابي، برزت من بينهـا الصخور الجـرانيتية، وتـدرجت الأرض، إلى الجنوب، واختفى العشب الأخضر الداكن، ليفسح المجال أمام نباتات خضراء فاتحة، وقد لفها الضباب الفضي الخفيف. وفيما وراءها، تمكنـا من رؤية الفجـوة، التي شكلت حدود الـدلتا الجنـوبية، وسط التلال. أما إلى الشمال، فقد انحدرت الأرض بتدرج نحو البحر، وحلت التربة الطينية محـل العشب الأخضر الـداكن. وشاهـدا، في البعيد، انعكـاس أشعة الشمس فـوق صفحة ميـاه البحـر. بدا أنهما يقفـان فوق مـا يشبه جـزيرة من الأرض الصخـرية الصلبـة، وسط حوض الدلتا.

تلفت دوجنز حوله بريبة، وقد شهر حاصـده، وقال: لا أستـطيع الاقتنـاع بأن المكـان آمن، كما يبدو، لا بد أن هناك شركاً في مكان ما.

تطلع إلى السلسلة الصخرية، التي تبعد نحـو نصف ميل، وقـال: أريد أن أعـرف ما يوجد على الجانب الآخر من هذه السلسلة.

قـال نيال: الـدلتا تـزداد خطورة، كـما يقول سيميـون، كلما اقترينـا من المركـز.

دمدم دوجنز قائلاً: وأنى له أن يعرف؟ إنه لم يأت إلى المركز قط.

انحنى نيال، وحاول خلع بعض العشب، الذي بدا صلباً على غير المتوقع، فاضطر لتحريك نصل المدية يميناً ويساراً، حتى يتمكن من نزعه. أحس بوخز في أصابعه يماثل الوخز الخفيف، الذي يشعر به عندما يقبض على القضيب المتداخل، لكنه أقوى.

سأله دوجنز: ما الأمر؟

ـ حاول أن تنتزع بالمدية بعض العشب.

انحنى دوجنز، وقبض على العشبة بقوة بين إبهامه وسبابته، وغرس المدية، لكنه تركها في الحال، وأخذ يحدق بدهشة في أصابعه.

ـ لقد أصابني هذا الشيء اللعين بالصدمة.

انحنى نيال، ووضع يده، وراحتها لأسفل، فوق العشب. وأدرك أنه قد ارتكب خطأ، حينما فعل ذلك، فقد كانت الصدمة قوية، فرفع يده وهو يصرخ من الألم. تبادلا النظرات، فسأله نيال: ماذا يعني ذلك؟

ـ صدمة كهربائية.

ـ إذن لماذا لم تصل إلى أقدامنا؟

ـ لأنك تنتعل حذاء مصنوعاً من المطاط.

نظر نيال إلى الأعشاب، وقد علت وجهه علامات الحيرة.

ـ إذن لماذا لم أشعر بها حينما لمست العشب للمرة الأولى؟

ـ ربما لأنك لم تحاول نزعه عندئذ.

تقدم نيال بضع خطوات حذرة، وقال: أتظن أن السير فوقه سيكون آمناً؟

ـ نعم، طالما ننتعل أحذيتنا المطاطية.

لكن نيال راح يطأ فوق العشب بحذر، وهما يتقدمان نحو السلسلة الصخرية، وهو لا يصدق أن حذاءه يمكن أن يضمن له السلامة.

ـ لماذا ينفث العشب هذه الصدمات الكهربائية؟

ـ للدفاع عن نفسه، على ما أظن.

مرا بعد مائة متر بجيفة طائر متعفنة، فخمن نيال أنه نسر. كان مخلباه منقبضين من حالة ألم شديد على ما يبدو، بينما دل منقاره المفتوح، على أنه كان يصيح.

ـ ولكن ما السبب الذي يدعو إلى قتل طائر؟ فالطيور لا تقتات على العشب.

ـ ولكن جيفها تخصب التربة.

نظر نيال إلى العشب، الـذي يشبه السلك بـاشمئزاز، وقـال: ليس جذّابـاً مثل العشب العادي.

ـ ذلك هو الثمن الذي يدفعه مقابل الدفاع عن النفس.

أخـذا يصعـدان بـاتجـاه قمـة سلسلة الصخـور الهـائلة، التي يمكن لحيـوان أن يختفي وراءها، فتقدما بحذر شـاهرين حـاصديهـما. ولكن عندمـا وصلا إليهـا، وجداهـا منبسطة، فتأكدا أن حذرهما لم يعد له ضرورة. انحدرت الأرض الخلاء أمامهما لمسافة ميل تقريباً، قبل أن تكسوها أشجار غنية بألوانها. وبعـدها تمكنـا من رؤية أقـرب نهرين، تدفقت ميـاههما من طرف الدلتا الجنوبي، في مجرى متعرج في وسط الأحـراش والمستنقعات. ارتفـع التل أمـامهما مباشرة عند الجانب الآخر من المجرى، ببروزه، الـذي يماثـل البرج. لم يكن يبعـد الآن أكثر من ثلاثة أميال، ولم يعد شبيهاً بالرأس، كما وضح أن البروز ليس برجاً، بل تراءى لهما، من هذا البعد، كأنه امتداد للنباتات فوق التل، أو بقايا شجرة هائلة.

قال دوجنز متأملاً: إنها تبدو كما لون أن صاعقة قد أصابتها.

تمكنا في هذا الموقع الممتـاز، من رؤية نقـطة التقاء النهـرين عند سفـح التل من الجهـة الشـمالية. بـدا واضحاً أن ميـاه النهرين، عنـد جانب التـل البعيـد، أسرع وأقـوى من ميـاه المجـرى، الذي تمكنـا من رؤيتـه. واتحـد النهـران، فيـما وراء نقـطة الالتقـاء، ليشكـلا نهراً عريضاً، تتدفق مياهه بقوة.

أخـــرج دوجنـز من جيبـــه منـديـــلاً، ومســـح جبينـــه، وتنفّس بعمق وقـــال: أشعـــر بالاختناق، لا بد أن درجة الحـرارة تبلغ مائـة وعشر درجات. انتـاب نيال الإحسـاس ذاته، رغم أنهما كانا واقفـين تحت ظلال صخـرة جرانيتيـة بارزة. أدهشـه التغير المفـاجىء في درجة الحرارة، فعلى جانب المنحدر البعيد كان الجو دافئاً، ولكنه لم يكن حاراً بهذا الشكل. اعـترته ريبـة مفاجئـة، فمد يـده إلى داخل ردائـه، وقلب مرآة التـأمل، فتحـولت حالـة التركيـز إلى إحساس بالراحة، ولم يعد الحر خانقاً.

ـ هل عدلت مرآتك؟

قال دوجنز: بالطبع.

ـ اقلبها!

انصاع دوجنز لما طلبه منه نيال، ثم نظر إليه بدهشة.

ـ ماذا حدث؟

قال نيال: إنه ليس الحر، ولكنها القوة الجوفية.

ـ لا أفهم. كيف تجعلك تشعر بالحر؟

ـ بتخفيض درجة مقاومتك. فبمجرد أن تشعر بالاختناق، ستجد نفسك تعتقد تلقائياً أن الجو حار.

ـ أتظن أنها تدرك وجودنا؟

ـ لا أدري.

أثار هذا السؤال اضطراب نيال. فالقوة تبدو هوجاء مثل الريح، ومع ذلك فإنها تتصرف أحياناً بذكاء، كما حدث عندما قاومت سيطرتها على الحيوانات الفطرية. انقبض قلبه وهو يفكر في احتمال ادراكها لوجودهما.

قال دوجنز: أريد أن أجلس لأستريح، لكنني لا أعتقد أن بإمكاننا المخاطرة بذلك، فقد نصاب بصدمة كهربائية، وبالتالي علينا أن نواصل السير.

هبطا التل، ولم يعد الهواء يخنقهما، مع ذلك فقد شعرا بكآبة الجو حولهما، وأن الشمس نفسها تخفق، مثل قلب نابض.

قال دوجنز: ما هذا؟

برز جلمود جرانيتي في الأرض، على يسارهما، وشاهدا تحته فجوة، ولمع شيء ما أبيض اللون، وسط العشب الأخضر المشوب بالزرقة، في أعماق الفجوة.

قال نيال: عظام.

اقترب دوجنز منها، وقال: يا إلهي، لا بد أنها عظام حيوان هائل.

تمكنا من رؤية القفص الصدري الضخم، وجمجمة تشير إلى أنها تنتمي لفأر كبير، وراء الهيكل العظمي، تراصت فقاريات الذيل الطويل القوي، وكأن اللحم قد انسل من العظم.

جفل نيال، حينما لمح وميضاً في الجو، فقد بدا كما لو أن شخصاً قد هز ستارة شفافة أمام عينيه، ليعشي بصره. رفع حاصده، وقد اعتراه شعور مفاجىء بالخطر.

نظر إليه دوجنز بدهشة، وقال: ما الأمر؟

وجد، عندما التفت، وقد احتقن وجهه، أن العظام تتحرك، وكذلك فقاريات الذيل، التي انتفضت من فوق الأرض، واهتزت الضلوع، ثم تحرك الهيكل العظمي برمته، وراح

يأخذ الوضع المنتصب. انفتح فكاه الناتئان، وأصدر صوتاً يثير الصمم، هو خليط من الزئير والصراخ.

أطلق نيال ودوجنز النار معاً. ونظراً لأنهما ضبطا الأسلحة عند أدنى معدل للطاقة، فإن الأشعة الزرقاء الرفيعة كادت تكون غير مرئية، لكنها بمجرد أن أصابت الهيكل العظمي، في منطقة التقاء الصدر بالرقبة، توقف الزئير على نحو مفاجىء، مثلما بدأ. انقلب الكائن باتجاهما من جراء قوة الدفع، فارتد كلاهما، للخلف بصورة غريزية. اصطدم بالأرض بقوة، ولم تقرقع العظام كما توقعا، ولكن ما سمعاه كان ارتطاماً مكتوماً للحم على الأرض الصلبة. أخذت رقبته تنبض من الألم، الذي يسبق الموت، وراحا يحدقان بدهشة في العينين المملوءتين بالكراهية، اللتين التقتا بعيونهما للحظة. كان الاثنان مستعدين لإطلاق النار مرة أخرى، لكن الأمر لم يكن يتطلب ذلك، فقد كادت أشعة الطاقة تبتر رقبة الكائن.

تمدد الآن ساكناً، وبدا واضحاً أن له رقبة، لكن اللحم كان شفافاً مثل الحلوى الهلامية، وتمكنا من رؤية شبكة العروق، التي مزقتها نيران الأسلحة. كما كان الجسم نفسه شفافاً، وتمكنا، خلال القفص الصدري، من رؤية حدود القلب، الذي يبلغ حجمه رأس إنسان.

أخذا يدوران حوله بحذر، وقد جفلا عندما تشنجت قائمتاه. وبعد أن نفق هذا الحيوان الهائل، لم يعد من الممكن معرفة السبب، الذي جعلهما لا يدركان أنه كائن حي، وليس مجرد كومة من العظام.

مد نيال يده، ولمس الذيل، فوجد البشرة صلبة، وباردة، تماثل في ملمسها الجلد. تحول اللحم، الذي يماثل الحلوى الهلامية، إلى اللون البنفسجي الخفيف، وأدركا أن الحيوان ما هو سوى عظاءة عملاقة. وظهر من معدل نمو عضلات قائمتيها الخلفيتين، أنها كانت قادرة على السير منتصبة.

هز دوجنز رأسه في حيرة، وقال: ولكن كيف لم نلحظها؟

بدا السؤال صعب الإجابة. فقد يكون اللحم شبه الشفاف غير مرئي في الماء العكر، أو في الظلام، ولكن ليس تحت أشعة شمس الظهيرة القوية. كان الدم، الذي يسيل من الجرح الغائر في الرقبة، في صفاء الماء، لكنه ظل مرئياً، وقد اكتست المخالب الطويلة الملتوية للأرجل الأمامية بقشرة، من الواضح أنها دم متجلط.

راحا يحدقان في الجثة، ولم يتوصلا إلى إجابة شافية، فمضيا في طريقهما ليهبطا التل. سمعا، بعد أن قطعا نحو مائة متر، تصفيق جناحين. ورأيا طائراً ضخماً ينطلق نحوهما.

رفعا سلاحيهما، ثم خفضاهما من جديد، فقد أبدى الطائر اهتماماً بالحيوان النافق فقط. هبط فوق رأسه، وهاجم عينيه، تزاحمت، في غضون لحظات، طيور أخرى فوق الجيفة، ومزقتها بمخالبها، ومناقيرها.

طرأت لنيال فكرة مفاجئة، فقال: إنها تسترد ما سلبه منها.

ـ تسترد ما سلبه منها؟

ـ ذلك واضح من الطريقة التي يوقع بها ضحيته. إنه يظل قابعاً، مثل كومة من العظام، وحين يلمحه نسر، ويحط فوقه، ليرى ما إذا كان هناك أي لحم متبق فوق العظام، يقبض عليه، ويفترسه.

ـ ولكن كيف يفعل ذلك؟

قدّم حدَس نيال مرة أخرى الإجابة، فقال: تخميني أنه يقوم بالتأثير على العقل. فهو يأمره بألا يراه. وإذا كان باستطاعة عنكبوت أن يأمر ذبابة بالدخول في نسيجه، فماذا يمنع سحلية من إصدار أمر لطائر بعدم رؤية لحمها؟

اقتربا الآن من حافة الغابة، وأدركا أن غنى ألوانها يرجع إلى تعدد أنواع أزهارها. بدت الغابة، من بعد، مثل إحدى الحدائق المزروعة، في مدينة الخنافس، بترتيب وتناسق ألوانها: الأصفر، البنفسجي، الأحمر، البرتقالي، وسط ظلال خضراء تلف كل شيء. تلاشى هذا الانطباع عندما اقتربا، وأدركا أنها مجرد برية ذات أشجار متشابكة، ومع ذلك ظلا يشعران بأنها حديقة أفرطت نباتاتها في النمو.

اقتربا بحذر، وقد شهرا سلاحيهما، ولكن لم يبد أن ثمة سبباً واضحاً لهذا الحذر. كانت أقرب شجيرة منها مكسوة بأزهار صفراء ضخمة، على شكل بوق، لها رائحة مميزة، لا تختلف عن رائحة الورود. زحفت نحلة مكسوة بالفراء، بحجم قبضة اليد، خارجة من أحد الأبواق، ظنّت وهي تطير نحو الغابة، وبدا واضحاً أنها لم تشعر بأي خطر. تغير شكل العشب، بمجرد اقترابهما من الأشجار، وأصبح وفيراً، أخضر اللون، وحينما انحنى نيال، وشد عشبة انخلعت دون مقاومة.

مسحا الأرض، بحثاً عن أية دلالة تشي بوجود الفطريات السوداء، وفحصا كل شجرة، قد تدرك وجودهما. بدا كل شيء طبيعياً تماماً. وكانت الأشجار والشجيرات متباعدة، بالقدر الذي أتاح لهما فرصة الرؤية بينها. ورغم وجود الكثير من النمل، وبعض الحشرات الأخرى، فإنهما لم يشعرا بأي تهديد.

قال دوجنز: لا أثق في تلك الرائحة، فقد تكون مخدرة.

هز نيال كتفيه، وقال: لنبق هنا حتى نتأكد من تأثيرها، فأنا أشعر بالعطش على أية حال.

كان حلق نيال، قد جف بعد المواجهة مع العظاءة. جلسا فوق العشب، على بعد عشرة أقدام من أقرب شجيرة. ملأ نيال قارورة الماء من النهر، قبل أن ينطلقا. كانت المياه دافئة، إلا أنها قد روت ظمأه على الأقل. راودته رغبة في احتساء قليل من النبيذ الذهبي، فقد كانت القارورة ما تزال نصف مملوءة ـ لكنه رأى أنه ليس من الحكمة احتساء شيء في هذا الجو الحار. تناول فطيرة وتفاحة، وكذلك فعل دوجنز، وعندما انتهى من طعامه، جلس القرفصاء، وبذل جهداً لتحقيق درجة من الهدوء الداخلي. لم يكن ذلك صعباً، وسط هذه البيئة المحيطة به؛ فشذا الأزهار، وثراء ألوانها، جعلت الغابة تبدو مثل حديقة غناء. أشعرته الشجيرة ذات الأزهار الصفراء، وهو في هذه الحالة، بالجذل، كما لو أن أبواقها تصدح بالمرح.

قال دوجنز، الذي كان يراقبه: حسناً، ماذا تظن؟

ـ لا أشعر بأي خطر. أعتقد أنه يتعين علينا أن. . . ما هذا؟

أصاخ كلاهما السمع. وتساءل نيال: هل سمعت شيئاً؟

ـ أظن أنني سمعت صيحة.

ترددت الصيحة مرة أخرى، ولم يعد هناك أي مجال للشك في ذلك.

ـ نيال!

تخدر لحم نيال من الخوف والرهبة، فقد كان ما سمعه هو صوت أخيه ڤيج، وبدا أنه آت من الجانب الآخر للغابة. نهض واقفاً، ووضع يديه عند فمه، ولكن قبل أن يتمكن من الصياح، هب دوجنز، ووضع يده على شفتيه، وقال له:

ـ لا تفعل، فقد تكون شركاً.

ـ لكنه صوت أخي.

ـ ذلك لن يغير من الأمر شيئاً. لا تصح!

ردد الصوت مرة أخرى اسم نيال، فبدا واضحاً بصورة لا تدع مجالاً للشك أنه صوت ڤيج.

قال دوجنز: لا بد أن العناكب قد أحضرته إلى هنا.

ـ ولكن لدينا أسلحتنا الحاصدة.

شد دوجنز على ذراعه، وقال: إذا ما كانت تحتفظ بأخيك رهينة، فإننا لن نستطيع استخدام الأسلحة الحاصدة، فهذا هو ما تعتمد عليه.

هز نيال رأسه بيأس، فقال له دوجنز: أصغ إليّ! ماذا عساك تفعل إذا ما هددتك بقتل أخيك، إن لم تستسلم لها؟ أتفعل ذلك أم لا؟ هذا هو السبب الذي يجعلك لا ترد على الصوت.

- ولكن ربما يكون بمفرده.

عاد الصوت يصيح من جديد، بشيء من الإلحاح: نيال!

بدا من غير المعقول ألا يرد على الصوت، لكنه تمالك نفسه، وبذل جهداً للتحكم في إرادته، فشعر بألم حاد.

قال دوجنز: كيف يمكن أن يكون بمفرده؟ فكِر في ذلك. إنه لا يعرف مكانك، وحتى إذا عرف، فإنه لا يستطيع القدوم إلى الدلتا بمفرده، ولا بد أن أحدهم قد أحضره.

شعر نيال بالحر اللافح يحرق خديه، واختلط عليه الأمر، ولم يعد يعرف ماذا يصنع.
- ربما من الأفضل أن نعود أدراجنا.
- وما جدوى ذلك؟ يتعين علينا مواصلة ما بدأناه.

قال بدون اقتناع: نعم.

شعر بأن قلبه قد تحول إلى رصاص، وملأه صوت أخيه بالاشتياق، ليستنزف كل يقينه الداخلي.

حملا صرّتيهما، وتقدما بحذر نحو الأشجار. كان الجو ألطف، ومحملاً بشذا الأزهار، وباتت الألوان المحيطة بهما نابضة بالحياة، كما لو أن بعض الأزهار قد توهجت بفعل ضوء صادر من داخلها. لكن هذا الشذا الذكي لم يثر في نيال سوى الشعور بالحنين. توهج خداه، ولم تعد ساقاه تتحملان ثقل جسمه، وألقت الشكوك والمخاوف بظلالها على ذهنه. راح يفكر في احتمال أن تكون أمه هناك هي الأخرى، وربما شقيقتاه أيضاً. جعله هذا التفكير يرغب في الصراخ من شدة اليأس.

مد يده داخل ردائه، وقلب مرآة التأمل، فشعر بألم حاد في مؤخرة فروة رأسه، فقاوم رغبة عارمة في إعادة المرآة لوضعها السابق. لكن الألم تلاشى، بعد فترة من التركيز والإطباق على أسنانه، وأصبح مدركاً لمدى استنزاف الخوف والقلق لقوته. ثم عاد إليه تصميمه، مثل قبضة مطبقة بداخله، فحقق له الارتياح. أدرك فجأة أنه مهما كان حجم المشكلات فإنه من

السخف تركها تستنزف كل قوته، وأحس أن هـذا الموقف يمـاثل مـوقف رجل يشعـر بعطش شديد، ويتعمد إهدار قطرات الماء الأخيرة لديه على الرمل.

تلاشى شعوره بالحنين، كما لو أن كـابوسـاً قد انـزاح. وأصبح بمقـدوره الآن النظر إلى المشكلة بصورة موضوعية، فعادت إليه شجاعته. فلو أن العنـاكب تأسر ڤيج ـ وهو مـا يبدو افتراضاً معقولاً، فلا بد أن العناكب قد رأتها، وهما يهبطان من فوق التل. وفي هذه الحالـة، فـإنه من المـرجح أنها تـتربص بانتظارهما. ولكن عنـدما تـذكـر مـدى السرعـة التي أسره بهـا العنكبوت الذئبيّ في الصحـراء، أدرك أن العناكب يمكنهـا، بمنتهى السهـولـة، الانقضـاض عليهما من وراء شجيرة أو صخرة، قبل أن يتاح لهما الوقت للمقاومة. إذن لماذا سمحت لڤيج بـأن يكشف عن وجودهـا وينادي عليـه؟ بدا الأمـر غير مفهـوم بالمـرة. ولكن بعد أن اتخـذا حذرهما، لم يعد من المحتمل أن تفاجئهما أية حركة.

لم تكن هناك سوى إجـابة واحـدة، وهي أن العناكب تخشى الأسلحـة الحاصـدة، ولن تقدم على فعل أي شيء يثيرهما، ويجعلهما يطلقان النار. وإذا كان هـذا الافتراض صحيحـاً، فإن الأمل ما يزال قائماً. فهذا يعني أن العناكب راغبة في التفاوض. . .

أثار هذا التفكير تفاؤله، وشعر بالندم لأنه وصل، في لحظة معينة، إلى حافة الاستسلام التام. استغرب مدى تأثير تجدد الأمل بداخله على طاقاته الحيوية. ولاحظ، عـلى حين غـرة، جمال الأزهار، ومدى تنوع ألوانها. فهنالك الأزهار الصفراء، التي تأخذ شكل الأبواق، ذات الرائحة التي تـذكّره بـالورود، والـزهور الـبرتقاليـة، ذات الرائحـة المميزة، التي تشبـه رائحة الفاكهة الحمضية، والشجيرات، التي تكسوها أزهار بنفسجية، ذكّره شكلها بفم مفتوح، ولها رائحة نفاذة قوية غير مستساغـة. بل إن هنالك أزهـاراً خضراء ذات بتلات مخـططة بخطوط بيضاء عريضة، ولها رائحـة ذكّرتـه بجوز الهنـد أو العسل. كـما رأى، بين العشب، زهـرات قرمزية وبيضاء، ملأه شذاها الرائع النقي، بالشعور بالبراءة. كما لاحظ أن الزهور المحتجبـة في ظلال الأشجار، تبدو مشعة، كما لو أن لها رائحة فوسفورية.

جعلته أحاسيسه المرهفة يدرك أن كل زهرة تؤثر فيه بطريقتها الخاصة. ولاحظ شعـوره الغريب بالمرح، الذي أثارته الزهرة الصفراء، التي على شكل بوق، لكنه خمن أن ذلك نتيجة للونها الزاهي. أدرك الآن أن الأجمة برمتها تنفث ذبذبة ما تثير هذا الشعور بالمرح، المميز مثل نغمة موسيقية. وأثارت الأزهار الحمراء القانية حالة من الانفعـال، جعلته يشعـر بومضـة من الوحشية، وبرغبة في لطم أي شخص. وأثارت الأزهار البرتقالية شعوراً حاداً بـالبهجة ذكّـره بميرلو ودونا وأودينا، وبدت كأنها تحـوي عصارة الأنـوثة. أمـا الزهـور البيضاء الكبـيرة، التي

تستظل بأشجار الليلك، فقد غمرته بشعور غريب بـالحنين، ارتبط ببلد مجهـول رياحـه باردة نشطة، وأنهاره مغطاة بالجليد، من الخريف حتى الربيع. كان غريباً عليـه أن يمشي وسط هذه الأزهار، ويشعر بكل هذه الأحاسيس، والمشاعـر التي يصعب وصفها، كـأنه يسبح في مياه، تتغير درجة حرارتها، من لحظة إلى أخرى.

قال دوجنز: ما هذا؟

توقفا، وأصاخا السمع. لم يسمع نيال شيئاً، وكان الهواء مملوءً بطنين النحل والحشرات الأخرى. ولكن بدا له، عندما ركز حواسه، أنه سمع أصـواتاً بعيـدة. ثم خرجت نحلة من إحدى الزهرات البنفسجية، وطنت بجوار أذنه، وتوقفت الأصوات بمجرد أن خف تركيزه.

قال دوجنز، وقد بدا عليه التوتر: ألا تسمعها؟

لاحظ نيال أن وجهه قد أصبح في غاية الشحوب.

- أصوات؟

- أصوات أطفال.

أصاخ نيال السمـع، وبدا أنـه سمع أصـواتاً بعيـدة، ولكن قد تكـون خريـر ماء، أو صيحة طائرة.

- اسمع شيئاً، لكنه آت من بعيد.

نظر دوجنز إليه في دهشة، وقال: من بعيد؟

- عم تتحدث؟ إنها أصوات بعيدة.

أمسك دوجنز بذراعه، وحاول أن يوجهه إلى مصدر الصوت.

قاوم نيال حركة دوجنز، وقال: لا. انتظر!

توقف دوجنز، على مضض، وبدا أن عاطفة قوية تسيطر عليه.

قال نيال: أخبرني أولاً عن طبيعة الأصوات التي تسمعها!

لاحت عـلامات الحـيرة والإحباط عـلى وجه دوجنـز، وقـال: إنـك تعـرف بـالفعـل، إنها... أصوات.

- أهي قريبة؟

حدق دوجنز فيه، كما لو أنه يشك في سلامة قواه العقلية، وتساءل:

- ألا تسمعها؟

- أسمع شيئاً، لكنه توقف الآن.

قال دوجنز: أتعني أنك لا تستطيع سماعها؟

ـ انصت إليّ. أعتقد أن ما تسمعه مجرد وهم.

ـ إذن لماذا تسمعه أنت أيضاً؟

ـ لا أدري. أظن أنني قد عدلت إحساسي على موجة ذهنك.

ـ ولا تستطيع سماعها حقاً؟ أتمزح؟

ـ كلا بالطبع. ما طبيعة هذه الأصوات؟

شعر دوجنز بالحيرة والقلق، وقال: أصوات أطفال.

ـ أطفالك؟

هز كتفيه، وقال: كل أصوات الأطفال متماثلة.

لكن نيال لم يخدع بهذه الإجابة، ووضع يده على كتف دوجنز، قائلاً:

ـ ليست هناك أصوات. إنها داخل رأسك.

بدا واضحاً أن دوجنز قد صدقه إلى حد ما، لكنه تساءل:

ـ إذن ما الذي أثارها؟

ـ لا أعرف. لكنني أظن أنني أعرف كيفية وقفها..

أشار إلى الشجيرة ذات الأزهار البنفسجية، التي أشعرته رائحتها القوية النفاذة بضيق في التنفس والاكتئاب، وقال له: حاول أن تقطع هذه الشجيرة بسلاحك!

حدق فيه دوجنز بتساؤل، فقال له: افعل ما قلته لك!

هزَّ دوجنز كتفيه، وتراجع عدة خطوات، ورفع سلاحه، وتأكّد أنه عند أدنى معدّل، ثم أطلق النار. بدت الأشعة، في ظلال الغابة، مثل الثلج الأزرق. كانت الشجيرة قريبة للغاية من الأرض، فلم يريا جذعها، لكنها اهتزت عندما أصابتها الأشعة، ثم انقلبت ببطء على الأرض. انتابت نيال في تلك اللحظة سلسلة من المشاعر المتباينة؛ شفقة، رعب، غضب، حزن، وبؤس، وبرز بين كل هذه المشاعر، الإحساس بالوحشية. لكن حين اصطدمت الشجيرة بالأرض، وتوقفت عن بث الذبذبات، تلاشت كل هذه المشاعر، مثل صخب أصوات غاضبة تتلاشى في البعيد. وأحس فجأة بالحرية والراحة.

حدق دوجنز فيه بدهشة، فقال نيال: ما الذي تسمعه؟

ـ لقد توقفت الأصوات. ما الذي فعلته؟

ـ أنت الذي فعلت ذلك، بقطع الشجيرة.

حملق دوجنز فيها، وقال: وما علاقة الشجيرة بالأصوات؟

هز نيال رأسه، وقال: لا أفهم، ولكن كل ما أعرفه هو أن تلك الأشياء بمقدورها اقتحام أذهاننا ـ مثل تلك العظاءة، وبإمكانها أن تجعلنا نتخيل أشياء ليست موجودة.

لاحظ أن دوجنز وجد صعوبة في الاقتناع، نظراً لتركيبته الذهنية، التي يغلب عليها الطابع العملي.

ـ لِمَ طلبت مني اقتلاع هذه الشجيرة؟

ـ إصابة أية شجرة كانت ستحقق الهدف ذاته، إنها مثل العناكب، إذا ما قتلت أحدها، ستشعر الأخرى بالشيء نفسه.

لاحظ نيال، وهو يتكلم أنه لم يعد يشتمّ رائحة الأزهار. انحنى، واشتمّ إحدى الأزهار البرتقالية، فوجدها بلا رائحة.

ـ أترى؟ حتى الرائحة ليست حقيقية، إنها آتية من داخل ذهنك.

لقد كان إحساساً مثيراً للانزعاج، فقد أدرك أنه من الممكن أن تنخدع حواسه بسهولة، وأن يتحول العالم الواقعي من حوله، إلى عالم خيالي مزيف. ومع ذلك فقد شعر، وهما يجتازان الغابة، ببهجة غريبة، كما لو أنه يتنفس هواء بارداً نقياً، وأن عبئاً قد أزيح بعيداً عن حواسه.

ـ هل كان صوت أخيك وهماً هو الآخر؟

ـ أظن أنه لا بد وأن يكون كذلك.

كان من الصعب على أحاسيسه قبول ذلك، لكن المنطق أكد له حقيقة ما قاله.

ـ لماذا تفعل ذلك؟

ـ أعتقد أنها كانت تسعى لدفعنا إلى العودة من حيث أتينا.

ـ ولكن لِمَ؟

لم يحر نيال رداً. سارا في طريق شديد الانحدار، فاضطرا للسير ببطء حتى يتجنبا الانزلاق. أصبحت الأشجار والشجيرات الآن متباعدة عن بعضها البعض. ثم مرا بصف من الأشجار، وأصبحا خارج الغابة، ليجدا نفسيهما يتطلعان إلى منحدر أجرد، ينتهي عند منطقة غابات أخرى. شاهدا من فوق قمم الأشجار، على مسافة تقل عن ميل، النصف الأعلى للتل الكبير.

كان المشهد بالنسبة لنيال كما لو أنه يراه للمرة الأولى. لاح التل، مستدير الشكل، وبدا واضحاً من هذه المسافة أن البروز عند القمة ليس برجاً، أو أصل شجرة. كان عرضه

عند القاعدة يبلغ مثلي عرضه عند القمة، ويبدا مماثلاً لساق نبات مهشمة، كما لو أن التل عبارة عن بصلة نبات عملاقة، غرس بستاني مهمل نصفها فقط في التربة. أما الجزء الأعلى من المنحدر، على الجانب الشمالي من التل، فيماثل شكل جبهة إنسان، مما يجعل البروز يماثل قبعة صغيرة. عرف الآن السر وراء الإحساس الغريب، الذي أثاره شكل التل، حيث أنه يبدو مثل كائن حي. أدرك عندما رآه، بيقين لا يداخله أي شك، أن هذا هو ما يسعون وراءه. لم تعد الذبذبة، التي تماثل الموجة قاصرة على الأرض تحت أقدامهما، فقد أحس بنبضها في الجو من حوله، رغم أن الهواء كان في غاية الهدوء.

كان إحساساً غريباً، أثار فيه مزيجاً من الانفعال والبغض، الانفعال من قوة الذبذبة الهائلة، التي بدت مجردة ومثيرة مثل عاصفة في البحر، والبغض نتيجة للإحساس بأن القوة تفتقر إلى الرقة والرهافة، فبدت مثل موسيقى تعزف بصوت مدوٍ.

عندما ألقى نظرة سريعة على دوجنز، أثار فضوله التعبير، الذي كسا وجهه، فقد بدا كما لو أنه اشتم رائحة عطنة غير متوقعة.

ـ ما الأمر؟

قال دوجنز بتردد: شيء ما... كريه. ألا تشعر به؟

رد نيال، وقد ازداد فضوله: ماذا يشبه ذلك الشعور؟

كان دوجنز على وشك الكلام، لكنه هز كتفيه، وعدل، ثم أشار إلى التل، الذي يشبه القبة.

نظر إلى نيال، وقال: ذلك ما نبحث عنه. أليس كذلك؟

ـ ربما.

ارتسمت ابتسامة كئيبة على شفتي دوجنز، ورفع الحاصد، وعدل قوته إلى الحد الأقصى.

ـ ينبغي أن نفعل ذلك، حتى من هذه المسافة.

قال نيال بسرعة: انتظر!

ـ لِمَ؟

ـ قد يكون الأمر خطيراً. تذكر ما حدث عندما أطلقت النار على تلك البركة.

خفض دوجنز سلاحه، فأدرك نيال أنه أذعن لقوة مرآة التأمل، وليس لقوة حجته. ودهش من مدى إحساسه بالراحة.

واصلا هبوط المنحدر، وكانت الأرض ناعمة وصلبة، مثل حمم بركانية، وانتشرت الأخاديد الصغيرة فوق سطحها نتيجة لانهيار الأمطار.

كانت الغابة، التي تواجههما مختلفة تماماً في طبيعتها، عن تلك التي تركاها خلفهما. فجذوع الأشجار شديدة الالتواء، بالغة النشوة، ولم يكن هناك سوى القليل، الذي بدا مستقيماً، كما تلاصقت الأشجار بشدة، حتى تداخلت وتشابكت جذورها العارية. وهذا يعني أن فروعها وأوراقها، ذات اللون الأخضر الفاتح، متشابكة، مما يجعلها تعطي انطباعاً بوجود سقف ممتد فوق الرؤوس. امتدت الغابة عدة أميال في الاتجاهين، وبدا أنها تشكل حاجزاً لا يمكن اختراقه.

لاحظ نيال، بعد أن قطعا نصف الطريق، وهما يهبطان التل، ظاهرة غريبة. فقد ازدادت صعوبة كل خطوة وللأمام، كما لو أنهما يخوضان في الماء. ألقى دوجنز نظرة عجلى إليه، لكنه لم ينبس ببنت شفة. أدرك كلاهما الدلالات على وجود إرادة مناوئة. أصبحت المقاومة، بعد عشرة أمتار أخرى، في غاية القوة، فاضطرا للاستناد على حافة المنحدر، والسير للأمام، وهما منحنيان، كما لو أنهما يتجنبان رياحاً هوجاء. انزلقت أقدامهما على السطح الناعم، وهما يحاولان الاندفاع للأمام. لم يعد التقدم ممكناً، بعد أن باتا على بعد مائة متر من الأشجار. وأحسا كما لو أن عاصفة غير منظورة تحاصرهما. انحنى نيال بشدة، وحاول الزحف للأمام، ولكنه شعر كأن يدين تمسكان بكتفيه، وتدفعانه للخلف. جلس كلاهما على الأرض، وتبادلا النظرات، وقد شعرا بالاجهاد، وتصبب العرق من جسميهما بغزارة.

قال دوجنز مقطباً: يبدو أن هناك شيئاً يريد عرقلة تقدمنا.

تطلع نحو قمم الأشجار، ولكن لم يعد التل مرئياً.

قال نيال: إنها الأشجار.

حدق دوجنز بدهشة، وقال: هل أنت على يقين؟

أحس نيال أن ضغط الإرادة تمارسه الفروع المتشابكة، فقال: تماماً.

نظر دوجنز إلى الفروع بفضول، قال: لنتحقق من ذلك.

لم يحاول نيال إيقافه هذه المرة، فقد أثارت فيه قوة الإرادة شعوراً قوياً بالاشمئزاز. ضبط دوجنز معدل القوة عند أدنى مستوى، ثم صوب السلاح إلى أقرب الأشجار، وسحب الزناد. شطرت الأشعة الرفيعة الجذوع، وانهار نحو ستة منها على الأرض. ومع ذلك ظلت الأشجار منتصبة، تمسك بها الفروع المتداخلة. رفع دوجنز السلاح لأعلى، وأطلق النار.

تطاير الجزء الأوسط للجذوع، هذه المرة، وتصاعدت رائحة الخشب المحترق. وسقط بعض الأشجار محطماً، بينما ظلت أشجار أخرى معلقة في الهواء، نتيجة لتشابك فروعها مع أشجار أخرى، كما تساقط غبار أصغر من فوق قمم الأشجار. لكن المقاومة ظلت قوية على حالها، بل شعرا بأنها قد زادت.

التفت دوجنز إلى نيال، وقال: هل أنت واثق من صواب رأيك بشأن الأشجار؟

ـ أعتقد ذلك.

أحس نيال، وهو يقول ذلك، بالقوة تنبعث من الفروع الملتوية.

ـ ليكن. فلنجرب هذا.

زاد دوجنز الطاقة من جديد، وصوب هذه المرة بالقرب من الأرض. زأرت الأشعة الزرقاء مثل لهب، وتحللت جذوع الأشجار، وانشق طريق، على نحو مفاجىء، وسط الغابة. ثم توقفت المقاومة بصورة غير متوقعة، فاندفع كلاهما إلى الأمام، وانزلقا لعدة أقدم.

تطلع دوجنز إلى نيال، وقد تحدر العرق فوق وجهه، وقال: نعم، لقد كنت محقاً.

اشتعلت النيران في بعض الأشجار، وتصاعد الدخان من الخشب المحترق، وتساقط الغبار الأصفر كالمطر، ليفرش الأرض التي غطاها السواد. أثار منظر الممر المتفحم بين الجذوع، إحساساً غريباً في نيال، اختلطت فيه الشفقة بالأسف. كان ثمة أمر يتعلق بقوة الحاصد أثارت قلقه.

نهض دوجنز واقفاً، ودعا نيال لمواصلة السير.

لكن نيال تردد، وقال: أشعر بقلق إزاء ذلك الغبار الأصفر، لننتظر حتى يتوقف عن التساقط.

تقدم دوجنز للأمام نحو الأشجار، واشتمّ الرائحة، وقال: إنه مجرد غبار الطّلع.

لكنه راح يعطس بعنف، واستمر على ذلك الحال لبضع دقائق. وقال والدمع ينهمر من عينيه: يا إلهي! إنك على صواب، إنه مثل الفلفل الأسود.

جلسا في انتظار توقف سقوط الغبار، بينما راح دوجنز يعطس من حين إلى آخر. ولما خلا الجو من الدخان، اكتشفا أن الحاصد قد فتح ممراً عند الجهة البعيدة من الأشجار. لمعت مياه في أشعة الشمس، عند أقصى طرف النفق، الذي تغطيه الفروع المتدلية.

فتح دوجنز كيسه، وأخذ رشفة طويلة من النبيذ، وتنهد بارتياح، وقال: سأكون سعيداً عندما نعود إلى ديارنا مرة أخرى. إن هذا المكان مملوء بالأشياء الشريرة.

وجد نيال هذه الفكرة غريبة، فقال: الأشياء الشريـرة؟ لا. أظن ذلك إنها مجـرد أشياء لا تبدي اهتماماً بالكائنات البشرية.

أخذ دوجنز رشفة أخرى، ثم أعاد القارورة إلى الكيس، وقال: الأمر لم يختلف كثيراً. لنستأنف السير! فلن نعود إلى ديارنا مطلقاً، إذا مكثنا هنا طوال اليوم.

نهض نيال واقفاً على مضض، وقال: لا تَنْسَ ما قاله سيميون لنـا ـ لا تتعجل الأمـور مطلقاً في الدلتا.

تقدما نحو حافة الغابة، وكان عرض الطريق، الذي مهده الحـاصد، يبلغ نحـو ثمانيـة أقدم. أدرك نيال، على نحو مفاجىء، وهو ينظر إلى الفتحة، التي تشبه النفق بين الأشجـار، مدى القوة المرعبة، التي شقت هـذا الطريق وسط الغـابة. كـان بعض الجذوع قـد انشطرت طولياً، كما لو أن فأساً قد قطعها، بينها تعلقت الأشجار الأخرى فوق رؤوسهم، وقـد منعتها من السقوط الفروع المتشابكة. ووجد أن الحاصد قد شق، تحت قدميه، أخدوداً في الأرض، بدا منبسطاً كما لو أنه طريق مهده إنسان. اكتست الأرض، مثل جذوع الأشجـار المحترقـة، بطبقة صفراء سميكة من غبار الطَّلع.

لكنهما اكتشفا، بمجرد أن سارا فوقه، أنه زلق كالطين. وكاد نيـال يسقط، فاضـطر أن يتشبث بجذع شجرة، ليحافظ على توازنه. أحس باللزوجة فوق أنفه وعينيه، بفعل الـطين. أخذا يعطسان، بعد لحظة. وأراد أن يهرش في الأمـاكن التي استقر فوقها غبار الطَّلع، حيث أحس بتهيج شديد في جسمه.

تراجع نيال، ثم جلس مرة أخرى، وقال: أظن أنه من الأفضل أن نبحث عن طـريق آخر نسلكه.

ـ طريق آخر؟ ليس هناك طريق آخر.

وألقى نظرة على صف الأشجار الممتدة في الاتجاهين.

ـ إذا ما اتجهنا شمالاً، فإننا سنصل إلى المستنقعات.

هـز دوجنز رأسـه بعناد، وقـال، وهو يهـرش خده بعنف: لن أدع غبـار الطَّلع يـوقف تقدمي، حتى لو أصابني بالحمى.

أخرج نيال رداءه الإضـافي من كيسه، وقـطع شريطاً منـه، وغمسه في بعض المـاء من قارورته، ومسح الغبار الأصفر من فوق يديه.

قال دوجنز: أعرف الحل.

وقطع هو الآخر شريطاً عريضاً من ردائه الإضافي، وغمسه في الماء، ثم لفه حول وجهه، ليشكل قناعاً لم تظهر منه سوى عينيه، وقال: بهذا لن يتمكن مني.

فعل نيال الشيء ذاته، فشعر ببرودة القناع اللطيفة على وجهه. ثم أخرج من جيبه الأنبوب، الذي يحتوي على الرداء المعدني. نظر دوجنز إليه بدهشة، وهو ينشره.

ـ فيم يستخدم هذا؟

ـ لإبعاد الطّلع عن جلدي.

أشار دوجنز بإصبعه، وقال: ثمة ماء هناك، بإمكانك التخلّص منه في خمس دقائق.

ـ أفضل ألا يتعرض جلدي له. إنه يلسع.

فتح السّحاب، ووضع جسمه بداخله. كان الرداء منتفخاً بشكل يثير الضيق. وعندما أغلقه حتى رقبته، بدا مثل خفاش فضي اللون. شعر بحر يثير الاختناق، وتصبب العرق من جسمه، فالتصق الرداء بجلده.

قال دوجنز ساخراً: هل أصبحت مستعداً؟

أومأ نيال، بعد أن غطى رأسه بالغطاء. وجد أنه من المستحيل أن يحمل الكيس على ظهره، فاضطر لأن يحمله في يد، والحاصد في اليد الأخرى.

سأل دوجنز: لِمَ لا ترتدي معطفك؟ إنه سيكسو ذراعيك وساقيك.

رد دوجنز باقتضاب: بإمكاني تحمل الموقف.

لم يكن من السهل على نيال السير، حيث أخذ الرداء الفضفاض يتثنى فوق ساقيه، مما جعله يمشي متثاقلاً، جاراً قدميه، فأخذ دوجنز يرقبه بطرف عينه، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

أثارت أقدامهما سحباً من الغبار الأصفر، وهما سائران بين الأشجار. أخذ دوجنز يسعل، رغم القناع، الذي وضعه على وجهه.

التفت إلى نيال، وقال: سأمضي قدماً، وسألقاك عند الطرف الآخر.

سار بخطى سريعة، فارتفع الغبار في سحب حول قدميه. استخدم نيال يديه من داخل القفازين، لشد القماش المبلل تحت ذقنه، لكن الغبار جعل عينيه تدمعان، وأثار وخزاً فوق جبهته الرطبة. حاول سحب القناع لأعلى، حتى يغطي عينيه وجبهته، واكتشف أن بوسعه الرؤية من خلاله، بعد أن جعل الماء النسيج القطني شبه شفاف، فشعر بالارتياح. أخذ يتنفس من خلال فمه المفتوح، وقد أدرك أن ذلك أسلم من التنفس من خلال الأنف، حيث أن كل شهيق يؤدي إلى التصاق النسيج بشفتيه، ومنع الغبار الأصفر من الدخول.

كانت الحرارة، التي أحدثها الرداء خانقة، راحت تصعد في موجات إلى عنقه، لكنه قاوم إغراء الإسراع، رغم أن اللسع جعل عينيه تدمعان، فلم يتمكن من الرؤية. ثم وجد نفسه، فجأة، تحت أشعة الشمس مرة أخرى.

قال دوجنز: هل أنت بخير؟

- نعم. وأنت؟

- سأكون بخير عندما أغتسل، وأبعد عن جسمي هذا الغبار اللعين.

أزاح نيال القناع، فوجد أن سطحه الخارجي قد اكتسى بطبقة سميكة من غبار الطَّلع. كان من الصعب مقاومة اغراء تدليك عينيه الدامعتين بأصابعه، المكسوة بالقفاز، لكنه اكتشف أنه مغطى أيضاً بالغبار. فتح الرداء، وهو يسعل ويعطس، ثم أخرج نفسه منه، وهو يشعر بأن خديه وجبهته تتوهج من الحر اللافح.

كانا يقفان فوق أرض طينية صلبة تنحدر نحو النهر، الذي راحت مياهه، البنيّة اللون، تتحرك ببطء. امتدت على الجانب البعيد من النهر، مزارع من النباتات الكثيفة، ووجدا أن النباتات المتسلقة كثيفة للغاية، وتراءت لهما كالأفاعي. وارتفع التل ذاته عن الأرض، مثل جلمود هائل، فبدا وسط الأرض المنبسطة المحيطة به، كما لو أنه قد سقط من السماء.

حدق نيال بفزع في وجه دوجنز، الذي تورم واصطبغ باللون الأحمر، كما لو أن الشمس قد سفعته. راح دوجنز يهرش بعصبية جبهته، فتركت أظافره بقعاً من الدم.

قال، وقد بدا الألم على قسمات وجهه: لقد كنت مصيباً، فهذا الغبار يلحق بالجلد أبلغ الضرر.

وألقى بالحاصد على الأرض، بجوار الكيس، وهرع نحو النهر، فجرى نيال خلفه، وهو يصيح: انتظر! فقد يكون خطيراً.

أمسك نيال بدوجنز من ثيابه، واضطر للتشبث بقدميه، حتى يمنعه من الاندفاع نحو النهر، وهو يصيح: قف!

وعندما توقف دوجنز، وهو يسب ويدلك عينيه، أخذ نيال رداءه الإضافي من كيسه، وغمسه في الماء، ثم أعطاه لدوجنز، الذي وضعه فوق وجهه، وهو يتنهد بارتياح. كانت جبهة نيال تؤلمه، كما لو أن سائلاً ساخناً قد حرقها.

ولذلك فقد أدرك مدى معاناة دوجنز. أخرج الدلو المصنوع من القماش من قاع

الكيس، وغمره في الماء. أحس بوجود دوامة تحت السطح العكر، فعرف أن هناك من يراقب وجودهما. جعل دوجنز ينحني، وصب فوق رأسه وكتفيه الماء الدافىء.

راح دوجنز يئن، وقال: هذا لا يكفي، أريد أن ألقي بنفسي في الماء، فأنا أشعر بحريق يؤلم ذراعي وساقي.

ـ لا. ثمة شيء في الماء. انتظر!

التقط الحاصد، وتأكد أنه عند أدنى درجة، ثم أطلق النار على الدوامة في الماء، فتناثر محدثاً هسيساً جعله يرتد للخلف. وعندما هدأ، لمح فكين مفتوحين، وأسناناً مدببة، فأطلق النار مرّة أخرى، وهو يحرِّك الحاصد ببطء من جانب إلى آخر، فكاد الهسيس يصم أذنيه. وجد نفسه، لبضع ثوانٍ، وسط ضباب كثيف، ثم هدأ الجو، وسكنت صفحة الماء.

ـ أظن أن الماء بات آمناً الآن. فلتجربه!

اندفع دوجنز إلى الماء، وقد ندت عنه صيحة ارتياح، وغاص حتى ركبتيه. راقب نيال السطح، وقد تأهب لإطلاق النار من جديد، بينما غمر الماء دوجنز حتى كتفيه، حدثت دوامة أخرى في المياه بأعلى النهر، في غضون عشر ثوانٍ، وتحركت باتجاههما، أطلق نيال النار بدون تردد. صرخ دوجنز في ذعر بعد بضع ثوان، وصاح: إن الماء يغلي!

سحبه من رسغه، وساعده على الخروج من الماء، وهو يقول له: من الأفضل أن تتعرض للغليان، على أن يتم التهامك حياً.

اكتسى جسم دوجنز بالطين البني. ولكن عندما حدق نيال عن قرب، رأى أن الطين يتحرك. مسح بعضه بقطعة قماش مبللة، فرأى أنها قد اكتست بكائنات صغير تشبه السرطانات، شفافة كالثلج، وراح دوجنز ينزف من عشرات الأماكن التي تعرضت لعض هذه الكائنات، وكان ألمه شديداً، فلم يلحظها. ملأ نيال الدلو المصنوع من القماش بالماء عدة مرات، وصبه فوق دوجنز حتى انزاح الطين عنه. شقت الكائنات، التي تشبه السرطانات، بمجرد سقوطها على الأرض، طريقها نحو النهر.

استلقى دوجنز على الأرض، لمدة نصف ساعة، وقد أغمض عينيه، وأطبق أسنانه، بينما راح نيال يصب الدلو وراء الآخر فوقه. أخذ دوجنز يسب ويلعن بعد أن تورم جلده، وازداد احمراراً. ثم توقف فجأة عن الحراك. جثا نيال بجواره، ووضع أذنه على صدره، فوجد قلبه ينبض بسرعة. بدا واضحاً أن دوجنز قد أصيب بإغماءة. كان نيال يشعر هو الآخر بألم. تورمت جبهته، بينما راح الجانب الأيسر من وجهه يؤلمه من تأثير سم الكائن، الذي يشبه الضفدع، لكن ذلك كله بدا بسيطاً.

حين عاد دوجنز إلى وعيه مرة أخرى، أخذ يهذي، وظن أن نيال هو سيميون، فراح يسأله عن لوكاستا وسليها. صرخ عندما حاول نيال تهدئته بصب الماء فوق ذراعيه، وقال إنه ماء مغلي. ثم راح يتلوى، ويرغي ويزبد، بينما بدت عيناه مثل عيني حيوان مرعب. منعه نيال ثلاث مرات من التدحرج نحو النهر، قبل أن يغيب عن الوعي مرة أخرى. لكن تنفسه بدأ ينتظم بعد فترة. تضاءل إحساس نيال بالتهاب جبهته، فخمّن أن دوجنز لم يعد يعاني من الألم هوالآخر، ثم استغرق بعد نصف ساعة، في نوم عادي، ولم يتشنج سوى للحظات قصيرة، لكن ذراعيه وساقيه تورمت، لتزيد عن مثلي حجمها الطبيعي، وبدا وجهه كبالون شديد الانتفاخ.

دهش نيال حين أدرك أن الغسق قد حل. لقد فقد وعيه بالوقت، وظن أنه ما يزال عصراً. راح الآن، ولأول مرة، يُقيّم الوضع الذي هما فيه. إن قضاء الليل في هذا المكان، سيعرضهما للخطر دون شك، فالنهر يعج بالكائنات الحية، وإحساسه المستمر بأنهما يتعرضان للمراقبة، جعله في حالة حذر دائم. ولكن، حتى إذا استطاع حمل دوجنز على ظهره، فليس هناك مكان يذهب إليه. فخلفهما بمائة متر توجد الغابة، والطبقة الكثيفة من غبار الطّلع الأصفر، وأمامهما بعشرين متراً يوجد النهر، بكائناته المختفية تحت سطحه، لكنها تظل أقل خطراً من الغبار الأصفر، فبوسعهما، على الأقل، القضاء عليها بالحاصد، بينما من الصعب التخلص من الغبار. وإلى الجنوب، يختفي النهر، ليتحول إلى مستنقعات وسط الغابات، وإلى الشمال، يتحول أيضاً إلى مستنقعات قبل أن يصب في البحر. وبالتالي فليس أمامهما أي خيار سوى البقاء في مكانهما.

هبت ريح باردة من البحر، بينما بدأت الشمس تغيب وراء الأفق. نشر نيال بطاطينه على الأرض، وجر دوجنز فوقها، ولفه بها. وذهب، بعد ذلك، يحضر كيس دوجنز، والرداء المعدني، الذي كان ما يزال ملقى بالقرب من الأشجار. حمل، بطريقة غريزية، حاصده معه. استخدم قطعة قماش مبللة ليزيل غبار الطّلع عن الكيس، ثم بدأ يمسح الرداء المعدني. ألقى نظرة عجلى، وهو يفعل ذلك، إلى دوجنز، فدهش حينما رآه يتحرك، وينزلق باتجاه النهر. شك، للحظة، بأن الإضاءة الخافتة تضلل عينيه، ثم أخذ يعدو باتجاهه عندما أصبحت حركته حقيقة مؤكدة. وجد أنه من غير الممكن استخدام الحاصد من مكانه، فدوجنز يتمدد بينه وبين النهر. وبات على بعد بضعة أقدام من المياه، وبدا أنه يتحرك طوعاً، كما لو أنه ينزلق من فوق تل. رفع نيال الحاصد، وصوب بدقة، وأطلق النار. سمع هسيس البخار، وتوقف دوجنز عن الحركة، لكنه وجده، عندما وصل إليه بعد لحظة، نائماً، ويتنفس بانتظام. كانت الحركة في غاية الهدوء، فلم يشعر بها. تمدد مجس مقطوع، على بعد بضعة

أقدام منه، بالقرب من الشاطىء، طوله نحو أربعة أقدام، وكان رفيعاً للغاية، ويتلألأ بفعل المادة الغروية. ولما ركله في الماء، سقط بقوة، محدثاً صوتاً كسوط من الجلد.

سمع في وسط النهر صوت تناثر مياه، ورأى دوامة. رفع الحاصد، وقد شعر بالغضب والإحباط، وأطلق النار في الماء، وهو يحرك سلاحه يميناً ويساراً، متجاهلاً البخار، الذي لفه، وسفع وجهه. أخذ سطح الماء يغلي، ولا بد أن يكون أي كائن حي في أعماقه قد شوي حياً. ظل مطبقاً على أسنانه من الغضب، وراح يحدق في الماء القاتم، بانتظار أية دلالة تنم عن حركة. شعر برغبة عارمة في التدمير، أغرته بضبط الحاصد على أعلى درجة، وإطلاق النار على التل الذي يعلوهما. تذكّر ويده على الزناد، دوجنز، وأدرك أن ما سيقدم عليه، سيثير أعمال العنف، ولو حدث ذلك، سيكون دوجنز أعزل لا حول له ولا قوة. خفض الحاصد على مضض، وتبخر الغضب ببطء، لكنه خلّف إحساساً غريباً بالقوة الكامنة، التي تنبض في دمه.

سحب الرداء المعدني، ثم مضى وجلس القرفصاء بجوار دوجنز، وقد استقر الحاصد في حجره. لم يشعر بأية رغبة في الاسترخاء، أو النوم، أو بأي إحساس بالجوع، فقد بدا أن حالة الطوارىء قد استدعت مخزون التحمل العميق لديه. ولما تلاشى الضوء في السماء، ولاحت أول نجمة في الشمال، راح يصغي إلى الجلبة، التي يحدثها النهر، محاولاً التمييز بين الصوت العادي، وصوت الدوامة، التي تعني وجود كائنات حية. تباطأت نبضات قلبه، وأصبحت هادئة للغاية، فكاد لا يشعر بها. انتابه مرة أخرى إحساس بأنه عنكبوت يتربص داخل نسيجه يدرك كل ذبذبات الليل. بدا، وهو في عمق هذا السكون الداخلي، أنه في قلب صمت رهيب.

مع ذلك كان هناك أمر ما يتعلق بالصمت أثار حيرته. وقد ظل فترة من الوقت يشعر بهذه الحيرة، قبل أن يفهم كنهه. فهو لم يعد، في هذه الحالة، معرضاً للمراقبة. وكان منذ وصوله إلى الدلتا يشعر بأن عدواً غير منظور يراقبه. لم يكن ذلك إحساساً مريحاً أو مثيراً للضيق، لكنه كان مجرد إحساس بأن الدلتا مدركة لوجوده. أما الآن فقد اختفى هذا الشعور.

مد يده إلى ردائه، وقلب ببطء مرآة التأمل. لم يحدث في هذه المرة أي صراع، بل مجرد إحساس بالتركيز والقوة، امتزجا مع حالة السكون. ولما تزايدت حدة تركيزه، وتمددت أحاسيسه وسط ظلام الليل، فهم ما حدث. فالصمت هو رد فعل على نوبة غضبه المفاجىء، الذي أثار خوف الدلتا. كان يبدو، وهو جالس القرفصاء، والحاصد ملقى في

حجره، مثل ثعبان سام، متربص، يتحين الفرصة لتوجيه ضربته. وقد كتمت الدلتا أنفاسها، وهي تشعر بالرعب إزاء الخطوة التالية، التي سيقدم عليها.

ثم أدرك، فجأة، ما ينبغي عليه عمله. فنهض واقفاً، وفتح سحّاب الرداء المعدني، وتركه يسقط عند قدميه. والتقط الحاصدين، وسار باتجاه النهر. أشارت عليه ثورته الذاتية المنطقية، وهو يتقدم، بأن ما هو مقدم عليه يعد عملاً انتحارياً. لكن دافعاً أعمق استبعد ذلك. توقف عند حافة الماء، ثم ألقى بحاصد تلو الآخر، في وسط النهر. أثار اصطدامهما بالماء صوتاً عالياً، كسر حدة الصمت الغريب. ثم وقف مترقباً ما سيحدث بعد ذلك.

ما حدث كان غير متوقع للوهلة الأولى. فقد تناهى إلى سمعه صوت قرقرة في النهرة، كما لو أن كائناً ضخماً قد انتابته حالة انزعاج، ولطمت قطرات قليلة من الماء وجهه. ثم امتلأ الليل بالأصوات العادية: تدفق المياه، خشخشة أوراق الأشجار وسط الريح، صياح الوطاويط، وصرخة حيوان ليلي بعيدة. ظاهرياً، لم يتغير شيء، فما يزال إنساناً وحيداً في قلب الدلتا، لكنه شعر بأنه لم يعد متطفلاً عليها. فإيماءة حسن النوايا، التي أبداها، لاقت قبولاً لديها.

شق طريقه عائداً وسط الظلام، وجلس مرة أخرى، بجوار دوجنز. أحس الآن بهدوء، وصبر غريبين. فقد عمل ما عليه، ولم يعد هناك شيء يفعله سوى الانتظار. جلس واضعاً يديه فوق ركبتيه، يصغي إلى أصوات الليل دون أي قلق أو توتر. فقد أبرمت الدلتا هدنة معه، وأدرك أنه ليس هناك ما يدعو للخوف.

ارتفع القمر، بعد نصف ساعة، فتمكن من رؤية الأشياء المحيطة به. كانت السماء صافية، والنجوم زاهية. ووسط هذا الضوء الساطع، تمكن من رؤية المستنقعات إلى الشمال، والغابة إلى الجنوب، وكلاهما بدا هادئاً تحت ضوء القمر. كما ظهر الجانب الجنوبي من التل في غاية الوضوح، وكان يماثل، من هذه الزاوية، وجه إنسان.

أدرك، وهو يتطلع إليه الآن، أمراً تغلغل في كيانه، خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، فقد كان مقتنعاً بأن هذا ليس تلاً، بل هو نبات عملاق إنه الكائن الذي أطلق عليه سيميون رسم «نوادا» إلهة الدلتا.

- ٧ -

صدر الأمر بعد حوالي ساعة، عندما توسط القمر السماء. كان جالساً، وقد استرخت عضلاته، ومستعداً لتلقي أية إشارات، عندما حثه دافع للوقوف، وخلع حذائه. لو أنه حيوان، لنفذ هذا القرار على أنه قرار نابع منه، ولكن لكونه إنساناً، فقد راقب جزءاً آخر منه، وكأنه منفصل عنه، الحيوان الذي استجاب لرغباته، وأدرك أنه ينصاع للأمر.

بعد أن خلع حذاءه، أخرج مرآة التأمل من حول رقبته، ووضعها بجانبه. ثم أخرج القضيب المتداخل من جيبه، ووضعه على الأرض. كان دوجنز مستغرقاً في النوم، وقد تمدد على ظهره، وبدا وجهه شاحباً تحت ضوء القمر، لكنه لم يعد متورماً. راح يتنفس محدثاً صوتاً كالصفير، فغطاه نيال بالرداء المعدني، وأدخل طرفه تحت ذقنه. ثم سار بمحاذاة النهر، وهو ما يزال منصاعاً للأمر.

راح يخطو فوق الطين الذي جففته الشمس لمسافة ميل تقريباً. بدت جذوع الأشجار الملتوية، على يساره، كما لو أنها مصنوعة من الحديد، وكانت فروعها ساكنة في النسيم العليل، لا يصدر عنها أي صوت. وراحت مياه النهر، على الجانب الآخر، تتدفق بهدوء، تحت ضوء القمر، بينما أخذت تتردد جلبة القرقرة، كما لو أن كائناً ضخماً يقترب من السطح، ثم يغوص مرة أخرى. كان الكائن الحي الوحيد الذي رآه، هو تمساح ضخم لاح طافياً، وليس سابحاً باتجاه التيار، وظهرت خياشيمه فوق سطح الماء، بينما ظلت عيناه الشريرتان تتبعانه، وهو يمشي بمحاذاة النهر، دون أن يشعر بأي خطر.

وصل إلى مكان بات فيه النهر عريضاً، وقد سدته إلى حد ما أوراق وفروع الأشجار. خاض فيه بدون تردد، فغاصت قدماه، لعمق ستة أقدام، في الطين اللزج، ثم وصل إلى موضع ينتشر فيه الحصى. التفت كائنات صغيرة حول أصابع قدميه. استمر في التقدم، وهو منحنٍ للأمام، إلى أن وصل الماء لمستوى خصره. التوى فرع تحت قدميه وجرح ساقه، واندفع كائن لدن وأملس من تحته، ولامس ساقه، وهو ينسل مبتعداً، فتسارعت نبضات

قلبه. خاض ببطء، قاطعاً بضع بوصات في كل خطوة، حتى أصبحت المياه ضحلة، وتخبط في الطين إلى أن صعد إلى الضفة الأخرى.

استدار إلى الشمال مرة أخرى، بفعل الدافع الداخلي ذاته، وعاد في الاتجاه الذي جاء منه. كانت النباتات على هذا الجانب من النهر كثيفة، واقتربت، في مواضع عديدة، من حافة النهر، فاضطر للسير بحذر وسط الظلال السوداء التي تتحرك تحت ضوء القمر. انطلق طائر من وسط فروع شجيرة، وصفق بجناحيه محلقاً بين الأشجار، محدثاً جلبة غريبة. اصطدم جسم ثقيل بالأرض، فتجاهله. وحينما تمكن مرة أخرى من رؤية دوجنز نائماً تحت ضوء القمر، أشار إليه دافع داخلي بالالتفاف يساراً نحو الأشجار. وصل إلى مكان لم يتمكن ضوء القمر من التغلغل إليه، واضطر لتلمس طريقه بيديه. مع ذلك تمكن من السير بمعدل تحركه تحت ضوء القمر حذرته حاسته السادسة، عندما كان على وشك السقوط فوق جذور ملتوية، أو الاصطدام بشجيرة.

أصبحت الأرض فجأة مستوية تحت قدميه، وبدت صلبة مثل الطين الجاف لضفة النهر. أخذ يصعد، وفي غضون بضع دقائق، بات تحت ضوء القمر مرة أخرى، وأخذ يتطلع إلى النهر، وقمم الأشجار. قطع نصف المسافة نحو جانب التل الجنوبي. كانت هناك، على الجانب الآخر، نباتات كثيفة متشابكة، تراءى له اجتيازها مستحيلاً، لكنه سرعان ما أصبح فوق ربوة تمكن عندها من رؤية نهر، أعرض من ذلك الذي عبره، عرف من تموجات سطحه، تحت ضوء القمر، أن مياهه تتدفق سريعة إلى غرب التل.

تزايدات وعورة الطريق الذي أخذ يصعد بشكل حاد، فاضطر للاعتماد على الشجيرات، والحشائش. أصبح الصعود، بعد نصف ساعة، عندما اقترب من القمة، شديد الصعوبة، فقرر أن يبحث عن طريق آخر. تحرك بشكل جانبي إلى أن وجد مكاناً تكثر فيه النباتات التي ساعدته على مواصلة الصعود. بلغ ارتفاع الطريق الأخير نحو خمسين قدماً، وكان شديد الانحدار، وحينما استدار ونظر إلى الخلف، شعر بالدوار والخوف، وأدرك أن الإرادة التي توجه تحركاته ولا تملك القوة التي تحول دون سقوطه، ودق عنقه.

أصبح، فجأة، عند القمة، وأخذ يزحف فوق حافة المضبة التي يوجد في وسطها الشيء، والذي ظن خطأ أنه برج. أدرك الآن أنه ليس برجاً أو شجرة مبتورة. فليست هناك أية جذور ظاهرة، أو أية علامة مميزة واضحة بين قاعدته والأرض التي ينتصب فوقها. بدا أنه مصنوع من مادة ليفية رمادية اللون، وأحس، عندما جرى بيده فوق سطحه الخشن، أنه يماثل لحاء شجرة. كانت قطعة طولية من هذا «اللحاء» قد تمزقت عند الجانب الغربي منه، الذي غمره ضوء القمر، والتفت على نفسها، لتصل إلى القاعدة، وقد تحول لونها إلى البني

المحروق. وبدا الجزء العميق، الذي انفصلت عنه، مثل الجرح. ومن الواضح أن ما حدث قد سببته صاعقة. كما بدت القطع الممزقة عند القمة التي تعلو رأسه بمسافة ثلاثين قدماً تقريباً، ملتوية وبنية داكنة أيضاً.

رأى في الأسفل، على الجانب الشمالي، التقاء النهرين. فقد كان هذا الجانب من التل الذي يبدو شكله كالوجه، أكثر انحداراً من الجانب الذي صعده، فرأى الماء تحته مباشرة. استطاع أن يتابع مجرى النهر، وهو يتدفق من وسط المستنقعات، نحو البحر، وهذا المشهد من الصعب رؤيته وسط نباتات القصب الطويلة. ورأى إلى الجنوب، وسط التلال، الغابة وقد لاحت في غاية الهدوء والسلام، تحت ضوء القمر. ورغم ذلك، فقد رأى كائناً يشبه الخفاش، يزيد حجمه عدة مرات عن حجم الطائر، ويصفق بجناحيه في ضوء القمر، ثم يتجه نحو الأشجار، وهو يطلق صيحة غريبة مزعجة. كما تناهت إلى مسامعه صرخة مذعورة لكائن يعاني ألماً.

ولمح من خلال فجوة في التلال الصحراء ذات اللون الرمادي الفضي - وهي الصحراء التي عبرها وهو في طريق عودته من مدينة كازاك. انتابه، للحظة، إحساس طاغ بالحنين، وتوهم أن أباه يقف بجواره. لكن خياله تلاشى بسرعة، ليخلف شعوراً بالفراغ.

انتابه، بعد أن وصل إلى هدفه، هبوط مفاجىء. كان قد ترك زمام نفسه خلال الساعة الماضية لذلك الدافع الذي حرك قدميه، في غياب إرادته، مثل ورقة شجرة يتقاذفها التيار. لكنه اختفى الآن. ظل على حالته السلبية، بانتظار صدور أوامر أخرى. لكن لم يحدث شيء. أخذ يتجول حول الجذل، ويفحصه بعناية، حيث لم يجد شيئاً آخر يفعله. كانت القاعدة متقوسة نحو الأرض، مثل قاعدة شجرة هائلة، ولم تكن هناك أية نقطة واضحة تختفي عندها داخل الأرض. وفي الواقع كانت التربة تحت قدميه صلبة ورمادية، مثل الجذل نفسه. وأكد كل هذا صحة ما عرفه بالفعل، وهو أنه لا يقف على تل، ولكن على قمة نبات ضخم. فقد رأى على الجذل نفسه نتوءات صلبة توحي بأن أوراق نباتات قد نمت في ذلك المكان، ولكنها ذبلت منذ زمن طويل.

جلس عند قاعدة الجذل، وحدق نحو البحر. أخذ يتثاءب، حين أصبح القمر في كبد السماء، وتبخر شعوره باستعجال الفهم. تساءل عما إذا كان قد أخطأ، عندما اعتقد أنه قد جيء به إلى هنا لغرض ما، ربما يكون صعود التل مسألة متعلقة بطقوس دينية صرفة، وربما طُلب منه تكرار الطقوس الدينية، كدلالة لإثبات الثقة والموافقة. وفي هذه الحالة فإن مهمته تكون قد اكتملت، وليس هناك ما يقوم به سوى العودة من حيث أتى. ولكن عندما اتجه نحو الحافة، ونظر إلى أسفل، قرر أنه من الأسلم الانتظار حتى طلوع الفجر.

لم يكن موضعه عند قاعدة الجذل مريحاً، نظراً لكونها متقوسة نحو الأسفل، مما اضطره للجلوس، وظهره بزاوية معينة. ولكن حين انزلق لأسفل ليأخذ وضعاً أكثر راحة، وجد أن الجزء المتقوس قد بات بمثابة وسادة ممتازة، بل وأن هناك موضعاً منخفضاً أسند مؤخرة رأسه إليه. تنهد من التعب، وأغمض عينيه. جرفته، بمجرد أن فعل ذلك، موجة من السلام تدفقت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وسرى الدفء في يديه وقدميه العارية. بدأ يشعر مرة أخرى بأنه خاضع للسيطرة، لكن القوة المجهولة تدفعه هذه المرة للاسترخاء.

كان أول ما لاحظه حين وصل إلى معدل السكون الداخلي أنه لم يعد مدركاً لحركة القوة المترقرقة التي تشبه الموجة. انتابته الحيرة للحظة، ثم فهم الأمر. فهو في المركز الذي تنبعث منه الأمواج، ودائماً ما يكون المركز ساكناً.

لم يعد يشعر بأي إجهاد، الأمر الذي أثار استغرابه. أدرك حالة الهدوء التي تلف جسمه المستريح، مثل وهج استمتاع ذاتي، لكن رغبته في النوم تلاشت. وتملكته، بدلاً من ذلك، حالة انفعال حذرة لكنها صامتة. فهم لأول مرة المدى الذي يقلص به ثقل الجسم حرية العقل. شعر الآن بصفاء ووضوح ذهنه، مثل صباح أحد أيام الصيف الهادئة. وأحس كأنه يفكر في حياته، وفي حياة كل البشر من ارتفاع شاهق. ومع ذلك استمر استرخاء جسمه، ووصل إلى النقطة التي ذاب فيها وعيه بشكل طبيعي، ليتحول إلى صور وأحلام. بدا كما لو أنه يقف على عتبة حجرة انتظار العقل الباطن، فقد بدأت الأصوات والصور التي لا يتحكم فيها تغزو هويته الشخصية. ولكن فيما رفض الانقياد إلى هذه العتبة، كان بمقدوره العودة إلى وعيه الكامل.

أدهشته مقدرته على منع نفسه من الاستسلام للنوم، وأدرك أن سيطرته الطبيعية على نفسه تعادل المهمة الملقاة على عاتقه. فالقوة الداخلية التي جاءت به إلى هنا، تقدم له الإرشاد والتوجيه اللذين لم يتقبلهما عقله بعد. كما انتابته الدهشة لأن هذه القوة لا تقوم بمناورات للسيطرة عليه، بل تعامله على قدم المساواة، وتحترم فرديته.

ثم انقاد إلى عالم الصور الحية التي شاهدها مرات عديدة على أرض الحدود بين النوم واليقظة. إنه عالم الأحلام، الذي دأب على ولوجه كل ليلة منذ أن وُلد، والذي بات مألوفاً لديه مثل الأجواء المحيطة بالجحر. مع ذلك فهذه هي المرة الأولى التي يراه فيها بوعيه المستيقظ. فقد ازيحت ستارة فقدان الذاكرة العادية التي تفصل بين النوم واليقظة، وبات مدركاً للصور الداخلية التي لاحت، في ظل تخيلات الأحلام المتغيرة، حقيقية ودائمة، مثل عالم الواقع الخارجي.

ولما تلاشت صور أحلامه، فهم السبب الذي تم بمقتضاه السماح له بالتريث عند المنطقة الفاصلة بين اليقظة والنوم؛ فهذا هو مستوى الوعي الذي يسعى للاتصال به. إن الكيان، الذي قدسته العناكب، باعتباره إلهة الدلتا، يعيش بشكل دائم عند المستوى الذي يسمى عند البشر الوعي الباطن. وهذا هو السبب الذي جعلها غير قادرة على الاتصال عندما كان مستيقظاً، فكلام الإلهة سيصبح، بالنسبة لذهنه الواعي، لا معنى له، مثل صوت تكسر الأمواج على الشاطىء.

أما الآن، وهو بين الحلم واليقظة، فإن كلامها في غاية الوضوح، كما لو أنه يوجه بلغة منطوقة. لكنها لغة بدون كلمات، ذكّرته بما حدث عندما خاطبه السيد لأول مرة بشكل مباشر، فلم يكن هناك إحساس «بصوت» داخل صدره، ولكن كان هناك إحساس باتصال مباشر. وصل إليه المعنى الآن في غاية الوضوح، وعرضت الآلهة الرد على أي سؤال يريد أن يطرحه.

كان أول رد فعل له هو نوع من الشلل الداخلي. شعر بشيء من التجديف أن يوجه سؤالاً إلى إلهة. لكن رد الفعل العصبي هذا أثار استجابة فورية. فقد أحيط علماً، من خلال الصور التي تتحدث في غاية الوضوح، كما لو أنها كلمات، بأنه إله مثلما هي إلهة. في الواقع لم تكن من جنس معين. ففي كوكبها الأصلي، لم يكن هناك ذكور وإناث. وكان هذا الكوكب - المعروف لدى علماء الفلك في أواخر القرن العشرين باسم «أ. ل (الفا - ليراي) ٣» - الثالث في المجموعة الشمسية لنجم أزرق يسمى «النسر الواقع» في كوكبة القيثارة. ولكون هذا الكوكب أكبر من الشمس بقليل، فقد تمتع بجاذبية تزيد بنحو مائة مرة عن الجاذبية الأرضية، ولذلك فإن رجلاً على سطحه سيزن عشرة أطنان، ولن يكون بمقدوره رفع مجرد رموش عينيه. وبالتالي فإن التناسل عن طريق الجنس أمر مستحيل، وتستمر الحياة على الكوكب من خلال نوع من التوالد الذاتي.

ونظراً للجاذبية الهائلة، تقدمت الحياة على كوكب أ. ل ٣ بمعدل أبطأ بكثير من الأرض. فقد ظهرت الحياة على الكوكب لأول مرةمنذ نحو خمسة آلاف مليون سنة، مقابل ثلاثة آلاف مليون سنة فقط على الأرض. وبعد ثلاثة مليارات ونصف مليار سنة أنتج كوكب أ. ل ٣ أول أشكال الحياة الذكية.

ولكن لم يُنظر إليها على الأرض باعتبارها كائنات حية، نظراً لأنها تشبه الجبال المنتشرة فوق الأرض، ولكن على كوكب أ. ل ٣، فإن تطوير فكرة يستغرق وقتاً يصل إلى عدد سنوات عمر الإنسان.

وبعد نصف مليار سنة حقق التطور أفضل شكل حتى الآن، وهو النوع الـذي تنتمي إليه «الإلهة». وأطلق أهل الأرض على هذه الكائنات الكرويـة اسم النباتـات التي حققت، عـلى عكس شكل الحيـاة «الجبلي»، درجـة معينة من الفـردية (رغم أن الإلهـة بدت بـالنسبـة لحواس نيال الحائرة غير فردية مثل البحـر). وعلاوة عـلى ذلـك فقـد حقق كل فـرد من هذا النوع اتصالاً ذهنياً مع الأفراد الآخرين، وتمكن من الوصول إلى ذاكرة كل أسلافه.

عُـرضت على نيـال، رداً على سؤالـه غير المنـطوق، صورة عن الأوضـاع فـوق سـطح «أ. ل ٣». كـان التألق هـو الانطبـاع الأول، إذ راح النجم الأزرق العـظيم يلمـع في السـماء ـ وهو يزيـد خمسين مـرة في إشراقه عن شمسنـا ـ وبدا كـأن ومضات بـرق مستمرة تضيء كـل شيء. وفي هـذا الضوء البـاهر لاح لـه الكوكب المسـطح الكبير وقـد امتد في كـل اتجـاه إلى مـا لا نهاية. ونظراً لأن «أ. ل ٣» أكـبر بكثير من الأرض، فـإن أفقه بـدا بعيداً للغـاية. وظهـر كوكبنا صغـيراً جداً، بـالمقارنـة مع «أ. ل ٣». وفي وسط هـذا الكوكـب بـدت الجبـال التي يزيد ارتفاعها ألف مرة عن ارتفاع الجبال على الأرض مثـل أقماع متسـاوية في الحجم. وقـد انكسرت الرتابة السائدة فوق هذا الكوكب البـاهر بـوجود بضعـة نباتـات نصف كرويـة تعتمد كـل منها عـلى مساق ـ أطـول بكثيرٍ من الجـذع الذي يستنـد إليـه الآن ـ تقـوم من خـلالـه بالاتصال مع النباتات الأخـرى التي من نوعها.

ومنذ مائة وخمسين مليون سنـة وقع تحت هذا السطح المستوي المستقـر انفجار أحـدث حفرة هائلة، وألقى في الفضاء كمية من المـواد كانت كافية لتشكيـل كل كـواكب المجموعـة الشمسيـة التي تنتمي إليها الأرض. ويرجع سبب هذا الانفجار إلى قوة جاذبيـة شظيـة أحد النجـوم انطلقت من مجرة منفجرة. وتعلق بعض المـواد في «ذيل» هـذه الشظيـة التي تشبه المذنب، وأبحر في الفضاء لآلاف عديدة من السنين. وخلال هذه الفتـرة ظلت الحياة قـابعة في الذيل ـ على شكل خلايا ميكروسكوبية ـ ولكنها خـاملة بفعل صـدمة الانـدفاع، ومجمـدة بفعل البرد الجليدي في الفضاء. وحين عاد إليها وعيها من جديـد وجدت نفسها محـاصرة في ذيـل مذنب آخـر ـ لم يكن شريحة أحـد النجـوم هـذه المرة، بـل كرة من الغـاز يبلغ قطرهـا خمسين ألف ميل ـ وكانت في طريقها إلى مجموعتنا الشمسية.

وعندما ألقى الانفجار في البداية بهذه الخـلايا الحيـة إلى الفضـاء هيمنت عـلى الأرض الـدنيا صـورات الضخمـة التي تنتمي للعصر الجـوراسي. ولما حف ذيـل المـذنب «أوبيـك» بالأرض، مخلفاً بعض هذه الخلايـا البوغيـة في الغلاف الجـوي المحيط بالأرض، كـان معظم الجنس البشري قد هجر الكوكب في مركبات فضاء هـائلة، وبدأ رحلتـه الطويلة إلى مجمـوعة نجوم الظُلمات، وحمل الكوكب اسم «الأرض الجديدة».

وسقط معظم الخلايا البوغية في المحيط وهلك أما البقية فقد سقطت في الصحاري، أو المناطق القطبية، واضطرت إلى الانسحاب والبقاء في حالة السُبات الشتوي الدفاعي. ولم تنجح سوى خمكس خلايا في النمو: اثنتان في وسط افريقيا، وواحدة في جنوب الصين، وأخرى فوق جزيرة أمام ساحل بورنيو، وواحدة في الدلتا الكبرى.

وكانت الحياة في غاية الصعوبة، حتى بالنسبة للخلايا الناجية التي تعودت على التطور ببطء على مدار آلاف السنين معتمدة على مجال جاذبية قوية. ولكن في ظل الجاذبية المنخفضة للأرض، فقد تسارع معدل عملياتها الجزيئية، فانتفخت مثل البالونات حتى باتت معرضة لخطر الانفجار. ولو مرت أية كائنات أرضية بظروف مماثلة لكانت قد فنيت. ولكن النباتات العملاقة حققت درجة من السيطرة على أجسامها، يراها البشر أشبه بالمعجزة. فقد تكيفت مع ظروف الأرض - رغم أنها كانت تنمو بمعدل يزيد عشر مرات عن معدل زيادتها على كوكبها - وتغذت على طاقاتها وغلافها الجوي، وحققت في غضون أعوام تطوراً كان سيستغرق قروناً فوق كوكب أ. ل ٣.

وبالتالي وجدت هذه النباتات مليون ميل من نجم عادي يسمى الشمس. وتطورت في هذه النباتات نزعة الصراع من أجل البقاء بمعدل من الوعي أعلى بكثير من معدله لدى تلك التي ظلت فوق كوكبها. وبالمقارنة مع أشكال الحياة الأخرى على الأرض، أدركت أنها تواجه ظروفاً معوقة. فعلى الأرض الحياة النباتية هي فقط التي ليس بمقدورها التحرك بحرية، ولكن في مجال جاذبيتنا المنخفض يحدث التنقل بسهولة. وحين بدأت هذه النباتات الخمسية الغريبة في التطور كان لحمها رقيقاً وشهياً، وجده العديد من أنواع الطيور والحشرات لذيذاً. ولم تكن أمامها سوى طريقة واحدة فقط للدفاع عن نفسها، وذلك عن طريق استغلالها قدراتها التخاطرية لتحقيق سيطرة مباشرة على أذهان هذه الضواري. ومن هنا تمكنت الخلية البوغية الصغيرة التي هبطت على طين الدلتا اللين أن تصبح امبراطورة الدلتا، والمهيمنة المطلقة على كل أشكال الحياة فيها.

كان بمقدور نيال تتبع القصة بدون أية صعوبة، فقد سُردت عليه من خلال سلسلة من الصور في بساطة كتب الأطفال المصورة. لكنه أراد أن يعرف السبب الذي دفع النباتات العملاقة لبث موجات الحيوية الخالصة لأشكال الحياة الأخرى - وهي الحيوية التي مكنت العناكب أن تصبح سادة الأرض - إلا أنه وجد من الصعب عليه فهم هذه النقطة، فقد دلت الإجابة، كما ظهرت أمامه، على أن هذه النباتات الغريبة وجدت الأرض مثيرة للضجر بسبب افتقارها للتنوع. ولكن لو أخذنا في الاعتبار طبيعة كوكبها الرتيبة، فستبدو هذه الإجابة غير منطقية. لكنه بدأ يستوعب الأمر. فعلى الكوكب الذي نمت فيه هذه النباتات،

التزم كل واحد منها بمكان محدد، لكنه تحرك بذهنه إلى أماكن أخرى، وذلك بمجرد التعرف على هوية ذهن نبات آخر من فصيلته. بل إن النمو ذاته كان جهداً جماعياً جباراً شارك كل نبات فيه بدور. وهذا هو السبب الذي يفسر توقف نموها على الأرض. فلم يكن هناك العدد الكافي منها لدعم ضغط الأفكار الضروري.

أدرك نيال، دون مزيد من الإيضاح، أنه لم يكن هناك سوى حل واحد. فإذا ما كان يتعين تطور هذه النباتات فإنها بحاجة إلى صحبة كائنات عملاقة أخرى مثلها. وإذا لم تكن موجودة فإنها ستضطر لخلقها، وذلك عن طريق حقن الحيوانات والطيور، بل والأشجار والنباتات، بمزيد من الحياة.

بدت المهمة مستحيلة. لكن النباتات امتلكت صبراً لا حدود له. ونظراً لأن قدراتها التخاطرية مكنتها من الاتصال بأذهان الكائنات الحية الأخرى فإن الأمر لم يكن يعني أكثر من زيادة قدراتها عن طريق بث الحيوية الخالصة ـ أي قوة حياة الأرض نفسها. وأصبحت امبراطورة النباتات ورفيقاتها بمثابة محطات بث هائلة.

وبدأت كل الكائنات التي بمقدورها استقبال هذه الذبذبات تنمو بمعدل متسارع. ولسوء الحظ فإن هذه الكائنات لم تتضمن الإنسان الذي كان ذكاؤه قد تطور بالفعل بمعدل حال دون استفادته من هذه الحيوية الخام. لكن العديد من الكائنات الأخرى امتلأت بإحساس الطاقة والقوة المتهورة التي وصلت في حالات عديدة إلى درجة عالية جعلتها لا تخشى الموت نفسه. (تذكر نيال الطريقة الانتحارية التي واصلت بها الكائنات التي تشبه الضفادع هجومها، رغم رؤيتها لرفاقها وقد افنتها الأسلحة الحاصدة). وتطورت أنواع عديدة من الحشرات لتتحول إلى حشرات عملاقة ـ وقد كانت الحشرات أكثر تأثراً بموجات الحيوية هذه ـ بل إن فطر الأشجار البسيط، وهو نوع من أنواع الفطريات، تطور ليتحول إلى فطر رخوي متحرك. وأصبحت نباتات عادية كثيرة تقتات على الحشرات، مثل الأعشاب الأفعوانية، والشجرة الخانقة. وتحولت يرقة الحدائق العادية إلى حبار أرضي يخفي نفسه في التربة، مثلما يختفي الأخطبوط في قاع المحيط.

لكن العناكب تمثل القصة الأكثر نجاحاً. فهذه الحشرات تمثل نوعاً قابلاً للتكيف يتراوح بين العنكبوت السرطاني الصغير وبين العنكبوت الضخم آكل الطيور الذي يعيش في الغابات الاستوائية. وكانت العناكب من الأنواع التي تقبلت أكثر من غيرها ذبذبات امبراطورة النباتات؛ فهيكلها الخلوي ـ المماثل لهيكل فطر الحبار ـ موصل جيد بشكل خاص لقوة الحياة. كما امتلكت الكثير من الصفات التي امتازت بها النباتات، مثل الصبر والحذر

والتصميم، وطورت، خلال نموها في الجسم، نسبة ذكاء هائلة، مع قوة إرادة.

وكان الإنسان نفسه هو العدو الأكبر للعناكب خلال الأيام الأولى. فعندما احتك ذيل مذنب «أوبيك» المشع بالأرض تعرض تسعون في المائة من البشر الباقين للفناء. وعانى الكثير من أولئك الذين نجوا من أمراض اشعاعية، ومن تغيرات وراثية - بل إن إحدى المجموعات في وسط آسيا ظهرت لها مخالب في أيديها وأقدامها. وأدت هذه الكارثة إلى ارتداد الإنسان إلى المرحلة البدائية. وانتقل من المدن إلى القرى مرة أخرى، ولم يعد يستخدم القنابل الذرية، والأسلحة الحاصدة، ومسدسات الليزر التي تخلها عنها وعاد الى الرمح والقوس والسهم. ورغم كل ذلك فقد ظل عدواً خطيراً. وقام أحد القادة العظام، وهو «إيفار» القوي، بغزو أراضي معظم جيرانه من البشر، واستخدم العبيد في بناء مدينة «كورش» المسورة التي باتت حصينة مثل طيبة، أو بابل، وطرد كل العناكب بعيداً عن بلاد ما بين النهرين، وأصبح حاكماً على مجتمع زراعي ناهض. أما حفيده «سكابتا» الماكر فقد أوقع قائد العناكب في كمين بوادٍ ضيق يسمى «مورسات»، وقتل ثمانية آلاف منها في هجوم مباغت. وبعد ذلك. وهاجم عاصمتها الواقعة على ضفاف النهر العظيم، وحرقها بالكامل. لكن سكابتا كان قاسياً بالإضافة إلى مكره، وقتل الكثير من رعاياه، الأمر الذي أدى في النهاية إلى اغتياله على يد وزيره «جروديج» الذي تولى ابنه «تريفيج» الحكم. وجاء بعد تريفيج أعظم الملوك المحاربين، وهو «فاكين» الحكيم، ابن فلاح بسيط عاش على حافة الصحراء، وكان يتمتع بقوة جسدية هائلة لما رأته «مانسيا» ابنة الملك، عندما خرجت للصيد، وقعت في حبه وتزوجته. وخلال حكم فاكين الذي استمر ثمانية وستين عاماً، غزا الإنسان أرض العناكب، وطردها إلى ما وراء حدود أرض فاكين، بل قام البشر باصطيادها للحصول على سمها الذي يُبقي الحيوانات في حالة شلل خلال أشهر الشتاء الطويلة، عندما يكون الغذاء شحيحاً.

وجاءت نقطة التحول بعد موت فاكين، خلال فترة حكم «شيب» سيد العناكب. وتشير الأسطورة إلى الطريقة التي تعلم بها شيب أسرار الروح البشرية، من المرتد «هالات» الذي خان جنسه ليحظى بحب الأميرة «تيرول». لكن الحقيقة أقل مأساوية من ذلك. فالعناكب تعلمت من هزائمها، في ظل حكم فاكين الحكيم، أن عدوها الحقيقي ليس الإقدام البشري، ولكن الذكاء الذي يتمتع به الإنسان. وكان من بين مستشاري سيد الموت عجوز اسمه «كيسيب»، يُعرف أيضاً بين أفراد نوعه بالحكيم. (كانت مفاجأة لنيال أن يعرف أن للعناكب أيضاً مفكريها وحكماءها). افتتن كيسيب بأسرار السلوك البشري، وراح يكرس أيامه لدراسة مجموعة من الأسرى البشر. وجاء اكتشافه الكبير بالصدفة، حينما احضروا إلى بيته طفلاً حديث الولادة، لامرأة ماتت أثناء الوضع. اعتنت إحدى بناته

بالطفل الذي كان يسمى «جوراك»، وعاملته كحيوان أليف. دُهش كيسيب عندما وجد الطفل متعلقاً بشدة بابنته، وبه شخصياً، وبدا أنه يعتبر نفسه عنكبوتياً وليس إنساناً. وبدأ يفهم، من خلال جوراك، قلب الإنسان وروحه، وأدرك مدى سهولة التحكم في الإنسان من خلال عواطفه وتوقه إلى الأمن.

من هنا بدأت العناكب تقوم بعملية الاستيلاء على الأطفال حديثي الولادة من أمهاتهم لتربيهم بين العناكب الصغيرة. وبهذه الطريقة نجحت في تكوين طبقة خدم من البشر يكنون ولاءً تاماً للعناكب، ويحتقرون رفاقهم البشر. وكان فاكين الحكيم قد استخدم عناكب الصحراء الرمادية كجواسيس، أما الآن فقد استخدم سادة العناكب الخدم من البشر بالأسلوب ذاته. وتعرضت المجتمعات البشرية التي واصلت المقاومة ضد العناكب، للخيانة. وفي غضون أجيال قليلة، تم تدمير تراث فاكين الحكيم، وتم قتل أو أسر كل البشر في بلاد ما بين النهرين.

صُدم نيال عندما أدرك أن العناكب تدين بانتصارها إلى خدمها من البشر، ولكن لم يكن هذا أسوأ ما في الأمر. فقد علم أنه قد قامت ثورة للعبيد خلال حكم «جريب» الذي خلف «كيسيب»، تم التخطيط لها بعناية، وقبل قمعها قُتل الآلاف من العناكب، خدمها من البشر. وطلب سيد الموت من «جريب» التوصل إلى طريقة لمنع تكرار مثل هذه الكارثة مرة أخرى. وكان أول اقتراح يطرحه جريب هو قتل جميع العبيد، حتى يكون البشر الباقون من الخدم الموالين للعناكب. لكن هذا الاقتراح لم يكن عملياً، فهناك عدد كبير من العبيد، بالإضافة إلى أن العناكب تريد الحفاظ على هذه الطبقة لأنها اكتشفت أن طعم اللحم البشري لذيذ، وهي ليست مستعدة بطبيعة الحال لالتهام خدمها الموالين.

وتوصل أحد خرم «جريب» من البشر إلى الحل. ولم يتم حفظ اسم الخائن، وكل ما عُرف عنه أنه قُتل في عملية تربية الماشية. لقد كان هذا الرجل هو الذي اقترح أن تقوم العناكب بتربية العبيد بالطريقة التي تُربي بها الماشية، واختار بعناية أكثر البشر بدانة وغباء للتناسل، وللإبقاء على النوع. وأي إنسان يظهر دلائل على ذكاء غير عادي يتم القضاء عليه قبل فترة طويلة من وصوله إلى سن الرجولة. وتم تطبيق هذه الأفكار، وحققت العناكب في غضون جيل واحد هدفها، وهو الإخضاع الكامل لأخطر أعدائها. وأصبح البشر ينظرون إليها على أنها سادتهم. ولم يعد التحدي ـ أو حتى الاستياء ـ موضوعاً لأي تفكير.

تزايد غضب نيال، وهو يصغي لكل هذه القصة، حتى شعر بالاختناق من تفاصيلها. وكان غضبه موجهاً ضد النباتات العملاقة والعناكب؛ فهي المسؤولة عن جعلها سادة

الأرض. واعترته، وهو يفكر فيهـا وفي فكوكها السامة وعيونها الشريرة، موجة من الاشمئزاز والكراهية. كيف يمكن لأي إنسان أن يأخذ جانب النوع الذي قتـل والتهـم واستعبد رفاقه من البشر؟

بدا أن غضبه قد أثار استجابة شخصية أكبر في النباتات، وجاء الرد في وضوح الحديث الإنساني. وجه النبات حديثه إليه مباشرة، كما لو أنه يتحدث بصوت مرتفع، وبدا أنه يقول:
ـ إذن كيف بمقدورك أن تقف بجانب نوعك؟ لقـد قتـل واستعبـد والتهم رفاقـه من الكائنـات قبل أن تفعل العناكب ذلك بفـترة طويلة. وقتـل البشر أعداءهم واستعبـدوهم وربوا الحيوانات لالتهامها. كيف لك أن تقول إنهم أفضل من العناكب؟

شعر، للحظة، بالخوف من تهوره. ثم أدرك أن هذا الخوف لا أساس له. فإمـبراطورة النباتات بمثابة إنسان خارق، وبالتالي لن ينتابها أي ضيق. وبالإضافة إلى ذلك، بوسعها فهم أفكاره سواء تحدث عنها، أم لم يتحدث. كما شجعه إحساسه أنه لم يكن مخطئاً تمامـاً عنـدما فكر في العناكـب وما فعلته بعائلته، فتزايد شعوره بالغضب.
ـ لقد احترم البشر الذكاء. وتدرك العناكب أن البشر أذكياء مثلها تماماً، ومع ذلك فقد صممت على القضاء عليهم.
ـ كما ستقضي أنت على العناكب.

قال بتحدٍ: نعم، سأقضي عليها.

ثم تلاشى غضبه، وأدرك وهو ينظر إلى روح امبراطورة النباتـات أنـه لا علاقـة لها بالموضوع. فما يشغل بال النباتات العملاقة ليست الأنواع، بل عملية التطور، ولا يهمهـا مَنْ يكونون السادة، ومَن العبيد.

وإلى جانب ذلـك فإن القصة لم تنته بعد. فقد أدركت النباتات، بعد قـرن من استعباد الإنسـان أن هنـاك خـطأ مـا، إذ تبـاطـأ تـطور العنـاكب، وأصبحت كسـالى تفضـل البقـاء طوال اليوم في نسيجها، تصطاد الذبـاب لمجـرد المتعة الـرياضيـة، وتملأ بـطونها بلحم البشر والحيوانات. وقد حاولت النبـاتات زيـادة معدل حقن الحيـوية، لكن ذلـك لم يغير من الأمـر شيئاً، وبدا أن العناكب تقبل ذلك على أنه هدية مجانية.

ثم فهمت النباتات الخطأ الذي وقعت فيه. فعلى كوكبـها كانت الحياة صعبة وقاسيـة للغاية، مما جعل الصراع من أجل التطور يأتي في المرتبة الثانية. أما الأرض، بـالمقارنـة، فقد اتسمت بـالتنوع، وكـانت النتيجـة أن كـائنـاتـهـا تـطورت حينـما كـانت تتـورط في صراع أو مواجهة. ولم يطرأ أي تغير هام على العناكـب خلال العشرة ملايين سنة الأولى من تطورهـا.

وبعد أن أصبحت في غضون قرون قليلة سادة الأرض، غمرها الشعور بالسعادة والأمان، ولم تعد ترى سبباً لبذل أي مجهود يساعدها على التطور.

وقررت النباتات الدخول في تجربة جديدة. فقد دأبت خنافس المدفعية على النظر إلى العناكب على أنها عدوها اللدود. وهي تدافع عن نفسها بإحداث انفجار صغير من الغاز الساخن الذي يردع معظم أعدائها الطبيعيين. ولكن إذا ما سقطت خنفساءة في نسيج العنكبوت، وبدأ يغزل شرنقة الحرير حولها، فإنها تصاب بالشلل، إذ أن نظام اطلاق الغاز ينشط إذا ما تعرضت لهجوم مباشر فقط.

واتجهت النباتات العملاقة إلى تركيز جهودها على خنفساء المدفعية، وحددت طول موجة الحيوية التي تستجيب لها الخنافس، وبثت هذه الموجة بكثافة متزايدة. وتعلمت الخنافس بمجرد أن أصبحت «أكثر حيوية» كيفية التغلب على هذا النقص. فحين يحاول عنكبوت إيقاع خنفساءة في حريره تتسارع بالهرب منه، وتنفث دفعة من غازها الساخن.

وكانت العناكب قد تعودت على الأسلوب القديم فشعرت بالحنق من هذا التحدي. وتصاعد غضبها إلى أن قررت ضرورة إبادة الخنافس. (ابتسم نيال بامتعاض، فقد كان هذا هو ما توقعه). لكن الخنافس كانت قد كسبت ثقة جديدة من حصانتها، ودافعت عن نفسها بشجاعة وتصميم. وحين ضاعفت العناكب جهودها ضاعفت الخنافس مقاومتها. وخلال القرون التي راح فيها الجانبان يتصارعان من أجل الهيمنة قام كلاهما بتطوير معدلات جديدة من قوة الإرادة والذكاء. وفي النهاية ساد الذكاء والرأي الصائب. وعندما اقترح سيد الخنافس هدنة وافقت العناكب عليها بلهفة. ولكن حينما استقرت الأمور، وعاش الجانبان في هدوء، بدأ التطور يراوح مكانه مرة أخرى.

وأكدت التجربة ما عرفته النباتات بالفعل، وهو أن الكائنات على الأرض تتطور عندما تضطر للصراع. وبذلك أثبتت محاولة خلق كائنات عظمى فشلها.

ومع ذلك ظل هناك احتمال آخر. . .

فقد ارتكب سادة الموت خطأ خطيراً إذ كانوا على ثقة من أن الإنسان لم يعد يشكل خطراً على نوعهم. صحيح أن البشر في الصحراء ظلوا أحراراً، لكنهم كانوا مفيدين في عملية التكاثر، واقتنعت العناكب بأنهم لا يشكلون أي تهديد حقيقي.

لكنها أدركت الآن، بعد فوات الأوان، مدى حماقتها. وجاء هذا الإدراك بشكل مفاجىء تماماً بعد يوم واحد من الغارة على الحصن. فقد قُتل ما يزيد عن ثلاثة آلاف منها، بينما عدد كبير آخر في حالة كرب. وأحس كل عنكبوت في المنطقة المحيطة بالحصن

بمدى العـذاب الذي تواجهه العناكب. وفي ذلك اليوم أدرك سادة العناكب أن صراعهم من أجل السيادة على الأرض قد انتهى بالفشل.

غمرت الفكرة نيال بشعور المنتصر، وتذكر ابتهاجه وهو يصوب الحاصد إلى عنكبـوت ويسحب الزناد. لكن إحساسه تلاشـى بعد أن شعـر باشمئـزاز امبراطـورة النباتـات، ووجد نفسه مثل صبي ضُبط وهو يقوم بعمل محظور. حـاول كبح جماح أفكاره، كـما لو أنـه يحبس انفاسه. وحين وصل هذا الجهد إلى أقصى مـداه لم يتمالك نفسه، وتساءل في نهاية المطاف:

ـ ما الذي تعتزمين القيام به؟

فاجأته الإجابة.

ـ الموقف أصبح الآن بين يديك.

استغـرق الأمـر بضـع لحظـات قبـل أن يتمكن من استيعـاب هـذا الاتصـال المثـير للدهشة. واضطربت أفكاره. أتعني النبات. . . ؟

تساءل: أتعنين أن بمقدورنا تنفيذ ما نشاء؟

ـ لا نستطيع منعكم.

لم يصدق ما يسمعه.

ـ بمقدورك منعي من الرحيل، بمقدورك ذلك.

لم يكن بإمكانه إخفاء أفكاره، فقال: اقتليني!

ـ لا. لقـد جئت إلى هنا حسن النيـة لأننا أبـرمنا اتفـاقاً. ولا نسـتـطيـع خـرق هـذا الاتفاق.

هز رأسه في حيـرة وتساءل: ولكن ما الذي تريدين مني أن أفعل؟

جاءه الرد في غاية الوضوح، كما لو أنه منطوق.

ـ يجب أن تفكر، ثم تتخذ قرارك. أنت حر.

أصابته الفكرة بالتوتر. فقد بدا مستحيلاًأن تُعرض عليه الحرية المطلقة. مع ذلـك كان ذهن النبات مفتوحاً أمامه: ولا يمكن أن يكون هناك أي خداع.

ـ نحن أحرار في استخدام الأسلحة الحاصدة ضد العناكب؟

ـ إذا ما قررتم ذلك.

تخيل عودته إلى مدينة الخنافس، وقيامه بتعبئة البشر لمحاربة العناكب. وتصـور الهجوم على مدينتها، وتدمير مقر سيد الموت. واستطاع رسم صورة للعناكب وهي تفر من مدينتها في

حالة ذعر، ثم اصطيادها الواحد تلو الآخر. ويتحد البشر بعد ذلك لإعادة بناء المدينة، ويعيدون اكتشاف أسرار الماضي بمساعدة البرج الأبيض حتى لا يكون هناك سبب للخوف من العناكب. وسوف تنير الأضواء المباني المرتفعة، ويلهو الأطفال بسعادة في الحدائق، ويملأ الرجال والنساء الطرقات وهم يتوجهون إلى أشغالهم اليومية، ولن يكون هناك أي نسيج عنكبوتي شرير فوق الرؤوس ويستأنف الإنسان من جديد الاضطلاع بدوره الصحيح سيداً على الأرض. . . إنها رؤيا رائعة غمرته بالنشوة.

ـ وماذا بعد؟

أوقف السؤال قطار أفكاره المنطلق، ولم يتمكن من استيعابه، وراح يكرر بعدم فهم: ماذا بعد؟

ـ ما الذي سيفعله البشر عندما يصبحون سادة الأرض؟

وجد أن السؤال لا معنى له. أليست الإجابة واضحة؟ إنهم سيشيدون حضارة جديدة ويعيشون في سلام.

ـ كما فعلوا في الماضي؟

وجد هذه الأسئلة مزعجة. فطالما أن بوسع امبراطورة النباتات قراءة ذهنه فما الذي يجعلها تتجشم عناء طرح الأسئلة؟

ـ حتى تفكر ملياً في الأمر. فعندما تغادر هذا المكان سيكون لك مطلق الحرية في القيام بما تشاء. ولكن قبل أن تتخذ قرارك أريدك أن تفكر في العواقب.

هز رأسه وقال: صحيح أن البشر خاضوا في الماضي حروباً لا نهاية لها. ولكن قبل رحيلهم عن الأرض بقرن لم تكن هناك أية حروب.

ساد الصمت بعد هذه الجملة، وانتظر السؤال التالي. ولكن حين لم تطرح أية أسئلة وجد نفسه يفكر فيما قاله لتوه. صحيح لم تقع حرب أخرى، فقد أبلغه الرجل العجوز في البرج الأبيض بذلك، لكنه قال أيضاً: «بحلول الوقت الذي رحل فيه البشر عن الأرض لم يكونوا قد توصلوا إلى لغز سر السعادة». تردد صدى الكلمات في ذاكرة نيال في غاية الوضوح، كما لو أنها قد قيلت لتوها. كما تردد صدى جملة أخرى: لقد ألف عالم أحياء شهير كتاباً أكد فيه أن البشر سيموتون في النهاية من الملل.

قال: لن أموت من الملل. سوف أستغل مرآة التأمل في تعلم السيطرة على ذهني.

ـ سوف تفعل ذلك. ولكن ماذا عن الآخرين؟

ترافقت مع السؤال صورة دوجنز. عندئذ فهم السبب الذي يجعل النبات يطرح الأسئلة، فهو لا يريد معرفة ما يدور في ذهنه من أفكار، وإنما يريده أن يدرك بنفسه ما يفكر فيه.

قال: من المؤكد أن بمقدورهم التعلم أيضاً.

لكنه رأى أن كلامه يفتقر إلى عنصر الاقناع.

ـ أتعتقد أنهم سيتعلمون بيسر إذا ما أصبحوا سادة الأرض؟ وعندما ظل صامتاً استطرد النبات: لقد رأيت ما حدث حين تحقق النجاح للعناكب وخنافس المدفعية. فما الذي يجعلك تظن أن البشر مختلفون؟ قال بتؤدة: البشر مختلفون. فهم ليسوا كسالى مثل العناكب.

ـ ربما هذا صحيح. ولكن يرجع ذلك إلى أن حريتهم محدودة. ألم تلحظ مطلقاً أن البشر يكونون في أفضل أحوالهم عندما يحصلون على قدر محدود من الحرية؟ ثم يقاتلون ويناضلون لنيل مزيد من الحرية. وإذا ما نال البشر فجأة قدراً كبيراً من الحرية فإنهم يشعرون بالحيرة والاضطراب، ويفقدون إحساسهم بالغرض من صراعهم.

لم يحر رداً، فقد عرف أن كل ما قاله النبات صحيح.

ـ ماذا تظن سيحدث إذا ما قضى البشر على العناكب؟ حاول أن تتخيل ما يمكن أن يحدث. في البداية سيبتهجون لأنهم نالوا حريتهم، وسيقومون بإعادة بناء مدينتهم، وحرق كل الأنسجة العنكبوتية، ومواصلة الاحتفالات العظيمة. ثم يبدأون تعليم أنفسهم كل الأشياء، التي حظرتها عليهم العناكب ـ مثل صنع الطائرات والسفن ومركبات الفضاء. ولكن في غضون أعوام قليلة سوف ينسون أنهم كانوا عبيداً لدى العناكب. وسينظرون إلى حريتهم على أنها مسألة مسلّم بها. وسوف ينشغل أحفادهم بالبحث عن المغامرة للهروب من حالة السأم. تعرف أن كل ذلك حدث من قبل. أتريد أن يحدث الشيء ذاته مرة أخرى؟

هز رأسه، وبدأ يقينه الداخلي يتلاشى.

ـ ليس كل البشر يحبون ذلك.
ـ أتعرف واحداً لا يحب ذلك؟

عندما فكر في الأمر كان عليه أن يعترف بفشله. فكر في كازاك ورغبته في تحقيق القوة، وفي انجليد بغطرستها وغرورها، وفي ميرلو بأنانيتها وطريقتها الخاصة في الحب، فبدا واضحاً أن النبات على حق. بل أن دوجنز الذي يمتاز بحسن طباعه شخصيته محدودة

بشكل غريب، ويعاني من ثقة متزايدة في النفس، وعدم إدراك تام لجوانب النقص في تركيبته.

- إذن ماذا تريدين منا أن نفعل؟

ورغم أنه طرح السؤال، إلا أنه عرف ما ستكون عليه الإجابة.

- يتعين عليك أن تقرر بنفسك.

- لكنك تقولين إنه يجب علينا أن نتعلم التعايش مع العناكب؟

لم تصله أية إجابة فرأى أن السكوت علامة على الموافقة. طرأت على ذهنه فكرة وهو يتأمل ذلك.

- قد نضطر - إذا ما طردناها خارج المدينة - إلى إبرام هدنة معها مثل تلك التي أبرمتها مع الخنافس.

- لا. ذلك مستحيل.

- لِمَ؟

- لأنكم سوف تستخدمون الأسلحة الحاصدة لطردها من المدينة. وبمجرد استخدامكم لها ضد العناكب، ستكونون قد بدأتم عملية لن يكون بمقدوركم السيطرة عليها. وستجدون أنفسكم مضطرين للاستمرار فيها إلى أن تقضوا عليها.

وجد هذا الكلام منطقياً. فإنسان يحمل حاصداً هو في نظر العناكب أفعى قاتلة تثير فيها الخوف والاشمئزاز. وسوف ترد العناكب عاجلاً أم آجلاً بالعدوان، وسيضطر البشر إلى القضاء عليها.

- ولكن إذا لم نستطع استخدام الأسلحة الحاصدة فكيف لنا أن نجبر العناكب على منحنا حريتنا؟

- ليس بوسعي الإجابة عن ذلك. لا بد وأن تفكر في ذلك حتى تتوصل إلى حل.

اعترته موجة من الغضب والإحباط، وبدا كما لو أنه سقط في شرك نسيج عنكبوتي منطقي يشوب كل حل محتمل فيه نقيصة ما. لقد كان دافعه الأساسي هو القضاء على العناكب، ولكن إذا ما تحقق له ذلك فإن الإنسان سيصبح سيد الأرض. إلا أنه لم يستعد بعد ليصبح سيد الأرض، ولتحقيق ذلك فإنه بحاجة لمزيد من السيطرة على ذهنه، وسيكون بمقدوره تحقيق تلك السيطرة على نحو أيسر إذا ما ظلت العناكب على الأرض لتذكّره بضرورة مواصلة الصراع لنيل حريته. بدت المسألة محيرة على نحو لا يمكن تصوره، ولكن الإنسان في حاجة إلى العناكب أكثر من حاجة العناكب إلى الإنسان.

وإذا ما استخدم الإنسان الأسلحة الحاصدة فإنه سيقضي على العناكب. ولكن إذا ما دمر الأسلحة الحاصدة فما الذي سيحول دون انتقام العناكب ورغبتها في إفناء الكائنات التي كادت أن تقضي عليها؟

لم يبد أن هناك حلاً لهذه المشكلة. وبذل جهداً للسيطرة على إحساسه المتزايد باليأس.

- هل بوسعكِ تقديم يد المساعدة؟

ران صمت، ولكنه شعر هذه المرة ببادرة أمل، فقد بدا كما لو أن امبراطورة النباتات تحاول الإجابة على سؤاله. ثم انتابه إحساس بوخز خفيف في جلد جبهته ذكّره بأمر ما لم يتمكن للحظة من تحديده. لكنه تذكر مع تزايد الوخز اللبادتين اللتين كانتا تضغطان على جبهته في البرج الأبيض. أدرك فجأة كما لو أن جسمه يطفو، في الوقت الذي تزايد فيه الوخز، حتى تحول الى وهج مكثف من النشوة. أدرك في هذه المرة ما يحدث. فالنبات يبذل جهداً هائلاً لزيادة معدل ذبذبة الحياة الى ان يتمكن الكائن البشري من استيعابها مباشرة. ولكن كان هذا شبه مستحيل؛ فالنبات نفسه لم يكن على معدل مرتفع بالقدر الذي يكفي لتحويل قوة الحياة الخام للأرض إلى ذبذبات مكثفة مطلوبة لتحفيز الذهن البشري. ورغم ذلك راح النبات يبذل جهداً جباراً لرفعه الى معدل أكبر من الإدراك.

ثم حدث أمر ما. ففي اللحظة التي ضعفت فيها طاقة النبات بدا أن طاقة أخرى قد اضطلعت بالمهمة وبسهولة غريبة غمرت ذهن نيال بفيضان من الضوء الأبيض في وسطه صوت لا يختلف عن رنين جرس. ثم لاح الأمر، مرة أخرى، كما لو أن الشمس قد ارتفعت من تحت أفق ما بداخله فغمره إحساس بقوة طاغية ترتفع من أعماقه، وتسعى لشق طريقها بقوة للخروج من خلال مخرج جسمه الضيق، كما لو أن قوة جارفة تحاول الاندفاع من وادٍ ضيق. شعر أن جسمه قد ينفجر إذا ما استمر هذا الوضع، لكنه لم يول أهمية لهذا الإحساس، فقد بدا جسمه مجرد عائق.

ثم سيطر على القوة نظراً لإدراكه بأن جذورها تتغلغل بداخله، وأوقف التجربة بشكل متعمد؛ فقد رأى كل ما يريد رؤيته. ارتجف جسمه من الانهاك بعد أن انحسرت الطاقة مثل موجة ترتد على نفسها. تنهد بعمق، وترك التعب يغسله مثل حمام دافىء يمحو إدراكه.

- ٨ -

حين عاد إليه وعيه شعر بأشعة الشمس فوق وجهه وذراعيه العاريتين، كما أحس بدوار غريب. فتح عينيه فانتفض مذعوراً عندما رأى طائراً هائلاً على بعد بضعة أقدام يتطلع إليه. بدا منقاره المقوس كبيراً يستطيع به فصل رأسه عن جسمه. لكن الأمر الذي أثار حيرته هو أنه وجد نفسه ينظر إلى طائرين، ورغم أنهما مختلفان اختلافاً بيناً، إلا أنهما وقفا في المكان ذاته. تمكن من رؤية هذا الكائن الشرس بغاية الوضوح برأسه الخالي من الريش ومخالبه القوية. ولكنه رأى فوق هذا الكائن طائراً آخر أكبر قليلاً منه، له جسم شفاف، ولا يبدو شرساً على الإطلاق، بل إنه لطيف ودود، ويفتقر في الوقت ذاته للثقة بالنفس. وعندما تحرك وجلس ارتفع الطائر، وحلق مبتعداً، ليختفي فوق أشجار الغابة ضارباً الهواء بجناحيه الضخمين.

هب واقفاً، وتطلع نحو الشرق فوجد أن قرص الشمس قد قطع نصف المسافة نحو قمة سلسلة الجبال، مما يشير إلى أنه قد مرت ساعة على الأقل منذ بزوغ الفجر. ارتفع ضباب فضي خفيف فوق الأشجار فبدت له الغابة تتنهد بارتياح لقدوم الشمس.

رأى بوضوح، حينما حجب الشمس عن عينيه بيديه، ونظر نحو الجهة الشرقية للنهر، الفجوة في الأشجار التي صنعها دوجنز بنار حاصده، والجسم الساكن الذي يتمدد على الأرض الطيبة الصفراء، فعرف أنه دوجنز.

هبت ريح قوية من ناحية البحر فأسعده الهواء المنعش النقي الذي يدخل رئتيه، ورغم أنه تعود على رائحة الدلتا العطنة، إلا أنه ظل يشعر بالاشمئزاز منها. سار حول حافة التل الشرقية حتى وجد مكاناً أقل انحداراً من الأماكن الأخرى، فبدأ رحلة الهبوط التي بدت في ضوء الشمس الباهر أكثر خطورة منها في ضوء القمر، وأدرك أنه إذا انزلقت قدماه سقط لمسافة ألف قدم ليقع وسط الأشجار المحيطة بالنهر. حرص على ألا ينظر لأسفل. وركز اهتمامه على حركة يديه وقدميه. انعطف وهو يتحرك بشكل مائل نحو جهة التل الجنوبية، ووجد نفسه، في نهاية المطاف، يقف على الطريق الذي يفضي إلى الغابة.

ركز ذهنه، خلال رحلة الهبوط، فلم ير شيئاً سوى ما يوجد أمام عينيه. ولكن بمجرد أن استرخى، بدأ يشعر من جديد بما يحيط به، وأدرك القوة المتصاعدة التي تدفقت في صورة موجات عبر الأرض، وأحس كما لو أنه يمشي فوق رأس عملاق نائم. جعلته هذه القوة يدرك وجود عالمين في الوقت ذاته، فأثناء تدفقها عبر الأرض تمكن من متابعة تقدمها، وهذا يعني أن الأرض شفافة. بدا الأمر كما لو أنه في وجهه أربع عيون، اثنتان يرى بهما العالم المادي، واثنتان يرى بهما عالم الواقع الأكثر عمقاً. ولما نظر إلى قمم الأشجار وجد الطيور وقد حلقت حولها مذعورة وأخذت تصيح وتضرب الهواء بأجنحتها. كانت ضخمة، وتبدو خطيرة، ولكن عندما نظر إليها بعينيه الأخريين وجدها غير مؤذية، كالحيوانات الأليفة، وأحس أنها تقوم بمجرد استعراض للقوة بهدف الدفاع عن أرضها، ولا تعتزم الاقتراب منه. رأى كائناً يشبه الخفاش يرمقه شذراً من فوق شجرة سامقة، بدا خطيراً بوجهه الشيطاني، وروحه المملوءة بالقسوة والعنف، ولكن عندما التقت عيناه بعيني نيال أشاح بنظره، فقد أحس بأنه كائن خطير هو أيضاً.

شق طريقه وسط الغابة، وهو يشعر بالدهشة من سهولة السير في الظلام، رغم وجود العديد من الأشجار المنهارة، والأخاديد العميقة، نتيجة لهطول الأمطار. تجاهل عامداً عينيه الأخريين، وركز انتباهه على الأرض. دُهش حين وجد نبتة متعرشة سميكة نريد ارتفاعها عن قدم تعرقل طريقه. لم يتذكر أنه تسلقها ليلة أمس. بدأت تتحرك عندما دنا منها، ليكتشف أنها أفعى خضراء انتفخ جزؤها الأوسط على نحو غريب، بعد أن ابتلعت إحدى الطرائد. عرف عندما استخدم عينيه الأخريين أن هذه الطريدة هي كائن يشبه الخنزير، مكسو بشعر أسود كثيف، أخذ يتحلل ببطء نتيجة للعصائر الهاضمة القوية التي تفرزها الأفعى.

وبدت الأصلة نفسها غير مخيفة على الإطلاق، ودرجة إدراكها أعلى بقليل من إدراك الأشجار، وقد جعلتها الحياة على الأرض تشعر بأنها مهددة، وقد أرادت في هذه اللحظة أن تنام دون أن يزعجها شيء.

أدرك أن هذه الرؤية المزدوجة هي مجرد امتداد لقدرته العادية على تجميد روحه، وتعريض نفسه لأذهان الكائنات الأخرى، لكن هذه القدرة تطورت لتصل إلى ذروة جديد من الحدة نتيجة لتجارب الساعات القليلة الماضية. لقد شعر بالاستغراب في بداية الأمر عندما جرى اتصال بينه وبين امبراطورة النباتات، لكنه سرعان ما أصبح ماهراً في تفسير الاتصالات التي باتت في غاية الوضوح، وكأنها لغة انسانية. وهذه المهارة نفسها تسمح له الآن بتفسير الذبذبات الصادرة من العالم حوله بسرعة وتلقائية، ولم يعد بحاجة لأي تفسير

لها، فقد بدت له وكأنها رؤية مباشرة. كما فتحت هذه المهارة أمامه عوالم من الاحتمالات، فالرؤية المزدوجة التي يتمتع بها الآن ليست هي نهاية المطاف بالنسبة لحدود الإدراك الذاتي، بل بوسعه إذا أراد أن يرى معدلات أخرى من الواقع، ليتمتع برؤية ثلاثية ورباعية وخماسية. لم يكن قد أدرك قط بهذا الوضوح أن المنظور الإنساني العادي هو شكل من أشكال العمى.

وجد نفسه، حينما خرج من وسط الأشجار، يقف على ضفة النهر، ويتطلع مباشرة إلى دوجنز. بدت المياه هادئة متدفقة، لكن رؤيته المضاعفة جعلته يدرك أنه تحت سطح الماء ببضعة أقدام يتمدد تمساح ضخم يحدق فيه، ويأمل أن يقترب ليجره داخل الماء. تمنى، للحظة، أن يكون الحاصد معه، لكنه أدرك في الحال أنه غير ضروري، فآلية روح هذا التمساح بسيطة للغاية، ومن السهل عليه زرع الشكوك داخل ذهنه، والايحاء إليه بأن هذا الكائن الذي يقف على قدمين أكثر خطورة بكثير مما يبدو. غاص التمساح بهدوء إلى طين الأعماق حيث شعر بالأمان.

سار نيال جنوباً بامتداد ضفة النهر حتى وصل إلى المكان الذي عبر منه ليلة أمس. لم يجد أية كائنات كبيرة هنا، حيث المياه ضحلة، بل مئات من الكائنات الصغيرة تعيش تحت الشجرة التي سقطت في هذا المكان من النهر، وعاقت إلى حد ما تدفق المياه. وبدت الكائنات مثل سرب من اليراعات متعددة الألوان، تتدافع حول بيتها. لكنه أدرك، وهو يخوض ببطء في الماء، وقد رفع ذراعيه إلى رأسه ليحافظ على توازنه، وجود كائن ضخم يبعد بضع مئات من الأمتار عنه، وقد بدأ يخرج بهدوء من الطين ليسبح نحوه. إلا أنه فشل هذه المرة في الإيحاء له بخطورته، لكن جهازه العصبي كان في غاية البساطة مما جعل من السهل تشويشه برسائل كاذبة جعلته يتقدم نحوه ببطء شديد. وحين خرج نيال من النهر، بعد أن وصل إلى الضفة الأخرى، لمح وهو ينظر خلفه شيئاً بدا مثل كتلة تتلوى من الأعشاب الرمادية، يكسوها طين لزج، برزت فوق السطح، للحظة، حين ألقى بها التيار فوق جذع شجرة.

كان دوجنز مستلقياً على ظهره، فمه مفتوح، ويشخر بهدوء، وقد غطاه الرداء المعدني من رأسه حتى أخمص قدميه. استطاع نيال أن يعرف، من خلال سبر غور ذهنه النائم، أنه ما يزال يعاني من الإجهاد، ويحتاج لساعات نوم عديدة أخرى، ولكن من الصعب تحقيق ذلك، فهذا المكان في غاية الخطورة.

فتح نيال كيسه الذي غطاه الندى، وأخرج قارورة الماء الذي كان بارداً منعشاً، لا

بد وأن الليل كان أبرد مما أعتقد. ثم تناول قطعة من الفطير الجاف امتد خط الأشجار، بفروعها المتشابكة، وجذورها المتداخلة، في كلا الاتجاهين لأميال عديدة، فإلى الجنوب امتدت الأشجار حتى تداخلت مع الغابة، وإلى الشمال حتى المستنقعات. وسيستغرق الدوران حول هذه الأشجار معظم ساعات اليوم، فإنه من الأسهل أن يعودا من الطريق الذي جاءا منه. وسوف يحمي الرداء المعدني أحدهما. فهل سيكون من الممكن استخدام كل قطع القماش الإضافية لعمل رداء مؤقت يحمي الآخر؟ ألقى ببطانيته وردائه الإضافي على الأرض، ثم وجد أن ذلك يتجاوز مهارتها. قد يكون بمقدور خياط ماهر تحقيق ذلك، ولكنهما لن يتمكنا من القيام بأي شيء، خاصة وأنه ليس بحوزتهما خيط وإبرة.

انتعشت آماله عندما وصل إلى فجوة بين الأشجار. كان النسيم قد دفع غبار الطَّلع ليتجمع في أكوام على هيئة رمل متراكم. تشكلت قطرات لامعة من الندى فوق هذه الأكوام. من المحتمل أن يكون الندى قد أثر في الغبار فحوله الى مستحلب يتعذر تطايره. انحنى للأمام، ولمس بحذر أقرب كومة بطرف سبابته، ثم فرك الغبار الأصفر الدقيق بين سبابته وإبهامه. أحس بملمسه اللزج، وشعر بالابتهاج لأنه لم يعد شديد اللزوجة. انحنى بحرص وأخذ مقداراً ضئيلاً من الغبار بين إبهامه وسبابته وفركه على ظهر يده. ورغم ذلك لم يشعر بأي شيء يثير القلق. انتظر لبضع دقائق حتى اقتنع بأنه ليس هناك أي تأثير مؤجل، ثم أخذ مقدار ضئيلاً آخر، كاختبار أخير، واستنشقه بأنفه فعطس، لكنه لم. يشعر بأي التهاب، ولم يظهر له أي تأثير. نهض واقفاً وراح يضحك مبتهجاً. ثم ذهب وهز دوجنز من كتفه.

ـ بلدو، استيقظ!

تثاءب دوجنز، وفتح عينيه ببطء، وحدق في نيال، للحظة، دون أن يتعرف عليه. ثم تذكر المكان الذي هو فيه، وجلس.

سأله نيال: هل أنت على ما يرام؟

ـ أظن ذلك.

ثم نظر إلى ذراعيه اللتين ما زالتا تغطيهما بقع حمراء، وقال: إن هذه البقع تؤلمني، على أية حال. هل لك أن تناولني قارورة الماء؟

أخذ رشفة كبيرة من قارورته، ثم أزاح الرداء المعدني عنه، وأمال رأسه إلى الخلف، ونظر إلى امبراطورة النباتات. ارتسمت وهو يحدق فيها ابتسامة على شفتيه عكست ما يشعر به من حقد، وأشار إليها قائلاً: هذه هي التي نبحث عنها.

ـ ما الذي يجعلك متيقن بهذا الشكل؟

ـ لا أدري. إحساسي يؤكد لي ذلك.

ونظر إلى الأرض، وقال: أين الأسلحة الحاصدة؟

قال نيـال وهو يطوي الرداء المعدني: ألقيت بها في النهر.

ظن أنه يداعبـه فقال: بالله عليك، أين هي؟

ـ قلت لك إني ألقيت بها في النهر.

نظر دوجنز في وجهـه فعرف من ملامحه أنه جاد. حدق فيه غير مصـدق وقال:

ـ ولكن لِمَ؟

ـ لأنها الطريقة الوحيـدة التي تضمن لنا الخروج من هذا المكان حيّيْن.

صاح دوجنز باستغراب: حيّان؟

واندفع نحو حافة النهر، وخشي نيال، للحظة، أن يقفز في الماء. كـانت هناك دوامـة، وبدا ظهر تمساح فوق السطح. ارتد دوجنـز ووقف محدقاً، وقد استعد للتقهقر، حتى غـاص الكائن مرة أخرى. التفت لنيال في إيماءة يـأس وسأله:

ـ وكيف سنخرج من هذا المكان اللعين بدون أسلحة؟

ـ قد يكون ذلك أسهل مما تظن.

فوجىء دوجنز بالثقة الواضحة في نبرة صوتـه فقال: لِمَ؟

ـ أشار إلى خط الأشجـار وقال: لعلها تريد التخلص منا: ما هو الغرض من وجودها على ما تعتقد؟

ضحك دوجنز ساخـراً وقال: لتعرقل خروجنا من هذا المكان!

قال نيال بهدوء: لا. لتوقف دخولنا إليه. إنها تريدنا أن نرحل.

واتجه نحو الفجوة بين الأشجار، وأخذ حفنة من غبار الـطّلـع وتركـه ينساب من بـين أصابعه إلى الأرض وقال: إنه غير مُضر الآن.

ثم عـاد ودلك ذراع دوجنز ببعض الغبـار وقال: «أترى، إنه لم يعد يلهب الجلد».

هز دوجنز ذراعـه وأخذ يحدق فيه بعصبية. ثم ندت عنه ابتسامـة عكست ارتياحـه. وقال متهللاً: لنخرج من هذا المكان قبل أن يغير رأيه!

جمعا حاجياتهما بسرعة، وبعد بضع دقائق كانا يشقان طريقهـما ببطء بين الأشجـار. لم

يكن حذرهما ضرورياً، فقد بدا غبار الطَّلع الآن هامداً، بل إنه لم يتصاعد في الأماكن التي يتراكم فيها كثيفاً على الأرض ليتحول إلى سحب خانقة، رغم مرورهما فوقه بأقدامهما. لكن نيال لم يشعر بالإرتياح إلا بعد وصولهما إلى الجانب البعيد، حيث أحس، ببصيرته الحادة، بالعداء الذي تكنه الأشجار لهؤلاء المتطفلين الذين يتسمون بالعنف.

امتد أمامهما الطريق الرمادي الشديد الانحدار الذي تتخلله آلاف القنوات المائية التي جعلت السير صعباً. راح دوجنز يتنفس بصعوبة بعد أن قطعا نصف الطريق في صعود التل. وأصبح وجهه في غاية الشحوب. تأوه وضغط جنبه بيده.

ـ سأضطر للتوقف. أشعر بألم في جنبي.

جلسا معاً على الأرض الصلبة، وكان من الصعب العثور على موضع مريح. فاضطرا للتشبث بالأرض بأعقاب أقدامهما كي لا ينزلقا. بدا دوجنز مستنزفاً، وأصبح خداه غائرين، ولاحت وجنتاه أكثر بروزاً مما كانتا عليه بالأمس.

قال نيال: أتريد أن تعرف الطريقة التي تستعيد بها طاقتك؟

هز دوجنز كتفيه، وأغمض عينيه وقال: كيف؟

ـ استخدم مرآة التأمل!

قال دوجنز باكتئاب: إنها ستزيد الأمر سوءاً.

ـ لا. لن يحدث ذلك. أدرها للداخل، وحاول تركيز طاقاتك داخل نفسك!

مد دوجنز يده بضجر داخل ردائه وقلب المرآة. وأطلق زفرة ألم بعد لحظة.

ـ إنها تؤلمني!

ـ أعرف ذلك. ولكن استمر!

أطبق دوجنز أسنانه، وأغمض عينيه نصف إغماض، وأخذت قطرات العرق تتحدر فوق جبهته. استمر في تركيز طاقاته رغم الألم الواضح. راح يتنفس بصعوبة، ثم زفر زفرة بطيئة. توردت وجنتاه بعد أن استرخت عضلات وجهه. فتح عينيه ونظر إلى نيال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عكست دهشته.

ـ ذلك مدهش! ما الذي حدث؟

ـ إنه لم يكن الإجهاد الذي شعرت به. لقد اعترتك حالة من اليأس والإحباط، مما أدى إلى تزايد شعورك بالإجهاد.

ـ أين تعلمت ذلك؟

ـ بالتجربة.

نهض دوجنز واقفاً، وقال: حسناً، لنواصل سيرنا!

وصلا، بعد نصف ساعة، إلى مشارف الغابة التي جعلتها ألوانها المتعددة الغنية يشعران بالراحة، بعد أن تعودا على لون المنحدر الرمادي. أدخل العشب الكثيف الناعم الذي يسيران فوقه البهجة إلى قلبيهما. ولاحظ نيال أن الشذا أكثر تنوعاً من ذي قبل، بعد أن كان بالأمس ثقيلاً غريباً كشذا حديقة شرقية، أما الآن فإن الروائح خفيفة، مما جعلهما يشعران بانتشاء غريب، ورغبة في الضحك. وجد أنه لا يستطيع تصديق أن سيمفونية الشذا هذه موجودة في ذهنه فقط، فبذل جهداً ليفسر ذلك برؤيته المزدوجة ففهم في الحال. لقد كانت النباتات منتشية لأن هؤلاء الغرباء غير مسلحين، وراحت تصب شعورها بالراحة في فيضان من المعنويات المرتفعة. وعندما نظر إليها بعينيه الأخريين بدت ألوانها الشاحبة، لكنه بات مدركاً للجذور والفروع والسائل الذي يجري في أوعيتها مثل ضوء أخضر. كان بوسعه أن يرى أيضاً الهواء وقد امتلأ برذاذ متألق من السعادة التي هبطت عليهما مثل الرذاذ المتناثر من نافورة، وهذه السعادة هي التي فسرتها حواسه بأنها الشذا دائم التغير.

صُدم حين ألقى نظرة سريعة على دوجنز. فقد أصبح هو الآخر شفافاً، مما جعله يتغلغل في لحمه، ويرى تفاصيل هيكله العظمي. رأى بوضوح الشرايين والأوردة وحركة القلب وهو يضخ الدم. لكنه لاحظ أيضاً أن القلب مسؤول عن نسيج متدفق من اللون غمر الجسم كله وامتد إلى ما وراءه. كان مزيجاً من الأحمر والبرتقالي والأصفر، ولكن طغى عليها اللون الأزرق والأخضر التفاحي، وبدا أن نبضات القلب تغذيه. وبينما راح دوجنز يستجيب للمرح الذي غمر الجو من حوله، أخذ المد اللوني يفيض بشكل أكبر وأكبر ليتجاوز حدود جسمه، حتى امتد ست بوصات بعيداً عن سطح جلده. لاحظ نيال ذلك لبضع لحظات فقط، ثم تلاشت رؤيته المزدوجة، وبات العالم مرة أخرى طبيعياً. فهم أن ذلك كان ضرورياً ـ فرؤيته لعالمين في وقت واحد مجرد تبديد لطاقاته ـ لكنها خلفت وراءها مسحة أسف.

شاهدا على الجانب البعيد من الغابة منحدراً تكسوه الأعشاب السميكة السلكية، برزت عند قمته أصابع جرانيتية. لاحظ نيال تغيراً في أحاسيسه وهو يرى امتزاج الأعشاب الغنية الرقيقة بهذه الأعشاب الخشنة. شعر كما لو أنه يتعرض لرياح باردة شديدة. كان قد اعتراهما، في آخر مرة لهما فوق هذا المنحدر، إحساس بضيق الصدر والاختناق، الأمر الذي فسره نيال على أنه تدخل متعمد للعشب في جهازيهما العصبيين. راح العشب يرسل الآن موجات القوة العنيفة وجدها في لحظات معينة مُنشطة، أدرك ذهنه أنها تحتوي على عنصر وحشي غريب. جعلته ومضة خاطفة من الرؤية المزدوجة يفهم أن هذه القوة تتجمع من

الأرض نفسها، وأنها مثل ريح سوداء، تندفع من قاعدة التل الجرانيتية. كانت طاقة الحياة في جسميهما في غاية المهارة، الأمر الذي حال دون استجابتها للتيار الوحشي، ولكن لأنهما مجهدان فإن جسميهما قاما بتعديل وضعهما للاستفادة من الطاقة الخام التي بدت مميزة كالرائحة، وجعلت نيال يفكر في جلمود يتعرض لرذاذ شلال ماء. بدا أنه يحمل إليه شذا الأرض نفسها ـ ليس سطحها، ولكن داخلها الصخري المحترق، حيث أحدثت الضغوط الهائلة دوامة من الطاقة المغناطيسية. اعتراه، للحظة، شعور بالسخط والبؤس، وبدا من غير المنطقي أن تكون حواس الإنسان محدودة بهذا الشكل الذي لا يجعله يرى التنوع الغريب للقوى المحيطة به. ولكن سرعان ما حل مكان هذا الشعور اعتراف بأن هذه المحدودية قد اختارها الإنسان لنفسه، ويمكن أن يستبدلها، إذا شاء، بشكل من أشكال الوعي أكثر ثراء وتطوراً.

انتاب نيال، وهما يجتازان الفجوة التي قتلا عندها الكائن العظائي العملاق، شعور بالذعر عندما رأى عظامه البيضاء وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس. ولكن عندما استخدم عينيه الأخريين لاحظ بارتياح أنها بالفعل مجرد هيكل عظمي لحيوان نافق، وأنه لم يتبق أي أثر، ولو طفيف، للحم.

وحين وصلا إلى قمة التل توقفا لالتقاط الأنفاس. جلس نيال على العشب دون أن يفكر، فشعر بوخز خفيف أثار نشوته في الأماكن التي لامس فيها جلده الرطب، لكنه بدا مع ذلك مثل أي عشب عادي.

ألقى دوجنز عليه نظرة متسائلة، ثم جلس هو الآخر.

ـ هل نسيت؟

هز نيال رأسه وقال: ليس تماماً.

كان في الواقع قد نسي، لكنه عرف أيضاً، بعقله الباطن، أن العشب أصبح آمناً الآن.

أخذا يحدقان في المستنقعات البنية المليئة بنباتات القصب الطويلة التي تقطع عند التلال البعيدة حيث ينتظرهما رفيقاهما الآخران، فشعرا بالحماس لأنهما باتا قريبين من هدفهما.

رمقه دوجنز بطرف عينه وقال: تعرف شيئاً لا أعرفه. ما هو؟

لم يتظاهر نيال بعدم الفهم، فقد كان ينتظر منه هذا السؤال منذ أن بدأ رحلة

العــودة قبل ساعتين. أشار إلى تجويف الدلتـا بغـاباتـها التي يتصـاعـد البخار منهـا، ومستنقعاتها الرطبة، وقال:

ـ تعتبر العناكب والخنافس هذا المكان مقدساً، إنه معبد الإلهة نـوادا. لقد دخلناه مسلحين بأسلحة الدمار، وكانت الدلتا تتأهب لإفنائنا. ولكن بعد أن تخلصنا من هذه الأسلحة فإن الإلهة تسمح لنا بالذهاب في سلام.

قال دوجنز بتؤدة: لقد مر وقت كنت فيه مثل ساحر يحاول اكتشاف المخبوء.

هز نيال رأسه وقال: لم يكن هذا سحراً، إنه مجرد إحساس.

ثم نهض واقفـاً وأضـاف: من الأفضـل أن نتحـرك إذا أردنـا الـوصـول قبـل حلول الظلام.

لم يطرأ أي شيء خلال الجزء الثاني من رحلتهما. فعندما وصلا إلى المستنقعـات سارا في الـطريق الممهـد وسط عيـدان القصب. ضربتهما أشعـة الشمس التي تـوسـطت السـماء الزرقاء، وبدت تموج بالطاقة، لكنهما لم يشعـرا بالإجهـاد، فقـد كانت هنـاك قوة داخليـة ما تدفعهما. راحت يعاسيـب يزيد طولها عن متـر تئز حولهما، ثم تطير لأعلى مرة أخرى لتثير تياراً هوائيـاً بأجنحتها القوية. وأخذ البعوض، في المستنقعات، يحدث ضجة صاخبة، وهـو يئـز حول رأسيهـما، مما جعلهـما يجفلان في بعض الأحيـان، خاصـة عندمـا يطير بـالقرب من أذنيهما. لكن أحدهما لم يتعرض لقرصة واحدة.

لاحظ نيـال، حين هبـطت الشمس نحـو التـلال الغـربيـة، أن الحشرات بـاتت أقـل نشاطاً، بل إن تغريد الطيور خفت كثيراً. كما أحس هو نفسه بتثاقـل لذيـذ في أطرافـه. لقد سحبت امبراطورة النباتات طاقاتـها لتغرب مع الشمس، وكانت رغبتـه في النـوم دليـلاً على مدى تأثير ذبذبة النبات. لكنه تمكن، بعد أن قلب مرآة التأمل، من استعادة حذره وتركيزه. وعلى عكس كائنات الدلتـا الأخـرى فهـو لا يعتمد عـلى طاقـات امبراطـورة النباتـات لأن مصدر طاقته ينبع من داخله.

كان بوسعه، عندما حل الغسق، رؤيـة قمم عيدان القصب، والمنـطقة الخضراء، التي امتدت بين المستنقعـات، وخط الأشجار عنـد قاعـدة التل الشرقيـة. وشاهدا كلاهمـا، حين خرجا من وسط القصب، الشرر المتصاعـد الذي يدل على النار المشتعلة عند المخيم. توقف دوجنـز ووضع يده عند فمه وصاح: «سيميـون». ارتد صـدى الصوت من جـانب التلال، وأثار ذعر الطيـور التي حلقت فوق قمم الأشجار. تنـاهى إلى مسامعهمـا بعد لحـظة صوت واهن يرد على النـداء. شاهـدا، وهما يهـرعان صـاعدين التـل نحو الأشجـار، ضوءاً يتقـدم

باتجاههما. ثم وجدا سيميون يقف أمامهما حاملاً مشعلاً. وعندما باتا على بعد عشرة أمتار وضع المشعل بحذر على الأرض، ثم جرى نحوهما واحتضنهما. احتضن نيال بشدة فكادت ضلوعه تتكسر.

- الحمد لله على عودتكما. لقد اعتقدنا أننا لن نراكما مرة أخرى.

كان الصوت أجش ومتزناً كالمعتاد، لكنه يخفي الكثير من الإرتياح. أضاء اللهب المتصاعد من النار المكان كما لو كان الوقت نهاراً. إلا أن نيال لاحظ بنظرة خاطفة أنه لم يحدث أي تغيير منذ أن غادرا المكان؛ فميلو ما يزال مستلقياً فوق فراش من أوراق الشجر والأعشاب، وملفوفاً في البطاطين، ومانيثو يقف بجوار النار وهو يبتسم، ولكن عندما تحرك نحوهما مشى بخطوات رجل أعمى. لاحظ نيال، وهو يحتضنه، وجود مقلتين بيضاوين تحت الرموش المتورمة.

استرخى نيال بعد نصف ساعة، وجلس فوق فراش من فروع الأشجار، واحتسى قدحاً من النبيذ، وأخذ يتابع سيميون وهو يقطع الخضراوات لإعداد الطعام. وجد بجواره على الأرض جلد حيوان كان قد اصطاده صباح اليوم وهو يغلي لحمه الآن في قدر الطعام. كان له فنطيسة خنزير، لكنه تغطى بفراء رمادي ناعم، وله قائمتان خلفيتان طويلتان وقويتان تماثلان قائمتي الأرنب. أسالت الرائحة التي تهب من القدر لعابه.

طرح دوجنز على ميلو سؤالاً، وعندما لم يتلق رداً اكتشف أنه قد ارتاح في النوم. قال سيميون بهدوء: إنه على هذا الحال منذ رحيلكما، يقضي معظم وقته نائماً.

- حتى يتحسن ويتمكن من استئناف السير على ما تظن؟

- ليس قبل بضعة أيام.

- إذن سيتعين أن نصنع له نقالة ونحمله. لا نستطيع أن ننتظر كل هذا الوقت.

صب سيميون الخضراوات والجذور في قدر الطعام وقال:

- هل هناك أي سبب يستدعي إسراعنا في العودة؟

هز دوجنز رأسه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعترف فيها، ولو ضمنياً، بأن المهمة قد باءت بالفشل، وقال:

- ليس بوسعنا البقاء بعيداً عن المدينة لفترة طويلة؛ فلا أحد يعرف ما الذي قد تفعله الحشرات.

غلب النعاس نيال من تأثير الجو الدافىء الذي أحدثته النار، إنه لم ينم منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. ورغم أن ذهنه امتلأ بأصوات النوم فإن حاسة ما بداخله رفضت أن يتخلى عن وعيه.

بدأ للحظة أنه يحوم فوق موطن أرواح مظلم ليس له أية ملامح مميزة، مثلما الفضاء الخارجي. ثم أدرك أنه ينزلق من جديد في حالة أشبه بالحلم، وقد أحس بذبذبة امبراطورة النباتات. ولكن لم يكن هناك أي اتصال هذه المرة، بل ولا يبدو حتى أنها تدرك وجوده. إلا أن ذبذبتها الليلية الناعمة جعلته يشعر بالسلام. وأدرك أن هذا هو الغرض منها تحقيق الاسترخاء، وتجديد نشاط القوى الحيوية.

ثم بدا أن وعيه قد امتد ليشمل الآخرين، واعتراه إحساس حاد بالقلق، كما لو أن ريحاً باردة تستنزف دفئه. تمكن بعد لحظة من اكتشاف مصدرين لذلك. الأول هو مانيثو الذي كان يجلس هادئاً بجوار النار يصغي للحديث، فقد تملكه يأس أسود نظراً لأنه يشعر بدفء النار لكنه لا يراها، كما انهارت شجاعته عندما فكر في احتمال أن يقضي بقية حياته في هذا الظلام.

أما المصدر الآخر للقلق فهو ميلو المستغرق في نوم عميق. أدرك نيال، فجأة، ما يعانيه من متاعب؛ فليس السم هو الذي يستنزف حيويته وإنما نوع من الفطريات الحية تجري في أوعيته الدموية. وهذا الفطر هو جزء من سائل شجرة الأرجوان، وهو من الطفيليات. وكلما جدد حيويته بالغذاء والنوم استنزف الفطر هذه الحيوية المتجددة مرة أخرى، وشعر ميلو باليأس إزاء هذا الفطر، نظراً لأن قواه الحيوية كانت على مستوى أعلى من قوى هذا الطفيل، كما تفتقر الى قوة الانتقام.

بدت الإجابة واضحة بالنسبة لنيال. فميلو بحاجة إلى أن يتناغم مع ذبذبة امبراطورة النباتات التي بوسعها مهاجمة الطفيل بمستوى قواه. لكن ميلو عاجز تماماً عن القيام بهذه المهمة، كما أنه غير واع بقوة ذهنه ليقوم بالسيطرة على استجاباته الحيوية.

ولكن ذهنه في حالة سلبية الآن، فهو غارق في نوم منهك. ترك نيال قواه الحيوية تمتزج بقوى ميلو حتى باتا متزامنين. ثم راح يهدىء من أعصابه المتوترة للغاية، ويضفي على معنوياته المتنافرة حالة من الاسترخاء. كانت مشكلة ميلو تكمن في أنه قضى حياته في مدينة الخنافس التي تكفل له كل الحماية، فلم تكن هناك حاجة لاستدعاء طاقاته العميقة. ولذلك فإنه يشعر الآن باليأس. ونظراً لأن مستوى ذهنه لا يزيد كثيراً عن ذهن صبي فإنه من السهل التأثير فيه. ولما أصبح تنفسه هادئاً ومنتظماً استرخى كيانه حتى وصل إلى معدل ذبذبة امبراطورة النباتات، ثم بدأت الطاقة تتدفق بهدوء إلى أوعيته الدموية لتوقظ مقاومة قواه الحيوية. أدرك نيال، عند هذه المرحلة، أن بمقدوره أن يتركه لإرادته.

هزه سيميون من كتفه وقال له: هل أنت مستعد لتناول طعامك؟

تثاءب وأجبر نفسه على الجلوس، فناوله سيميون وعاءً به «يخنة» ساخنة وقطعة

خبز. باتت النار كتلة من الجمرات راحت تشتعل في وسطها بضعة ألواح من الخشب الذي أضيف إليها.

ـ كم ساعة نمت؟

ـ نحو ساعتين أو ثلاث ساعات.

سمعا صوتاً آتياً من وسط الظلال يقول: هل تبقى أي شيء من الطعام.

نظر سيميون حوله في دهشة وقال: هل استيقظت يا ميلو؟ لدينا الكثير من اليخنة. هل أنت جائع؟

قال ميلو بحزم ووضوح: أتضور جوعاً. تبادل دوجنز وسيميون النظرات، وراح سيميون يملأ الوعاء باليخنة.

ـ إبق مكانك! سوف أحضر الطعام إليك.

ـ لا أريد أن أبقى هنا. لقد استلقيت بما فيه الكفاية.

ونهض واقفاً على نحو مفاجىء. كان رداؤه متجعداً، وشعره أشعث، لكن خديه كانا قد توردا أخذ يضحك، ثم قال وهو ينظر الى جلد الحيوان:

ـ ما هذا الكائن المرعب؟

ـ إنه الذي ستأكل لحمه، قد يبدو غريباً، لكنه لذيذ المذاق. تناول ميلو الوعاء، وأخرج قائمة بأصابعه وراح يقضمها وهو يقول:

ـ لذيذة، إنها أفضل من لحم أرنب.

في الواقع كان للحم الكائن الغريب مذاق لذيذ وكأنه لحم خروف مشوي.

سأله دوجنز: أتظن أنه بوسعك استئناف السير غداً؟

ازدرد ميلو طعامه وأومأ بحماس قائلاً: نعم، فقد أخذت كفايتي من هذا المكان.

ـ إذن سننطلق عند الفجر.

حدق سيميون ودوجنز في ميلو، وهو يتناول طعامه، غير مصدقين ما حدث له من تحول. ركز ميلو، وهو لا يدري أنه عاد لتوه من على حافة الموت، في طعامه بانهماك طفل جائع.

أتى نيال على حسائه، وابتلع البقية الباقية في الوعاء، ثم استلقى ولف بطانية حول كتفيه واستغرق، في غضون لحظات، في نوم عميق هادىء.

وحين فتح عينيه كان القمر ما يزال فوق رأسه، والسماء زرقاء، فعرف أن الفجر على

وشك الانبلاج. وجد الآخرين يحزمون أمتعتهم ويلفون بطاطينهم، وقد تركوه لينعم بقسط أكبر من النوم.

تناولوا وجبة إفطار خفيفة من الفطائر الجافة والفاكهة، وجلسوا حول نار صغيرة. وعندما أخذ ضوء الفجر يتغلغل في السماء راحت الطيور تغرد، وأوراق الأشجار تحدث خشخشة بفعل نسائم الفجر. بدا سيميون ودوجنز وقد استغرقهما التفكير، فخمن نيال أنهما يفكران فيما سيحدث عندما يعودون إلى المدينة.

ارتسمت على وجه ميلو ابتسامة مرحة. من الواضح أنه يشعر بالابتهاج لأنه سيعود إلى وطنه. حدق مانيثو أمامه مباشرة وهو يأكل، وكان يتكلم عندما يخاطبه أحد فقط. أشفق نيال عليه وهو ينظر إلى وجهه الجامد.

تساءل سيميون: هل قررنا أي طريق سنسلك؟

قال دوجنز: أظن أنه يتعين علينا العودة من الطريق الذي جئنا منه.

رد نيال متردداً: ولِمَ لا نسلك طريق الوادي مباشرة؟

قطب سيميون وقال: إنه كثر خطورة. فهناك أفاعي المستنقعات، ونباتات «الأورتيس»، والحشرات مصاصة الدماء، وغيرها لا يعلمها إلا الله.

وألقى نظرة على مانيثو وكأنه يقول: ليس من حقنا أن نخاطر ومعنا رجل أعمى.

قال ميلو كما لو أنه قد قرأ أفكار سيميون: لا أبالي المخاطر.

التفت دوجنز إلى نيال وسأله: ما رأيك؟

فكر نيال في الأمر وقال: لا أظن أننا سنتعرض لأي أذى إذا ما سلكنا طريق الوادي.

ألقى سيميون نظرة متسائلة على دوجنز الذي قال: إذا كان نيال يعتقد أنه طريق آمن فإني مستعد لخوض التجربة.

هز سيميون كتفيه ونظر إليه وكأنه يقول: في هذه الحالة لا تلمني.

انطلقوا بعد عشر دقائق حين أصبحت الشمس فوق أشجار الصنوبر السامقة على قمة التل، والسديم يتصاعد من المستنقعات والغابة. بدت امبراطورة النباتات مثل وجه عظيم يحدق باتجاه البحر، وانسدل شعرها الطويل على كتفيها. أحس نيال وهو ينظر إليها بقوة غريبة تتدفق من خلال جلده لتثير شعوراً بالابتهاج، ورؤية خاطفة لأماكن أخرى.

استمر ذلك الإحساس للحظة فقط، لكنه خلف وهج ثقة وحبوراً. كما جعله يدرك أن موقفه تجاه القوة قد تغير. فمنذ يومين كان يراها عادية، غير مقنعة. أما الآن فقد عرف أن الغرض من بثها ليس مصلحته الشخصية، ولكن بوسعه أن يستمتع بها مثل الريح أو البحر.

ساروا نحو الشمال باتجاه البحر، وسط شريط من الأعشاب يفصل بين عيدان القصب الطويلة والغابة. ومشوا فرادى، سيميون في المقدمة، يليه دوجنز، ثم مانيثو ونيال وميلو. كان تقدمهم بطيئاً، إذ لم تكن الأرض مستوية، كما سدت الشجيرات الطريق أمامهم أحياناً، بينما اضطروا لاقتياد مانيثو من ذراعه. لم يكن أحد يريد أن يظهر أي قلق، وأصر مانيثو على الاعتقاد بأنه يرى أشكالاً معتمة في ضوء الشمس، ومن الواضح أنه أراد الاعتقاد بأن نظره سيعود إليه، لكنه راح يتخبط ويتعثر.

بعد ميل حلت المستنقعات ببرك مياهها المكتسية بالزبد وكتل الأعشاب شديدة الاخضرار محل القصب، وباتت التربة، تحت أقدامهم، ناعمة ولينة. كما تغير شكل الغابة. فقد أصبحت الأشجار، عن يمينهم ملتوية وقصيرة، وانتشرت الشجيرات الشوكية التي من بينها تعرف نيال على الشجيرة السيفية الخطيرة بثمارها الصفراء الملطخة باللون البنفسجي. كما رأى بجانبها شجرة أكبر ذات أوراق صفراء ريانة، وثمار خضراء داكنة تشبه نباتات اليقطين، وكل واحدة بحجم ليمون الجنة الكبير. انشق بعض هذه الثمار فبدا لونها مرجانياً من الداخل، وبها بذور ضخمة وسائل غليظ القوام راح يتساقط على الأرض. كانت الرائحة قوية ولذيذة على نحو يفوق الوصف. سأل نيال سيميون:

- هل تعرف اسم هذه الشجيرات؟
- لا. لكنني لا أثق فيها.
- ولِمَ لا؟
- لأن ثمارها طيبة المذاق للغاية.

توقفوا ليستمتعوا بالرائحة الغنية. انفتحت إحدى الثمار وانفصل نصفاها ببطء لتصبح مثل فم مفتوح. حطت حشرة عصوية جذبتها الرائحة المثيرة فوق قشرة النبات، ومالت برأسها لتتذوق العصير غليظ القوام. فتحولت الثمرة، على نحو مفاجىء، إلى كرة مرة أخرى، وراحت الحشرة تتخبط بعنف وقد انحشر رأسها داخل الفم، الذي أطبق عليها في غمضة عين. أدركوا أن النبات يتمتع بقدرة على الامتصاص، إذ راحت تسحب الحشرة بوصة وراء أخرى إلى أن اختفت قائمتاها الخلفيتان المتخبطتان.

قال ميلو: ألا يستطيع حقاً إلحاق الأذى بالبشر؟

هز سيميون رأسه وقال: لا أستطيع التخمين.

بذل نيال جهداً لفهم الشجيرة برؤيته المزدوجة. ما رآه جعل جلده ينكمش من الذعر. فقد أفرزت الشجيرة، فجأة، هواء عابقاً بالتهديد كعنكبوت موت يستعد لغرس مخالبه في ضحيته. فقد رأى، تحت الأوراق الضخمة الريانة التي بدت غير ضارة من الخارج، أن الفروع مرنة وملتفة مثل المجسات، وأن لكل فرع زبانياً مختفياً عند طرفه. أحس بإحباط الشجيرة وهم يبتعدون عنها، فقد كانت تنتظر أن يقترب أحد منهم ويحاول قطف ثمرة من ثمارها.

باتت الأرض لينة بشكل متزايد، وكلما هبطوا في حوض عريض ضحل تزايدت ليونة التربة تحت أقدامهم لتغوص حتى العقب مع كل خطوة. كان من الضروري شد الأربطة حول أعلى أحذيتهم كي لا تنخلع. كان بمقدورهم الانتقال إلى أرض صلبة بالسير نحو التل إلى الأشجار، لكنهم شعروا، بشكل غريزي، أن خطراً يتهددهم هناك. فمعظم الأرض تحت الأشجار تغطيها أعشاب متشابكة، أو طبقة رقيقة من الطحالب الخضراء. خمن نيال، نتيجة للمعرفة التي كونها عن الدلتا، أن معظم هذه الأماكن تخفي مخاضاً، وانه من الأسلم السير وسط المستنقعات، رغم أن كل خطوة فيها تثير رائحة عطنة. وحين بذل جهداً لتنشيط الرؤية المزدوجة التي باتت مسألة صعبة بعد تزايد إجهاده أحس بأن هناك عيوناً خفية تتفحصهم. لكنه لم ير أي كائن حي بخلاف الطيور والأفاعي.

أصبح تقدمهم بطيئاً، بعد ساعتين، حين أصبحت الشمس فوق رؤوسهم، وشعروا بالتعب، وراح نيال يتساءل عما إذا كان اختيار الوادي قراراً حكيماً. ثم لاحظوا أن الأرض قد باتت صلبة بعد أن أخذت في الارتفاع، وأن عشب المستنقعات الشوكي قد أفسح مجالاً لعشب خشن نما فوق تربة رملية. وجدوا أنفسهم، فجأة، فوق قمة بروز غير مرتفع يطل على بركة ماء تبعد عنهم نحو خمسمائة متر وتحيط بها الشجيرات. ألقى دوجنز بكيسه على الأرض، وتمدد بجانبها، وقد تنهد بارتياح قائلاً:

ـ أظن أننا نستحق فترة راحة.

أشار ميلو بإصبعه وقال: ما هذا؟

رأوا، عند حافة الغابة، شجرة ملتوية ذات أوراق رمادية شوكية وقد ظهر أحد الزواحف بلونه البرتقالي الأحمر الزاهي، بين ألوانها الباهتة، وقد التف حول الجذع وتلطخ ببقع خضراء وصفراء ـ فبدا مثل نوع من الفطريات. وتدلت من فوق رأس الزاحف الذي

اختفى بين فروع الشجيرة عناقيد عديدة من الفاكهة الخضراء شبه الشفافة، تماثل عناقيد العنب.

أمسك سيميون بذراعي ميلو وهو يحاول التقدم نحو الشجرة وقال له:
ـ كن على حذر!
ـ لا تخف.

حمل ميلو الحاصد وضبطه على وضع الاستعداد، وسار نحو الشجرة. ذهب نيال معه وقد فتنته الألوان الصارخة، ولحق بهما سيميون. كان الكائن الزاحف جميلاً لا شك في ذلك، فألوانه متعددة غنية مثل الأشجار وسط جو خريفي. مال سيميون للأمام، وأخذ يحدق في عناقيد العنب.
ـ لا أدري ما إذا كانت صالحة للأكل؟

بذل نيال جهداً لتركيز رؤيته المزدوجة، لكن تعبه جعل المهمة صعبة، واضطر لشد عضلات وجهه وزيادة معدل تركيزه قبل أن يتمكن من تغيير بصيرته الداخلية. ولكن بمجرد أن حدث هذا تغلب عليه إحساس بالخطر؛ فالكائن الزاحف والشجرة كائنان حيان يدركان تماماً وجودهم. أمسك بذراع ميلو وهو يخطو للأمام في محاولة للوصول إلى عناقيد العنب وقال له:
ـ لا تقترب أكثر من هذا!

لم يكد يكمل جملته حتى انحل ذيل الزاحف ـ الذي بدا مطموراً في التربة ـ عن الجذع وتلوى نحو ميلو، والتفت ذيول تشبه الجذور المشعرة حول رسغه. تراجع ميلو بسرعة للخلف، وفقدت الجذور قبضتها. ثم اهتزت الشجرة بأوراقها الجافة كما لو أنها تنتفض مُحبَطة.

قال ميلو: كائن قذر!

ورفع الحاصد واستعد لإطلاق النار، لكن نيال دفع الماسورة لأسفل وقال: لا!
ـ ولِمَ لا؟

وحاول رفع الماسورة مرة أخرى.

دفع نيال الماسورة لأسفل بكلتا يديه حتى أصبحت مصوبة إلى الأرض، فاستسلم ميلو على مضض وقال غاضباً:
ـ لا أرى سبباً يمنعني من إطلاق النار.
ـ أترغب في العودة إلى الساحل حياً؟

ـ بطبيعة الحال.

ـ إذن لا تستخدم حاصدك.

زمجر ميلو، ومضى، ثم جلس.

سأل سيميون نيال: لِمَ تقول هذا؟

ـ لأن كل النباتات مدركة لبعضها. وإذا ما قتلت نباتاً فإن الكل سيشعر بما فعلت.

ـ ولكن أيغير هذا من الأمر شيئاً؟ إن ذلك سيجعلها أكثر حذراً.

ـ هـذا ليس صحيحاً. . إنها أكـثر شراسة من الحيـوانـات البريــة لأنها تفتقـر لميـزة الحركة. وبمجـرد أن يتعرض واحـد منها للقتـل تبدأ الأخـرى في البحث عن وسيلة للقضاء على المتطفل.

سأله سيميون بفضـول بعد أن جلسوا وفتحوا أكياسهم:

ـ كيف عرفت كل هذا؟

هز نيال رأسـه وقال: من الصعب الشرح، لكنني أشعر بذلك.

ـ ألهذا السبب قلت لنا إن من الأسلم استخدام الوادي؟

ـ نعم.

ابتسم دوجنز بسخريـة وقال:

ـ ألهذا السبب ألقيت بسلاحينا في النهر؟

حدق ميلو فيـه وقال: هل ألقيت بالأسلحة في النهر؟

وعندما أومأ نيال بالإيجـاب سأله:

ـ ولكن لِمَ؟

وجد من الصعب اختيار كلمات دقيقة، فقال بعد تردد:

ـ لأنـه إذا أردت البقاء حيـاً في الدلتـا تعيـن أن تصبـح جزءاً منهـا ووجب أن تنال ثقتها.

ـ ولكن ماذا يحدث لو أن شيئاً هاجمك؟

لم ير أي جدوى من الجدل، فذهناهما مختلفان تماماً.

فقال: لا أستطيع توضيح الأمر لك.

لكن سيميون راح ينظر إليـه وقد ارتسم على وجهه تعبير غامـض وقال:

ـ لِمَ لا تجرب؟

أخذ نفساً عميقاً، ولم يكن يعرف من أين يبدأ فقال:

ـ لكل شيء في الدلتا أسلحته الخاصة بالدفاع والهجوم. لكن الأسلحة الحاصدة أقواها على الإطلاق. إنها في غاية القوة، مما يجعلنا نشعر بأمان كاذب.

أحس بأنه لم يعبر عن نفسه بشكل جيد فتساءل سيميون:

ـ قوة كاذبة؟

شعر بالارتياح حين وجد أن ما قاله بدا مفهوماً، فقال:

ـ هذا صحيح. نعم، إنها قوة كاذبة، تجعلنا نشعر بقدرة أكبر من قوتنا الحقيقية.

رد سيميون بهدوء: لكن العناكب طورت قدرة أكبر من تلك التي نتمتع بها.

هز نيال رأسه وقال: إذا كان هذا صحيحاً فإنها تستحق أن تكون سادة الأرض، لكن هذا ليس صحيحاً.

قال دوجنز الذي امتلأ فمه بالطعام: اتركه يتناول طعامه.

لكن سيميون أخذ ينظر إلى نيال باهتمام بالغ وسأله: ماذا تعني بشأن موضوع العناكب؟

إنها لا تمتلك في الواقع قدرات أكبر من قدراتنا. فالمسألة أننا لم نتعلم طريقة استغلال قوانا.

ثم رمق ميلو بنظرة تحدٍ وقال: ولن نتعلم ذلك مطلقاً ما دمنا نعتمد على الأسلحة الحاصدة.

سأله سيميون: ولكن كيف سنستطيع مواجهة العناكب بدون الأسلحة الحاصدة؟ أم إنك لا ترى ضرورة وراء محاربتها؟

قال نيال: يتعين علينا محاربتها، ولكن بطريقتها. وسنضطر، عاجلاً أو آجلاً، إلى تعلم التعايش معها.

نظر دوجنز إليه بدهشة وقال: حسبت أنك تريد إفناءها.

ـ نعم، كنت أريد ذلك. ولكن كان هذا قبل قدومي إلى الدلتا.

سأله سيميون: إذن فإنك تعتقد أنه لا يتعين علينا استخدام أسلحتنا الحاصدة.

ـ يجب ألا نستخدمها.

ـ لِمَ؟

ـ لأننا لو استخدمناها لم نتمكن من القضاء عليها.

ـ سأله ميلو: وماذا عسانا نفعل بالأسلحة الحاصدة؟

هز نيال رأسه وقال: إذا كنتم تريدون معرفة ما أفكر فيه. .

ثم تردد.

فقال سيميون: نعم، نريد.

ـ أعتقد أنه يجب علينا إلقاؤها في البركة.

صاح ميلو بدهشة وأشار سيميون له ليلزم الصمت ثم سأل نيال بهدوء:

ـ وما الذي يمكن أن نجنيه من إلقائها في البركة؟

ـ قد يؤدي ذلك إلى عودة البصر إلى عيني مانيثو.

جفل نيال من الكلمات التي انزلقت من لسانه، وأحس بالأسف لأنه قالها ولم يتمكن من وقفها.

نظر دوجنز إليه شزراً وسأله: أتظن أن هذا يمكن أن يحدث؟

ـ نعم.

قالها نيال وهو يشعر كأنه صبي يريد إنقاذ ماء وجهه. وأحس بالخجل حين نظر إلى مانيثو.

قال سيميون بتؤدة: قد يتعين علينا، في تلك الحالة، خوض التجربة.

انقبض قلب نيال أراد القول بأنه لم يكن يعني ذلك. ثم تكلم مانيثو للمرة الأولى.

ـ لا أريد من أحد التضحية من أجلي.

لم يكن في صوت مانيثو أي انفعال، لكن كلماته كشفت أن نيال قد أعاد إليه الأمل.

تبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم نظروا إلى مانيثو. شعروا جميعاً بالذنب لكونه أعمى رغم إمكانية عودة البصر إليه. رفع سيميون عينيه نحو البحر وقال:

ـ لقد تجاوزنا أسوأ مرحلة في رحلتنا. وسوف نصل إلى البحر، إذا حالفنا الحظ، في غضون ساعتين.

حولوا أنظارهم إلى دوجنز الذي تظاهر بالانهماك في الطعام، لكنهم شعروا أنه يدرك أنهم سيطلبون منه اتخاذ قرار.

هز كتفيه، في نهاية المطاف، وقال:

ـ ليكن. افعلوا ما تشاءون!

قال ميلـو وقد اعترته الشكوك: أظن أن هذا جنون!

لم يجبه أحد. فالتفت إلى نيـال وقال:
ـ أتعتقد أن هذا سيساعد أوليس؟

هز نيال رأسه، لكنه لم يحر جواباً.

هز ميلو كتفيه يائساً، ثم أشاح بوجهه.

قدم سيميون سلاحه إلى نيـال وقال:
ـ هل لك أن تقوم بالمهمة؟

أخذ نيال الحاصـد دون أن ينبس ببنت شفة. راح يتمتم دعاء ذهنيـاً وهو يسـير نحو البركة، ثم تطلع إلى امبراطورة النباتـات التي بدت من هذه الزاوية غير مميـزة، مثل أي تـل آخر. مشى نحو مكان مرتفـع يشرف على الـبركة، ورفـع الحاصـد فوق رأسـه وألقى بـه بأقصى ما أوتي من قوة. شعر، عندما فعل ذلك، بنشوة غريبة. وحين عـاد سلمه سيميـون الحـاصد الثانـي فألقـاه، مرة أخـرى، بكل قوتـه فـارتطم بـالماء محـدثاً رذاذاً واختفى في الحال. أخذ سيميون الحاصد الثالث من يدي ميلـو الذي تخلى عنـه على مضض. فألقى به نيـال في وسط البحيرة. وحـين اختفى محدثـاً رذاذاً اضطرب سـطح المـاء وأخـذ يبقبق، ثم ظهرت فجأة في الماء حركة أشبه بالدوامة.

قال دوجنز: ثمة شيء هناك.

رد ميلو: عسى ألا يكون كائناً جائعاً.

نظروا جميعاً إلى مانيشـو الذي التفت بوجهه نحو الـبركة، فسحبـه سيميون من ذراعـه بهـدوء وقال له:
ـ اغسل عينيك في الماء.

جثا مانيشـو وهو لا يدرك أن الماء دونه بمسافة ستة أقدام، فقال له:
ـ لا، ليس هنا، تعال إلى هنا.

اقتادوه إلى بقعة انحدرت فيها الأرض نحو البركـة. جثا مانيشـو وخفض يـديه حتى لمستا السطح. ثم أمال رأسه وألقى ببعض المـاء العكر على عينيه، لكنه أطلق في الحال صرخة ألم.

قال وهو ينتفض ويدلك عينيه بعصبية بيديه: إنها مؤلمة.

هرع ميلـو وأحضر قطعة قماش. ضغـطها بشـدة على وجهـه وأطبق أسنانـه. انحنى

نيـال وأخذ قليـلاً من الماء في راحـة يده، ثم رشهـا على عينيـه. جعله الألم يصرخ، فقد كـانت المياه شديدة الملوحة، غنيـة بالمعـادن، فلسعته كـالحمض. تحدرت قـطرة إلى فمـه فـوجدهـا مريرة بشكل فظيع.

ناول دوجنز مانيثو قارورة بها قليل من النبيـذ وقال له: احتس هذا! هز مانيثو رأسـه، ودفعها بعيـداً وهو في حالة من الكرب. جثا سيميون أمـامـه وقبض على رسغيـه وقال له:

ـ دعني أفحصك.

خفض مانيثو يديه عـلى مضض، لكنه اضـطر إلى إغماض عينيـه نصف إغـماضـة وهو يئن. دمدم سيميون بكلمـات ليهدىء من روعه، ووضع اصابعه فوق خده المتـورم وسحب برفق جفنه الأسفل. سكن مانيثـو فجأة، وعكسـت مـلامح وجهـه عدم تصـديق ما يحـدث وقال:

ـ إنني أراك!

فتح كلتا عينيـه بصعوبـة وحدق في سيميون. ثم راح يضحك بهستيريـة وهـو يمسح عينيـه ليبعد الدمـوع التي أخذت تتحدر فوق وجنتيه. حملق حولـه وقال:

ـ نعم، لقد عاد البصر إليّ مرة أخرى.

ثم هب واقـفاً ولف ذراعيه حول نيـال واحتضنه بشدة، وأخذت لحيته الخشنـة تحتك بأذنه.

ـ لقد كنت على صواب!

سأله سيميون: هل ترانا بوضوح؟

ـ ليس في غاية الوضوح، ولكنني أراكم.

وأخذ يحدق حوله بابتهـاج ودهشة.

نظر ميلو إلى نيال برهبـة وسأله:

ـ كيف فعلت ذلك؟ أهذا نوع من السحر؟

هـز نيال كتفيــه وقال: لا أعتقـد، ولكن من المحتمل أن يكـون هذا المـاء قد أبـطل مفعول السم.

لكنه لاحظ أن ميلو قد أحس أنه يحاول التواضع.

تقبل مانيثو الآن النبيـذ واحتساه دفعة واحـدة دون أن ينزل القارورة من بين شفتيه. ثم جلسوا بعد ذلـك وأكملوا تناول طعـامهم. شعروا جميعـاً بالحماس، فقد بـدا ما حـدث

وكأنه فأل طيب. واعترى نيال نفسه احساس غريب بأنه هو الذي عاد إليه بصره، وراح ينظر إلى كل شيء بشكل مفعم بالبهجة. وأدرك، حين فكر في الأمر، أنه من المرجح أن ذلك يرجع إلى نوع من التقمص العاطفي بينه وبين مانيشو.

كانت معنوياتهم مرتفعة حين استأنفوا السير، وباتت الأرض تحت أقدامهم صلبة مرة أخرى، والبحر قريباً منهم. وقدروا أن بوسعهم الوصول إليه عند العصر إذا ما استمروا بهذا المعدل. ساروا وسط العشب والشجيرات الخفيضة التي اكتسى معظمها بثمار التوت الزاهية، فأخذوا حذرهم منها، وابتعدوا عنها لمسافة كافية. انحدرت الأرض عن يسارهم تجاه النهر الذي أصبح على وشك إنهاء رحلته ليصب في البحر من خلال مستنقعات منبسطة. هبت عاصفة ممطرة بعد الظهر بقليل من جهة التلال الغربية، وغيرت الريح اتجاهها فجأة، وتلبدت سحب سوداء منخفضة فوق قمم التلال وكأنها جيش يستعد للغزو، ثم انهمرت عليه الأمطار بعد عشر دقائق، وأخذ البرق يومض، والرعد يدوي ليصم الآذان، وتحولت الأرض تحت أقدامهم إلى مستنقعات من ضراوة المطر الغزير. لم يجدوا فائدة من التوقف، فالشجيرات لا تشكل أي ملجأ من المطر، كما تشكلت في الأرض سيول راحت تتدفق من فوق التل باتجاه النهر. بللتهم مياه الأمطار في غضون ثوانٍ حتى وصلت إلى جلدهم، رغم المعاطف التي يرتدونها، بينما امتلأت أحذيتهم بالماء. واصلوا سيرهم وهم يتخبطون، وأخذت تتقاذفهم الريح ويعميهم المطر الذي أخذ يتحدر فوق أجسامهم، كما لو أنهم عراة. وحين سقط نيال على الأرض ساعدته يد مانيشو القوية على النهوض مرة أخرى، ثم وضع ذراعه حول كتفيه وضغط عليهما بشدة. نظر نيال إلى وجهه فرآه يضحك جذلاً وقد رفع وجهه ليسقط فوقه المطر الغزير، فشاركه مرة أخرى، ابتهاجه، بعد أن عاد إليه بصره وإحساسه بالمطر.

ثم سكن كل شيء فجأة، واختفت السحب وراء قمم التلال الشرقية، وراحت أشعة الشمس تدفئ أجسامهم الباردة. ولم يعد هناك سوى صوت خوض أقدامهم في المياه التي واصلت التدفق من فوق التل. توقفوا وخلعوا أحذيتهم، ثم ساروا حفاة بعد أن علقوها مقلوبة فوق أكياسهم. جفت ملابسهم تحت حر الشمس، كما لم يعد العشب مبللاً. شاهدوا أمامهم البحر يتألق تحت أشعة الشمس كما لو أن المطر قد غسله.

توقف دوجنز الذي كان يسير في المقدمة وحدق فجأة في شيء.

سأله نيال: ما الأمر؟

أشار بإصبعه قائلاً: أفاعٍ.

راح شيء أبيض بين شجرتي «وزال» يخرج من فتحة في الأرض. وأخذ الشيء ذاته يتكرر حولهم. حدقوا باشمئزاز، وشعر نيال، للحظة، بالأسف لأنه قد ألقى بالأسلحة الحاصدة. ثم قال سيميون.

ـ إنها ليست أفاعي. إنها فطور!

قفز نيال للخلف حين لمس شيء قصبة ساقه، ثم عرف أنه عود نبات يندفع خارج التربة بحركات أقرب إلى تلوي دودة، أو ذات الأربع والأربعين. راحت الأزهار والفطور تخرج حولهم من التربة مثل زواحف صغيرة. أخذت كرات منتفخة تكبر كالبالونات، ثم توقف نموها فجأة، بينما انفجرت كرات أخرى لتملأ الجو برائحة رطبة.

تذكر نيال حين اينعت الصحراء في طفولته؛ لكن ما يحدث الآن يتم بغاية السرعة. وجدوا أنفسهم، في أقل من ربع ساعة، يسيرون وسط بحر من الأزهار والفطريات متعددة الألوان، وامتلأ الجو بخليط من الشذا بعضه طيب، والآخر كريه. شاهدوا فطراً بلون الكبد رائحته مثل لحم عطن. إلا أن الروائح الكريهة لم تبدد شعور نيال بالبهجة، وأحس كما لو أنه قد عاد الى طفولته، وأنهم يقطنون مرة أخرى في الجحر عند سفح الهضبة، وأن أباه و«هرولف» و«ثورج» ما يزالون أحياء. تذكر، مرة أخرى، انفعاله وهو يتأرجح على ظهر أمه، من طريقهم إلى بيتهم الجديد. كان بإمكانه أن يتذوق الطعم المر لدرنة ريانة، خلعتها أمه في التربة بمدية، وأن يشتم رائحة شجيرات «الكريوسوت» المتفحمة، ورائحة الخنافس النمرية الغريبة المميزة التي ظلت تحوم حول الجحر لأشهر عديدة. دُهش حين أدرك أن الصبي البالغ من العمر سبع سنوات ما يزال قابعاً داخله، وأن كل ذكرى من الذكريات ما تزال محفوظة كما هي، وكأن الزمن لم يتحرك. شعر وهو يطأ بقدميه وسط الأزهار التي كانت سيقانها باردة على ساقيه أن الدلتا قد أعادت إليه طفولته، وأن هذه هي هدية الوداع التي تقدمها له امبراطورة النباتات.

دنوا بعد ساعتين من البحر، وتناهت إلى أسماعهم صرخات طيور النورس. أطاحت بهم، مرة أخرى، النباتات الخضراء. والشجيرات التي بدت أوراقها اللامعة كما لو أنها قد رُسمت بألوان زيتية. اضطروا للالتفاف باتجاه الشرق ليتجنبوا النبات المماثل للبلاب، برائحته المخدرة، والشجيرات السيفية التي يصعب اختراقها، والتي امتدت على شكل قوس عريض يزيد عن نصف ميل. أدى ذلك إلى اتجاههم نحو سفح التلال الشرقية، وصولاً إلى النقطة التي بدأوا منها رحلتهم عبر الغابة. تذكر نيال أوليس فلفته، للمرة الأولى بعد ظهر هذا اليوم، سحابة من الحزن.

حملت الريح إليهم رائحة البحر وبعد عشر دقائق وصلوا إلى الرمال الدافئة وتناهت إلى أسماعهم أصوات تكسر الأمواج على الشاطىء. طرح نيال كيسه على الأرض فشعر بالراحة والخفة، كما لو أنه على وشك التحليق فوق الأرض. جرى على الشاطىء وخاض في الماء، وراحت الأمواج تتلاطم حول خصره. أحس، وهو يقف وسط الماء، مغمض العينين، ويهتز للأمام والخلف، بفعل حركة مياه البحر، بأن التعب قد انسل خارجاً من جسمه، ليحل مكانه شعور بالنشوة جعله يقهقه.

تلفت حوله حين تناهت إلى مسامعه صيحة أطلقها ميلو الذي راح يشير بإصبعه نحو الشاطىء. لم يستطع نيال، للحظة، فهم السبب الذي أثار انفعال ميلو، لكنه رأى ذيل الدخان الذي ارتفع من وراء أشجار النخيل على بعد نصف ميل. توجه إلى الشاطىء على عجل، وبالسرعة التي سمح بها ثقل الماء.

قال سيميون باكتئاب، قد يكونون خدم العناكب. وإذا ما صح ذلك، فإنها قد أحضرتهم إلى هنا.

هز نيال رأسه وقال: لا أظن ذلك.

ـ ولِمَ لا؟
ـ هي تعتقد أننا ما زلنا مسلحين بالأسلحة الحاصدة، ولن تخاطر بالدخول في مواجهة مباشرة معنا.

تطلع مانيثو في وجوههم وقال: من المحتمل أن يكونوا أهلنا جاءوا للبحث عنا.

ساروا ملاصقين لأشجار النخيل، وتقدموا ببطء بمحاذاة الشاطىء. راحت الريح تهب من الجهة الشمالية الغربية، لكنها لم تحمل لهم أية أصوات بشرية. وصلوا إلى فجوة وسط الأشجار، وأصبح الدخان المتصاعد على بعد بضع مئات من الأمتار، فصعدوا بحذر هضبة رأوا من فوقها النار تشتعل عند المكان الذي استراحوا فيه خلال الليلة الأولى لهم في الدلتا. وبالقرب من النار كان رجل ينام تحت ظلال الأشجار.

التفت ميلو إليهم وقال: أظن أنه ليس أوليس.

قال دوجنز: لا تكن أحمق. لقد مات.

ـ لكن معه كيساً يماثل أكياسنا.

كان الكيس الملقى بجوار النار يماثل في الواقع الأكياس التي يحملونها.

جرى ميلو بأقصى سرعة، ثم تناهت إلى أسماعهم صيحة. نهض الرجل واقفاً وحدق. التفت ميلو إليهم ولوح بذراعيه وهو يصيح:

«إنه أوليس». جرى كل منهما نحو الآخر وتعانقا ورقصا من شدة الفرح.

قال دوجنز: الحمد لله إننا لم ندفنه.

أخذوا يضربون أوليس على ظهره ويصافحونه. بدا شاحباً، وقد نمت لحيته، لكنه لم يتغير عن آخر مرة رأوه فيها.

لم يكن هناك وقت لشرح ما حدث، فقد أدى شعورهم بالارتياح إلى تشوش فكرهم. أخذوا يقصون ما حدث لهم بطريقة متقطعة تقفز فوق تسلسل الأحداث، ولم يتم تجميع فصول القصة إلا بعد مرور عدة ساعات، حين التفوا حول النار في الظلام. تسلق نيال الشجرة السامقة وأنزل أكياسهم المصنوعة من القماش، والمناطيد العنكبوتية. أخذ مانيثو صنارة الصيد ومضى إلى الصخور ليصطاد سمكاً لعشائهم. وحمل أوليس وميلو وعاءً به ديدان لإطعام الحيوانات الإسفنجية التي رحبت بوصولهم بنفث فقاعات من الغاز، كريه الرائحة. استلقى دوجنز الذي يعاني من الإجهاد بعد تورم قدميه، تحت ظلال أشجار النخيل، ونام دون حراك حتى حلول الغسق. تحمم نيال في البحر، وجفف نفسه تحت أشعة الشمس، ثم مضى وجلس بجوار مانيثو الذي اصطاد ثلاث سمكات بوري كبيرة، وكان يهم باصطياد المزيد إلا أنهم وجدوا أن السمك يكفي لإعداد وجبة للاحتفال بهذه المناسبة.

غلفوا السمك بأوراق الأشجار، ثم أضافوا إليه طبقة من الطين ووضعوه في الرماد الساخن. وبينما راح مانيثو يعد الطعام، حدق الآخرون في النجوم اللامعة، وتركوا أنفسهم لسحر الدلتا الغريب الذي تمتزج فيه رائحة الخطر بشعور عجيب بالحرية. ثم أخرج مانيثو السمك من الرماد بغصن شجرة ليمتلىء الهواء فجأة برائحة السمك اللذيذ الذي تم صيده وإعداده طازجاً. وطرد الطعام والنبيذ جو التفكير ليحل مكانه شعور بالابتهاج لأنهم عادوا سالمين من قلب الدلتا وتجمعوا مرة أخرى.

أثار أوليس قهقهات الآخرين، أثناء تناول الطعام، وهو يصف لهم حاله حين استيقظ ليجد نفسه مربوطاً إلى فرع شجرة يرتفع عن الأرض بمسافة خمسين قدماً، فراح ينادي على رفاقه ساخطاً، وقد اقتنع بأنهم يلهون معه. ولم يدرك حقيقة الوضع إلا حينما لاحظ أنه ملفوف في بطانية قد أحكمت حوله بأغصان شائكة طويلة، حينئذ عرف أنهم تركوه معتقدين أنه قد فارق الحياة. نجح، بعد تخبط استمر فترة طويلة، في تحرير ذراعه اليمنى -

فقد ربطه مانيثو بشدة، خوفاً من ن تحاول الطيور الجارحة فتح البطانية ـ وفك في نهاية المطاف العقدة المزدوجة على صدره. بذل جهداً كبيراً حتى حرر نفسه دون أن يحطم الفرع. وسقطت البطانية على الأرض، لكنه أمسك بالحبل في آخر لحظة، وإلا فإنه كان سيظل فوق الفرع حتى الآن. (استمروا في الضحك، ليس لمجرد التسلية، بل من منطق إعجابهم بخفة ظل أوليس وهو يعيد رواية قصة لا بد وأنه وجدها مأساوية). وبعد ذلك جثا فوق شعاب الشجرة، مما سمح للدورة الدموية بالعودة إلى طبيعتها، وربط طرف الحبل حول االفرع وهبط عليه إلى الأرض حيث وجد كيسه مربوطاً عند قاعدة الشجرة، ورماد النار الذي كان بارداً، فعرف أنه قد مرت عدة أيام كما لاحظ وجود آثار لأرجل حيوانات شرسة. وبعد أن تناول طعامه واحتسى قدراً من النبيذ ليستعيد معنوياته، انطلق عائداً في رحلة طويلة إلى الشاطىء الذي وجده، لحسن الحظ، هادئاً.

سأله نيال: متى حدث كل هذا؟

ـ أمس.

ـ متى استيقظت؟

ـ عند الفجر، أيقظني تغريد الطيور.

استغرق نيال في التفكير. فقد استعاد أوليس وعيه في الوقت الذي استيقظ هو فيه فوق قمة امبراطورة النباتات..

سأل دوجنز أوليس: ماذا فعلت بحاصدك؟

بدت علامات الدهشة على وجه أوليس الذي قال: أحسب أنك قد حملته معك.

لم يستطع أحد أن يتذكر على وجه الدقة ما الذي حدث للسلاح، وكل ما تذكره ميلو أنه تركه بجوار كيس أوليس عند قاعدة الشجرة.

هز أوليس رأسه وقال: من المؤكد أنه لم يكن هناك.

تبادلوا النظرات، وقال نيال:

ـ لحسن الحظ إنك لم تكن بحاجة إليه.

قال دوجنز: لو كان معه لاستخدمه.

رد نيال: أشك في ذلك.

رمقه سيميون، لكنه لم يحر جواباً.

نام نيال قبل الآخرين بفترة طويلة، فقد كان من غير الممكن أن يظل مستيقظاً بعد

الوجبة الدسمة وهواء الليل العليل. استيقظ، من وقت لآخر، على صوت ضحكاتهم، أو على ضوء مفاجىء حين يضعون الفروع الجافة في النار. واختلطت بأحلامه عبارات من أحاديثهم، مثل «أضخم دودة ألفية رأيتها في حياتي» و«بدت مثل ضفادع تجاوزت حجمها العادي». وفي نهاية المطاف لم يسمع سوى صوت تكسر الأمواج على الشاطىء، وخشخشة سعف النخيل بفعل الريح.

ثم هزه سيميون من كتفه وهو يقول:

ـ استيقظ، فالرياح تهب من الاتجاه الجنوبي الغربي، ويتعين علينا أن نُعد المناطيد.

- ٩ -

أحس نيال، حين باتت الدلتا وراء الأفق، بأنـه معلـق بلا حـراك في فضاء لا ريح فيـه بين البحر والسماء. كانت السماء فوقهم زرقاء صـافية، بينـما امتد البحـر إلى ما لا نهايـة حولهم. لم يدركوا أنهم يتحركون بسرعة إلا من برودة الهواء. لا بد وأنه يوم شتوي صاف.

تجمعت المنـاطيد الثـلاثة مـرة أخرى، لكن نيـال شارك سيميـون المحمل التحتي هـذه المـرة؛ ووقع الاختيـار عليه كمـلاح للمنطـاد نـظراً لـدرايتـه بـالشريط السـاحـلي. وقفـا في الاتجاهين المتقابلين للمحمل، للحفاظ على توازن المنطاد، وحتى ابتعـد عن الأرض. لم ينبسا ببنت شفة رغم مرور أكثر من ساعة على رحلة الطيـران فقد أحسـا بالتوتـر نتيجـة لارتفاع المنطاد بهما، وللهوة السحيقة تحتهما. بدا الطيران أثناء النهار أكثر خطورة منه في الليل.

حين شعر نيال بالبـرد جلس بحذر عـلى الأرضيـة ولف نفسـه بمعطف. فتح كيسـه وأخـذ فـطيرة وشريحـة من اللحم المجفف، فـإنـه لم تسنـح لهم فـرصـة تنـاول الـطعـام قبـل مغـادرتهم الشاطىء. انضـم إليـه سيميون، وراحـا يأكـلان في صمت لبضع دقـائق. ثم قال سيميون:

ـ ثمة أمر أريد أن تشرحه لي. لقد حدث شيء غريب الليلة الماضيـة حين كنت بعيداً عن المكـان مع بلدو. كنت أجلس أثنـاء نوبـة الحراسـة وأسمـع صـوت حيـوان شرس في الغابة. كان يراقبنـا وينتظر الفرصة ليشن هجوماً علينا. ثم حدث أمر مـا لا أستطيع وصفه الا بالقول إنني فقـدت شعوري بـالخطر المحـدق بنا. وفي الـواقع فـإنني كنت على يقـين تام من ذلك، مما جعلني استلقـي وأستغرق في النوم.

شرب قليلاً من الماء، ثم أضاف: أتعرف ما الذي حدث؟

قال نيال: حدث ذلك حينما ألقيت بالأسلحة الحاصدة في الماء.

ـ لِمَ فعلت ذلك؟

كان نيال يتوقع السؤال، لكنـه لم يكن على استعـداد للإجـابة عنـه. فقد رفض، عـلى

مدى اليومين الماضيين، رفضاً باتاً أن يتحدث عما حدث له. وبدا الأمر كما لو أن قوة خفية تأمره بالتزام الصمت. أما الآن فقد شعر حين طرح عليه سيميون السؤال بأن هذا الرفض الداخلي يذوب. وأدرك أنه قد سُمح له بالتحدث. راح يصف له اللحظات التي فقد فيها أعصابه وأخذ يطلق النهار باتجاه النهر. انتابته قشعريرة وهو يروي كيف كاد يقضي على امبراطورة النباتات. ثم انتابه دافع مفاجىء جعله يلقي بالأسلحة الحاصدة في الماء ويطيع الأمر بعبور النهر. اتضحت، وهو يتحدث، أمور عديدة لأول مرة. فقد أدرك أنه بمقدور الإلهة القضاء عليهم في أي وقت بعد هبوطهم على أرض الدلتا، بل وأنها تجشمت عناء مخاطرة محسوبة، وسمحت لرجلين مسلحين بالاقتراب منها. لكنه فهم أن الدافع الذي اجتذبه إلى قلب الدلتا ما هو سوى استدعاء من الإلهة نفسها.

حاول، بعد ذلك، وصف مقابلته مع اامبراطورة النباتات، لكنه بدأ يشعر بإحباط متزايد. وبدت الكلمات تُحرق ما يحاول قوله. اصغى سيميون دون أن يقاطعه فامتن له، ومع ذلك فقد أحس كما لو أنه يحاول الحفاظ على توازنه فوق جليد زلق. أجفل سيميون حين اختتم كلامه قائلاً: «ثم استيقظت، وكان الصباح قد حل».

- أهذا كل شيء؟

- هذا كل ما أستطيع توضيحه.

- إذن فإنك لم تتعلم أي شيء يساعدنا على مواجهة العناكب؟

شعر نيال بالإحباط، فقد كان يأمل أن يفهمه سيميون، وقال:

- لا. لقد حاولت توضيح الأمر لك - إنه يتعين علينا أن نتعلم التعايش مع العناكب.

رمقه سيميون بنظرة تنم عن التهكم وسأله:

- وتعلمت ماذا عسانا نفعل إذا ما قررت العناكب شن هجوم علينا؟

حاول نيال ترتيب أفكاره، لكنه قال في النهاية:

- لا.

- إذن فقد عدنا إلى النقطة التي بدأنا منها، وربما أسوأ منها.

- لِمَ تقول ذلك؟

- لأنه لم يعد لدينا أية قوة نساوم بها، لقد تخلينا عن أسلحتنا الحاصدة في الدلتا، وستصادر الخنافس الأسلحة الباقية. وسيكون بمقدور العناكب القيام بما يحلو لها.

- بشرط أن توافق الخنافس التي لن تسمح باستعبادنا.

وضع يده عليه كتف نيال وقال: قد لا يكون أمامها خيار. لقد أتيحت لي الفرصة

للتفكير في كل هذا خلال الأيام القليلة الماضية. دأبت الخنافس على منح خدمها قدراً كبيراً من الحرية، ودأبت العناكب على عدم تقبل هذا الوضع بحجة أن البشر لا يرضون بقدر ضئيل من الحرية، إنهم يريدون دائماً المزيد منها. وترى أن البشر يشكلون دوماً خطراً ما لم يظلوا مستعبدين. ويبدو الأمر الآن كما لو أنهم على صواب. كيف تستطيع الخنافس الدفاع عن نفسها في مواجهة ذلك المنطق؟ لقد تعين عليها الاعتراف بأن البشر قتلة خطرون. ونحن قد أطحنا بقوة المساومة الوحيدة التي نملكها.

ـ مع ذلك، كنا على صواب حين تخلصنا من الأسلحة الحاصدة. إنها الطريقة الوحيدة.

أخذ سيميون يفكر في الأمر، ثم أشاح بعينيه الرماديتين وقال:

ـ أظن أنك على صواب. لكنني لا أميل إلى التفكير في عواقب هذا التصرف.

قطعت حديثهما صيحة فنهضا واقفين بحذر، وتفرقا على جانبي المحمل التحتي. شاهدا دوجنز في المنطاد المجاور يشير بإصبعه نحو الأفق الشمالي. وحين ظلل نيال عينيه بيده رأى خط الساحل، تلوح الجبال خلفه في الأفق.

تمكنوا، بعد ربع ساعة، من رؤية المعالم الساحلية، فقد شاهدوا خط الأجراف الرمادية المرتفعة، ثم جزيرة بنية تقع الى الشمال من الأجراف، وقد ارتفعت عن سطح البحر مثل حصن.

قال سيميون: نحن نتجه نحو أقصى الشمال.

وأشار إلى لسان من الأرض نحو الجنوب وأضاف: إن الميناء يقع على الجانب الآخر من تلك البقعة.

ـ وماذا يعني ذلك؟

ـ يعني أن عودتنا إلى المدينة ستستغرق يوماً، وآمل ألا نقابل أية عناكب.

أصاب الهواء البارد نيال بالقشعريرة. مد يده إلى داخل معطفه وقلب مرآة التأمل. جعله التركيز المفاجىء يشعر بالتحسن، واكتشف حين ركز ذهنه أن بوسعه إثارة وهج دافىء في يديه وقدميه. أغمض عينيه واسترخى. بات مدركاً تماماً، بعد لحظة، للفطر الذي فوق رأسه، ولخيوط الطاقة التي امتدت حول الفطر في الفضاء مثل نسيج عنكبوتي هائل. تعمد مزج وعيه بوعي الإسفنج والحيوانات الإسفنجية الأخرى في المناطيد المجاورة. أثارته النتيجة، فقد بدا العالم من حوله وقد تحول إلى نمط عملاق من الطاقة مثل نسيج عنكبوتي. كما بدا الفضاء نفسه وقد تلاشى وتحول إلى طاقة.

أدهشته الألوان، فقد كان نسيج الطاقة بنفسجي اللون، بينما بدت الحيوانات الإسفنجية كبقع زرقاء ضئيلة لها خيوط خلفية بنية شفافة. أما الطاقات الأخرى التي تهب من البحر فذات لون ازرق شديد الشحوب. وكانت هناك طاقة خضراء فوق الأرض البعيدة تغيرت إلى اللون الرمادي فوق الجبال. وتحول سيميون الذي يقف على بعد خطوات قليلة منه إلى كتلة حمراء من الطاقة، ولكن عندما حدق فيها أدرك أن هذه الطاقة تنتشر كالدخان، وأنها تتسرب مبتعدة عنه، وأن سيميون ينفث طاقة بديلة من جسمه.

أدرك نيال أن طاقاته كانت تتسرب هي الأخرى قبل أن يقلب مرآة التأمل. لكنه تمكن، حين ركز ذهنه، من السيطرة على هذا التبديد لطاقته الحيوية. كما أدرك أن بمقدوره استيعاب الطاقة من النسيج البنفسجي، وكذلك من الأرض والبحر. كان مصدر الطاقة البنفسجية يكمن فيما وراء الأفق الجنوبي، وعرف أن هذا المصدر هو امبراطورة النباتات التي امتصت طاقة الأرض الخضراء وركزتها، ثم بثتها، حتى تتمكن الكائنات الحية، مثل الإسفنج، من امتصاصها. لكن الإسفنج كان ضئيلاً للغاية، وغير مؤهل لاستغلال الطاقة على نحو سليم، إذ بإمكانه تخزين قدر ضئيل منها فقط. أما سيميون الذي استطاع تخزين كميات كبيرة منها فلم يكن مدركاً لوجودها.

كان بوسع نيال أن يخزن الطاقة، فكل ما تعين عليه هو مجرد امتصاصها، مثل سمكة تأكل العوالق، ثم منعها من التسرب مرة أخرى. وبعد أن اتقن هذه الحيلة تزايد وهج الدفء بداخل جسمه حتى شعر كما لو أنه يجلس بجوار نار ضخمة. لاحظ حينما نظر إلى جسمه أنه لم يعد أحمر شاحباً، بل تحول إلى لون الياقوت الأحمر الداكن.

وضع سيميون يده على ذراعه فأعاده مرة أخرى إلى وعيه بالعالم المادي.

ـ سأذهب لإطلاق الضغط. لا بد وأن الريح ستكون أقل قوة قرب الأرض. وليس هناك ما يدعو للابتعاد أكثر من ذلك.

ومد يده نحو صمام اطلاق الضغط.

أحس نيال أن قلق سيميون ليس له معنى، فهو يدرك أن الريح ما هي سوى مجرد شكل بسيط من أشكال الطاقة، وبالتالي فهي جزء من نمط طاقة واسع، هم أنفسهم محوره. ولذلك فإذا رغبوا في تغيير النمط فما عليهم سوى بذل جهد إرادي تلقائي، مثل طير يغير اتجاه طيرانه. بل إن الحيوانات الإسفنجية تعرف كيفية القيام بهذه المهمة.

أغمض نيال عينيه وركز ذهنه على لسان الأرض إلى الجنوب منهم. ثم بذل جهداً لامتصاص مزيد من الطاقة. كانت هذه العملية تماثل إلى حد كبير مهمة زيادة الوزن، لذلك

فقد تدلى نسيج الطاقة العنكبوتي تحته، الأمر الذي خلق دوامة من الطاقة الخاضعة للسيطرة امتصت الطاقات المحيطة بها. اهتز منطادهما بعنف فاضطرا الى التشبث بحافتي المحمل التحتي.

قال سيميون الذي أحس أنه المسؤول عما حدث:

ـ آسف.

شعر بعد بضع دقائق بالارتياح، وربت على كتف نيال قائلاً:

ـ اعتقد أن الوضع بات أفضل الآن.

ولوح، وهو يشعر بالانتصار لدوجنز في المنطاد المجاور.

لم يحر نيال رداً، فقد كان يركز، مثل ربان، على توجيه تيارات الطاقة ومنعها من جرفهما أبعد مما يريدان. وجد أن هذا أسهل إذا ما ظل مغمض العينين، ثم أدرك كمية الطاقة التي يسيطر عليها بالتحديد. وحين فتح عينيه مرة أخرى تمكن من رؤية ما بعد لسان الأرض، بمنارته، الى جدران الميناء الصخرية الضخمة. عبروا بعد عشرين دقيقة الساحل الى الشمال من اللسان ورأوا عن يمينهم الميناء وأرصفته. كانوا على ارتفاع منخفض فتمكنوا من رؤية البشر والعناكب يتحركون فوق الأرصفة توقف البشر عن أداء عملهم وراحوا يحدقون في المناطيد الثلاثة الغريبة التي تتصل معاً بالحبال، بينما شعر نيال بالاستياء البارد الذي لاحت علاماته في نظرات العديد من العناكب. لكنه أحس أيضاً بكفاءة مختلفة في أشعة الإرادة التي راحت تتفحصهم، فقد اتسمت الأشعة بالحذر. لقد تعلمت العناكب أن تخشى البشر وتحترمهم.

شاهدوا، إلى الشمال الشرقي، مباني مدينة العناكب وهي تنتشر في المنخفض بين التلال، كما رأوا عند الجانب البعيد من التلال أبراج الخنافس الحمراء الملتوية. وسرعان ما امتدت مدينة العناكب دونهم. وخفق قلب نيال حين رأى البرج الأبيض يتلألأ في ضوء الشمس. ثم أدرك مرة أخرى أنه مُراقَب، وانتابه من جديد شعور بالشك والحذر. لكنه أحس بنوع مختلف من المراقبة يأتي من مقر سيد العناكب؛ نظرة حاقدة تتفحصهم، كما لو أن حيواناً جائعاً يتابع فريسته المرتقبة. وهنا لم يكن ثمة أي إحساس بالخوف، بل كراهية فقط.

هب عليهم نسيم خفيف بعد أن توغلت المناطيد داخل اليابسة، فقد احاطتهم سلسلة من التلال الساحلية، وهي المنطقة التي اختارها البشر الأوائل لتكون موقعاً لمدينتهم. وحين بدأوا رحلة الهبوط الطويلة تجاه مدينة الخنافس لم تكن هناك حاجة لتوجيه المناطيد، فقد حملتهم الريح مباشرة نحو المساحة الخضراء بالساحة الرئيسية. هرع الرجال والنساء نحو

الساحة حين عرفوا بقدومهم، وتجمع حشد فوق درجات مبنى البلدية والمباني المجاورة. فكوا الحبال التي تصل المناطيد بعضها ببعض وتركوها تتدلى نحو الأرض. وحين اقتربوا قفز الرجال وأمسكوا بالحبال، ووجهوا المناطيد نحو منطقة الحشائش. اصطدموا بالأرض، ووجد نيال نفسه، فجأة، ممداً على أرضية المحمل التحتي يتجرجر على الأرض، والمنطاد فوقه. سحبته أيدٍ بعد لحظات، وساعدته على الوقوف. لفت فتاة ذراعيها حول عنقه، وطبعت قبلة على خده. لقد كانت دونا التي رأى، وسط دهشته، الدموع في عينيها.

- لِمَ تبكين؟

- لم أكن أظن أنني سأراك مرة أخرى...

شعر بالاستغراب حينما لامست قدماه الأرض الصلبة، وأحس بالهواء دافئاً ومنعشاً، وبشذا الأزهار وكأنه يربت عليه.

لقي الآخرون استقبالاً حاراً مماثلاً، وكاد دوجنز يتعثر في أطفاله ويسقط على الأرض. وأحاط حشد من الرجال والنساء بميلو وأوليس ومانيثو.

صافح «كريسبن» نيال واحتضنه بذراعه الأخرى وسأله بصوت خفيض:

- أذهبتم حقاً إلى الدلتا؟

- نعم. ماذا حدث خلال فترة غيابنا؟

تلفت كريسبن حوله وقال: لقد غضب السيد لأنك رحلت دون إذن. وألقي بهاستور وكوزمن في السجن منذ رحيلكم، وتقوم العناكب بتفتيش مبنى البلدية يومياً.

- وماذا حدث للأسلحة الحاصدة؟

- لقد وضعوا أيديهم عليها.

- ولكن ألم يتم تدميرها؟

- كلا. ولكني أعتقد أنهم يتشاورون بهذا الشأن.

تقدم حارس خنفساء من بين الحشود نحوهما فخمن نيال ما يريد.

همست دونا في أذن نيال:

- هل صحيح أنك ستتزوج من ميرلو؟

- مَن قال لك ذلك؟

- الجميع سمع هذه الشائعة.

ثم أضافت ساخرة:
ـ أعتقد أنها هي التي بدأتها.

رد نيال ضاحكاً: إذن فقد نسيت أن تخبرني.

ابتسمت دونا بارتياح.

همس دوجنز في أذن نيال:
ـ لقد بدأت المتاعب. من الأفضل أن تتركني أعالج الأمور.

توقف الحارس الخنفساء وتحدث إلى دوجنز بلغة الإشارة، ورد دوجنز بالطريقة ذاتها، وتحدث في الوقت نفسه بصوت مرتفع حتى يفهم نيال.

ـ قُل للسيد بأننا سنكون هناك.

والتفت إلى نيال وقال:
ـ لقد تم استدعاؤنا للمثول أمام المجلس في غضون ساعة.

وحين استدار الخنفساء ليمضي ناغم نيال ذبذبته على الموجة الذهنية له.
ـ انتظر!

التفت الخنفساء ونظر إليه بدهشة. وحين تبادلا النظرات اكتشف نيال أن الاتصال المباشر بينهما طبيعي، مثل الكلام.

ـ أرجو أن تبلغ السيد بأنني أرغب في التحدث إليه.

تساءل دوجنز: ما الذي يجري؟

راح الحارس الخنفساء يتطلع إليه في دهشة، فقال نيال:

ـ لقد أبلغته بأنني أريد التحدث إلى السيد في الحال.

نظر إليه دوجنز بدهشة وقال:
ـ ولكن لِمَ؟ إنك لن تلقى سوى اللوم.
ـ هذا لا يهم.

هز دوجنز كتفيه وقال:
ـ حسناً، لن تضر هذه المقابلة في شيء.

والتفت إلى الحارس وأشار إليه بيديه ففهم الحارس ما يريد وعاد باتجاه مبنى البلدية.

قال دوجنز: آمل ألا تضع على عاتقك كل اللوم.

هز نيال كتفيه وقال: لن يكون هناك أي لوم. فمن حقنا أن نذهب إلى أي مكان نريده.

وراح يتبع الحارس فبدت علامات الذعر على وجه دوجنز وقال:

ـ انتظر دقيقة!

تجاهله نيال وهرع وراء الحارس الذي سار بخطى واسعة تساعده قوائمه الطويلة التي حملته فوق رؤوس الحشد. واضطر نيال للاعتذار وهو يدفع الواقفين. استدار الخنفساء يساراً، ثم اختفى عند زاوية مبنى البلدية، ولما وصل نيال إلى هناك وجده واقفاً أمام أحد الأبراج الحمراء الملتوية. وحين هرع في الشارع اختفى الحارس داخل البرج. توقف نيال بعد بضع لحظات أمام المدخل، ووجدها فرصة لالتقاط أنفاسه.

كان الباب الذي يقف أمامه مقوساً ومحفوراً في جدار تزيد سماكته عن قدم. ورأى، بعد أن نزل منحدراً هابطاً، باباً آخر مصنوعاً من مادة شمعية ثقيلة. أحس أن الخنافس لم تستطع الاستفادة من اختراع البشر للأبواب ذات المفصلات، لكنها فضلت هذه الأبواب السميكة غير العملية. كما لاحظ أن الممر المقوس يزيد ارتفاعه قليلاً جداً عن طوله هو نفسه، وقد اضطر الحارس الخنفساء إلى أن يضغط بطنه في الجدار للدخول. ساعدته هذه الملاحظات على تهدئة توتره، كما كشفت أن الخنافس ما تزال رغم ذكائها مرتبطة بماضيها.

بذل جهداً ليسترخي، لكنه وجد أن الأمر سهل، فسرعان ما خف توتره، مما جعله يشعر برغبة في النوم. ثم لفه شعور بالدفء، وأدرك أنه محاط بوهج من الطاقة بدا أن البيت نفسه ينفثها. وكان الوهج مثل لهب أزرق متصاعد. فهم الآن سبب إحاطة كل بيت من بيوت الخنافس بخندق مائي ضيق. فهذا يمنع اللهب من الانتشار، وبالتالي تزيد كثافته. لفته الطاقة بوهج لطيف كالنسيم، وجعلت جلده يقشعر من الدفء كما لو أنه يتعرض لحمام شمس.

انسل الحارس الخنفساء خارجاً من الممر بعد أن ضغط جسمه، وهي عملية من الواضح أنه تعود عليها، وأومأ إلى نيال بالخروج مثله. فخطا إلى الداخل حيث ألفاه مظلماً. فتوقف وقد أحس وكأنه معصوب العينين، بعد أن جاء لتوه من ضوء الشمس الباهر. ولكن بعد نحو دقيقة بدأت الأمور تتحسن، وتمكن من رؤية ألسنة اللهب الأزرق الخافت. سار بحذر فوق المرتفع حيث بدت الأرض زلقة تحت حذائه الجلدي، ثم وجد نفسه في بهو كبير لفه ظلام دامس، باستثناء ضوء اللهب الأزرق الخافت. رأى حول

القاعـة حجرات ذات مداخل شبه مستديرة، وأحس بوجود الخنـافس الأخرى، وراقبـه من أحد المداخـل خنفساء مدفعية ضئيـل له بشرة خضراء فضيـة وعينان يشع منها الفضول.

وقف أمام مرتفع آخر من الأرض رأى عند قمته قوساً عريضاً أدرك أنه مدخل حجرة السيد. وحين راح يصعد المرتفع بدا كأن صوت السيد يتحدث إليه من الهواء.

ـ لا بد أن يخلع البشر أحذيتهم قبل دخول مقر «السارلاب».

ترافـق مع هذه الكلمـات شعور بالانفعـال كان مثل ريح باردة. أثـار ذلك إحسـاساً غريباً بالارتياح، فقد كشف أن السيد يتأثر بالعواطف، وبالتالي فإنه ليس كائناً فـوق مستوى البشر تماماً. انحنى وخلع حـذاءه وتركه على الأرض، ثم صعد المرتفع حافي القدمين.

وقف في وسط المدخـل وقد شعر أن الدخول إلى الحجـرة بدون دعــوة سيثير المـزيد من الاستفـزاز. كانت حجـرة السيد عـلى شكل كـرة ضخمة، وبـدا أن هذا وسط السقف. اكتست الأرضية المقوسة بسجادة من أوراق الأشجـار الخضراء والعشب، وطبقة سميكـة من الطحالب. رأى صخوراً ضخمة في الحجرة، وقطعة هائلة من الخشب المتآكل، من الـواضح أن هذه الأشياء تؤدي الوظيفة التي يؤديها أثاث المنزل بالنسبة للإنسان.

كان السيد مستلقياً وسط الحجـرة وقد طوى قوائمه تحته، ومع ذلك فإن عينيه كانتا في مستوى أعلى من عيني نيال.

لم يتلق دعوة بدخول الحجرة، وبدلاً من ذلك سأله السيد:

ـ لماذا طلبت مقابلتي؟

تـوصل نيـال لاكتشاف مثير. ففي المقابـلات السابقـة التي تحدّث فيهـا إلى السيـد كـان يـرد بلغة البشـر ويعتمـد على قـدرة السيد عـلى قراءة أفكـاره. أما منـذ التقائـه بإمـبراطورة النباتـات فـإن الكلمات لم يعد لهـا أية ضرورة، وبـات بإمكـانه نقـل ما يعنيـه بذهنـه فقط، فقال:

ـ لقد جئت لأنني بحاجة إلى مساعدتك.

جاءه الرد مثل عاصفة ثلجية:

ـ ليس لك الحق في طلب مساعدتي، لقد حرضت خدمي على العصيان.

بذل جهد كبيراً قبل أن يـرد للسيطرة على أي شعور بالاشمئـزاز أو الذعر.

ـ لم أقـل إنني جئت لأطلب مسـاعـدتـك، بـل قلت لقـد جئت لأنني بحـاجـة إلى مساعدتك.

صمت فترة كي يتضح المعنى، ثم قال:

ـ ليس أمامك خيار سوى الموافقة على طلبي.

كان متوقعاً أن تؤدي هذه الكلمات إلى إثارة غضب السيد، إلا أنها أدت في الواقع إلى التأثير العكسي.

شدت الكلمات انتباه السيد الذي تسال:

ـ لِمَ تقول ذلك؟

ـ يتعين عليك أن تبرم اتفاق السلام مع العناكب، وأن تقرر ما ستفعله مع خدمك. وسوف تحتاج إلى مساعدتي لتحقيق هذيه الأمرين.

انتابه شعور غريب، فقبل أن يدخل الحجرة لم تكن لديه فكرة عما سيقوله، أما الآن فقد بدت الكلمات وكأنها تخرج من داخله، كما لو أن منطقاً داخلياً يحكمها. وكل ما عليه هو مجرد التحكم في عواطفه حتى لا يتداخل أي شعور شخصي مع ما يقول، ثم فهم على وجه الدقة ما الذي ينبغي عليه قوله.

سأله السيد: كيف تستطيع مساعدتي في إبرام السلام مع العناكب؟

ـ لا بد وأن أذهب لمقابلة سيد العناكب، وسوف أبرم معه اتفاقية سلام.

ـ إذا ما أصبحت تحت رحمته فسوف يقتلك.

ـ هذا صحيح، ولذلك فإنني بحاجة إلى مساعدتك.

ـ أفصح؟

ـ لقد وضعتم أيديكم الآن على الأسلحة الحاصدة. وإذا ما قتلني سيد العناكب فعليك أن تعيدها إلى خدمك كي يكون بوسعهم الانتقام. وإذا ما وعدت بذلك فإن سيد العناكب لن يجرؤ على قتلي.

ـ لديكم أسلحتكم، فلماذا تحتاجون إلى الأسلحة الأخرى؟

ـ لقد تركناها في الدلتا.

أحس بمدى المفاجأة التي شعر بها السيد، فتساءل في ريبة:

ـ لِمَ؟

قاوم محاولة من السيد لسبر أغوار ذهنه فكانت هذه المحاولة بمثابة دلالة على علاقتهما الجديدة.

ـ لأنها في غاية الخطورة.

وحين أحس نيال بحيرة السيد أدرك فجأة أنه قد انتصر.

ساد صمت، ثم قال السيد:

ـ أدرك أن تغيراً ما قد طرأ عليك منذ أواخر مرة وقفت فيها أمامي. الآن تتحدث بثقة. لقد كنت اعتزم إصدار الأوامر بعقابك على الفور، وعقاب بلدو وخدمي الآخرين. لكنني أرى أن ذلك لن يفيد.

أدام النظر إلى نيال مفكراً، لكنه تخلى عن محاولة سبر أغوار ذهنه وقال في النهاية:

ـ سوف أحقق ما طلبته، وسأرسل أحد خدمي ليرافقك إلى سيد العناكب، وسوف يسلمه رسالة بأنك تحت حمايتي الشخصية، وسيفهم سيد الموت ذلك. متى تعتزم الذهاب إليه؟

ـ أرغب في التوجه إليه في الحال.

ـ حسناً جداً.

لم تصدر عن السيد أية إشارة، لكن خنفساً صغيراً يكاد طوله يزيد عن طول طفل ظهر في الحجرة. لم يتمكن نيال من فهم الكلمات التي تبودلت بينهما، لكنها بدت بلا معنى، مثل خشخشة أوراق جافة. ثم انسحب الخنفساء الصغير، وقال السيد:

ـ أمر آخر أريد أن أوضحه. فسيد العناكب ماكر وخبيث، لكنه عند كلمته، فإذا ما وعدك بشيء، فسوف يفي بوعده. وإذا ما استطعت التوصل إلى اتفاق سلام بشأن مصير الخدم من البشر فإننا سنكون ممتنين لك. وربما تنجح في مسعاك، فأنا أشعر أنك تخفي سراً.

لم يحر جواباً، فقد تعلم أن يسيطر على استجاباته، ولذلك فقد بدا ذهنه خالياً من أي شيء. قال السيد:

ـ امض الآن! وسوف يذهب معك كبير المستشارين.

ـ أشكرك.

استدار وانسحب من حضرة السيد. قطع نصف الطريق وهو يهبط المنحدر قبل أن يتذكر إن كان عليه أن ينحني أو يظهر أية دلالة على التبجيل.

بهرت أشعة الشمس في الخارج بصره فاضطر إلى إغماض عينيه. شعر بلمسة على كتفه وهو يقف متردداً. قام الخنفسا بأداء إشارات بقائمتيه الأماميتين، مصحوبة بصفير. رد نيال بعرض أفكاره:

ـ لا أستطيع فهم لغتك. أرجوك أن تحاول إجراء الاتصال بذهنك.

حدق الخنفساء فيه بعينيه السوداويين الخاليتين من أي تعبير. من الواضح أنه لم يتمكن

من التعبير عن نفسه بلغة البشر. أشار في النهاية إلى نيال أن يتبعه فانطلقا معاً باتجاه الساحة.

كان حشد البشر قد تفرق، ولم تكن هناك سوى مجموعة من الصبية تتابع أوليس وميلو وهما يطويان المناطيد. وجدا عربة بجوارها أربعة من السائقين بانتظارهما خارج مبنى البلدية. أشار الخنفساء إلى نيال بأن يصعد، وبمجرد أن جلس بدأ سائقو العربة يتحركون.

هبط دوجنز درج مبنى البلدية مسرعاً ولوح بذراعيه قائلاً:

- توقفوا دقيقة!
- فتوقف سائقو العربة.
- ماذا حدث؟

أحس نيال بتوتر دوجنز وعصبيته.

التفت الخنفساء إلى دوجنز وتحدث إليه بلغة الخنافس فشحب وجهه.

- يقول إنك ستذهب إلى سيد العناكب.
- نعم
- هل طلب السيد منك ذلك؟
- لا، لقد اتخذت القرار بنفسي.
- ولكن لِمَ؟ هل جننت؟

قاطع الخنفساء دوجنز، وأخذ نيال يراقب الاثنين وهما يتبادلان الإشارات. التفت دوجنز إلى نيال وهز رأسه في سخط، وقال وهو يحاول التحكم في أعصابه:

- لن يغير هذا من الأمر شيئاً. يقول إنه سيذهب معك ليحيط سيد العناكب علماً بأنك تحت حماية السيد. ولكن لن يغير هذا من الأمر شيئاً. لقد حاول بالفعل قتلك أمام السيد.

وضع نيال يده على كتف دوجنز محاولاً تهدئته وقال:

- لا عليك. لقد وعد السيد بأن يعيد إليكم الأسلحة الحاصدة إذا قتلني سيد العناكب حتى تتمكنوا من الانتقام.

حدق دوجنز فيه بريبة وقال:

- هل وعد بذلك حقاً؟
- نعم.

فكر دوجنز للحظة، ثم هز رأسه قائلاً:

ـ لكن ما تفعله يتسم بالجنون. لماذا تريد الذهاب بمفردك؟

ـ لقد سببت هذه المتاعب، ويجب أن أحاول حلها الآن.

ـ في هذه الحالة سآتي معك.

بدأ يصعد إلى العربة، لكن نيال منعه وقال وهو يضع يده فوق كتفه:

ـ لا. عليّ أن أذهب بمفردي.

حدق دوجنز في عينيه كما لو أنه يحاول قراءة أفكاره، ثم قال في نهاية المطاف:

ـ آمل أن تكون مدركاً لما تفعله.

ـ أظن ذلك.

تمنى نيال ألا تكون عيناه قد وشتا بعدم اقتناعه، وقال:

ـ يتعين عليّ أن أمضي الآن. أعتقد أن السيد قد ألغى اجتماع المجلس. إلى اللقاء حتى نلتقي مرة أخرى.

مال للأمام وأصدر إشارة لكبير السائقين بالتحرك فانطلقت العربة. رأى، حين انعطفت إلى الشارع الرئيسي، دونا تعبر العشب وتهرع باتجاهه وهي تناديه، فقرر ألا يتوقف حتى لا يضطر للمزيد من الشرح.

تبع الخنفساء العربة وهو يسير بخطى طويلة غير متسرعة، ولم يبذل جهداً للسير في محاذاة السائقين. تجاوزوا بعد عشر دقائق حدود المدينة وأصبحوا في الحقول المنبسطة. كان صباحاً اتسم فيه الجو بالصفاء، وهب نسيم عليل، وحمل الهواء رائحة خريف وشيك. بدأت أوراق الأشجار تتحول إلى اللون البني، وظللت الأشجار الطريق وسط الغابة، وتلألأت مياه النهر الذي يجري بجانبهم. جعله خرير الماء يشعر بحالة من الهدوء تغلبت على توتره.

حين فكر مرة أخرى في الحديث الذي أجراه مع السيد اعترته الدهشة والحيرة. بدا غريباً أن يخاطب السيد بقليل من الاحترام. وعندما حاول إعادة تصور حالته الذهنية خلال المقابلة أدرك أن كلماته كانت تعبر عن إحساس عميق بالاقتناع الداخلي. ولكن ما كُنه هذا الاقتناع بالتحديد؟ كلما فكر في ذلك راوغته الحقيقة.

كان ثمة أمر واحد في غاية الوضوح، وهو أن الخنافس، رغم قوتها وحكمتها، تفتقر إلى فهم مدى توق الإنسان إلى الحرية. وهي أقل قسوة من العناكب، إلا أنها تعامل خدمها

من البشر كالأطفال. ولم يبد أنها تدرك أن الإنسان يشعر بالاستياء لكونه خادماً مهما لقي من معاملة حسنة. ونتيجة لعدم إدراكها فقد أفسحت الطريق أمام حدوث تمرد.

باتوا على بعد نحو ميل من ضواحي مدينة العناكب. انتشرت الحقول المزروعة على جانبي الطريق، ورأى في أحدها مجموعة من الرجال يحرثون الأرض وتشرف عليهم امرأة. بدا المشهد تحت أشعة الشمس الرقيقة كأنه في عالم ريفي هادىء. وجد نفسه يفكر في الطبيعة البشرية المثيرة للحيرة، فالبشر يتوقون إلى الحرية، ومع ذلك فإنهم يتوقون أيضاً للراحة والأمان. أحس أن هاتين الرغبتين متضاربتان، وشعر بالحيرة والاضطراب وهو يفكر في ذلك.

ثم وصل سائقو العربة إلى قمة التل الذي يمثل الحدود الخارجية لمدينة العناكب، واعتراه مرة أخرى شعور بالرهبة وهو يتطلع إلى مجموعة عريضة من المساكن البشرية. بدا الأمر لا يصدق؛ فهذه المدينة العظيمة كان يسكنها ذات مرة مئات الآلاف من البشر الذين كانوا السادة، والذين لم يدينوا بأي ولاء سواء للعناكب أو للخنافس. أخذوا يهبطون التل، وتحرك سائقو العربة بسرعة، وأخذت أنسجة العناكب الخاوية تتموج فوق رؤوسهم وسط النسيم الدافىء. حاول نيال، بينما راحت العربة تقعقع على الطريق العريض، أن يتذكر أول مرة شاهد فيها مدينة العناكب. فبالأمس كانوا يتخبطون وسط مستنقعات الدلتا، وأمس الأول عاد مع دوجنز من ضفاف النهر العظيم، وقبل ذلك بيوم. . . وحين انتهى من ذكرياته دهش إذ أدرك أنه لم يمر سوى أسبوعين منذ أن نزل في الميناء.

وقبل ذلك بثلاثة أيام فقط كان أبوه ما يزال على قيد الحياة، وكانوا ما يزالون يعيشون في الجحر. بدا الأمر في غاية الغرابة، ففي غضون سبعة عشر يوماً فقط خاض تجربة قد تستغرق حياة معظم الرجال.

عرف فجأة، حين دخلوا حي العبيد، الإجابة عن السؤال الذي أثار حيرته. وهو: لماذا يتوق البشر للحرية بشكل أكبر من الأمن والراحة؟ لأن الحرية تعني ثراء التجربة التي تعني بدورها اكتشاف قدراتهم. فبدون ثراء التجربة لا يمكن أن يكون هناك أي اكتشاف لطاقاتهم الداخلية. ولهذا السبب كره الانسان الاستبعاد لأنه يعني الركود الداخلي. . .

أثارت الروائح المألوفة لحي العبيد، ومشاهد الأسماك المعلقة في صفوف، والفئران الباحثة عن الطعام في الحارات، شعوراً مفاجئاً بالحنين. كان عليه أن يُذكر نفسه، مرة أخرى، بأنه لم يمض سوى أقل من أسبوعين منذ أن رأى هذه الشوارع القذرة. كما دُهش من التغيرات التي طرأت عليه خلال هذه الفترة القصيرة.

اقتربوا من الجسر الممتد فوق النهر. رأى في نهاية الشارع، خلف الجسر، البرج الأبيض الذي يقع خلفه مقر سيد العناكب. لاحظ بارتياح أنه قد سيطر على شعوره اللاإرادي بالخوف قبل أن يتدفق في جهازه العصبي. رأى، بعد لحظة، العربة التي كانت تقف في وسط الطريق على الطرف الآخر من الجسر. أمسك سائقان يقفان في وضع الانتباه، بالعريشين. تعرف في الحال على الفتاة الجالسة داخلها، وحين اقترب لوحت له بيدها وترجلت. توقف سائقو عربة نيال من تلقاء أنفسهم، وأحنوا رؤوسهم تبجيلاً. صعدت إلى جانبه ومالت على أقرب سائق وربتت على كتفه قائلة: «استمر، ولكن ببطء!» وتجاهلت تماماً الخنفساء الذي بدت علامات الدهشة في عينيه السودواوين الجاحظتين.

قال نيال: كيف عرفت بأنني آت؟

ـ نحن النساء لنا أسرارنا.

وندت عن شفتي ميرلو ابتسامة ساحرة وهي تضيف: هل قررت الأخذ بنصيحتي؟

طرحت هذا السؤال وكأنها تستكمل حديثاً بدأ لتوه.

ـ اتعنين بذلك الزواج مني؟

تضرج وجهها، وألقت نظرة خاطفة على سائقي العربة على أمل ألا يكونوا قد استرقوا السمع، وقالت: لا. إنني أعني التوصل إلى تفاهم مع سيد العناكب.

هز رأسه وقال: لا أظن ذلك.

اتسعت عيناها دهشة، وقالت: إذن، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ في محاولة للتفاوض مع سيد العناكب.

تضرج خداها وهي تحاول خفض صوتها، والتمعت عيناها وهي تقول: غير معقول ما تقوله!

طيرت الريح فستانها الأحمر فكشفت عن ساقيها الخمريتين الجميلتين. أبدى جزء من نيال إعجابه بجمالها، بينما نظر جزء آخر منه إليها بهدوء ساخر. رآها، من خلال عيني عواطفه مرغوبة بشكل جنوني، بينما رآها، بعينيه الأخريين، فتاة مدللة تعودت على نيل ما تريد، وعلى تصميمها لضمه إلى نفسها. بل إنها ارتدت هذا الفستان الشفاف لتحقيق هذا الهدف، فهي تدرك أنه يجعلها، تحت أشعة الشمس الساطعة، عارية بالفعل، وليس هناك رجل يستطيع مقاومتها حين تستخدم كل أسلحة فتنتها. لاحظ بفضول أنها تفرز قوة كهربائية معينة تؤدي الى تسارع نبضات قلبه. ولكن في الوقت الذي رآها فيه فاتنة بعواطفه،

فإن جزءاً آخر منه نظر إليها بطريقة ساخرة. فقد رآها هذا الشخص الآخر من خلال عينيه الأخريين طفلة رائعة، لكنها عنيدة، وأدرك أن أي تورط عاطفي طويل الأمد معها سوف ينتهي بكارثة.

مالت للأمام وقالت لسائقي العربة:

ـ احملونا إلى قصري!

هز نيال رأسه وقال: لا. يتعين عليّ أن أقابل سيد العناكب.

قالت بصوت ناعم: أعرف ذلك، لكن تعال وتحدث معي أولاً!

عرف أنها سوف تستخدم كل فنون الإقناع. ولم يستسغ فكرة مقاومتها فقال:

ـ آسف. فلا بد وأن أقابل سيد العناكب.

ـ ليكن. ولكن أرجوك أن تصغي لما سأقوله.

ربتت على يديه بأصابعها الرقيقة ونظرت إلى عينيه وقالت:

ـ أتعرف أن سيد العناكب قد توصل إلى اتفاق مع الخنافس؟

قال بدهشة: لا. لا أعرف.

ـ لقد توصلوا إلى اتفاق بمجرد رحيلك. وبالمناسبة ما كان يتعين أن ترحل، فقد أثار ذلك غضب الخنافس. ومن الغباء أن تثير غضبها في الوقت الذي تسعى فيه إلى ضمها لجانبك.

تساءل بصبر: ما هذا الاتفاق؟

ـ اتفقوا على أنهم كانوا قد منحوا خدمهم قدراً كبيراً جداً من الحرية، مما جعلهم ناكرين للجميل ومتمردين. كما اتفقوا على مصادرة هذه الأسلحة المخيفة، ووعدوا بعدم إعادتها لكم تحت أي ظروف.

ـ كيف عرفت كل هذا؟

ـ أعرف كل شيء يحدث.

تساءل مرة أخرى: ما الذي يحدث لو أن الخدم قرروا أنهم لا يريدون أن يكونوا خدماً بعد الآن؟

هزت رأسها، وبدا واضحاً أن الفكرة بدت غريبة عنها، وقالت:

ـ من الغباء أن يقرروا ذلك.

ـ لِمَ؟

ـ لست مضطرة لأن أشرح لك أسبابي.

كانوا قد وصلوا إلى طرف الساحة المواجهة للبرج الأبيض ومقر سيد العناكب. تصاعد دخان أسود من نار مشتعلة عند الجانب البعيد للبرج، ووقف حشد من العبيد حولها يلقون بأشياء وسط اللهب، بينما راح آخرون يجرون العربات عبر العشب.

وأخذ عدد من المشرفين والخدم يتابعون الموقف من بعيد.

تساءل نيال: ماذا يحرقون؟

أومأت إلى الحشد وقالت: مجرد كتب. انظر إليهم. ماذا كانوا يفعلون لو لم يكونوا خدماً؟ إنهم في غاية السعادة، بل إن «ماسيج» وآخرين يستمتعون بالإقامة هنا. وأنا على يقين من أن أهلك يشعرون بالإحساس ذاته.

قال نيال: لا أريد أن أكون خادماً.

ـ إنك تشبهني. لقد خلقنا لنكون حكاماً.

وخفضت صوتها وقربت شفتيها من شفتيه وقالت:

ـ لهذا السبب ينتمي كل منا للآخر.

ثم تذكرت أنها في مكان عام فأبعدت وجهها، وضغطت على يده مرة أخرى وقالت: أليس كذلك؟

ـ لو أن ما تقولينه صحيح فإنه لن يكون أمامي بديل.

ـ هذا صحيح، ولن يلومك أحد.

سألها: لماذا يحرقون الكتب؟

ـ إن هذا أحدث ما اقترحه سيد العناكب. لقد أدرك فجأة أن هذا المكان مملوء بالكتب المخبأة في البيوت القديمة.

ـ لكن خدمه ليس باستطاعتهم القراءة.

ـ بلى، ولكن قد يجدون الدافع لتعلمها.

أضطر سائقو عربتها للتوقف لإفساح الطريق أمام عربة محملة بكتب جميعها مغلف بجلد أزرق مرصع بحروف من ماء الذهب، من الواضح أنها جُلبت من إحدى المكتبات.

قالت ميرلو: لقد وعدت الخنافس بالقيام بالشيء ذاته في «كراشفيل». إن خدمها لم

يلتزموا بالقانون لأجيال. أما الآن فإنهم سيقومون بتسليم كتبهم. واعتقد أن هذا سيكون أمراً جيداً.

- لِمَ؟

- آمل ألا تستمر في طرح الأسئلة عليّ؟ أليس ذلك واضحاً؟ إن بنداً من معاهدة السلام يقضي بألا تسمح لخدمها بالقراءة. وقد دأبت الخنافس على السماح لخدمها بخرق المعاهدة. والآن فقد وافقت على وقف عدم الانصياع لبنود المعاهدة. وأظن ذلك سيفيد كثيراً.

- لِمَ؟

قالت بصبر نافد: لأنه ليس من المفيد أن يتعلم الخدم القراءة. أنت لا تستطيع القراءة، ومع ذلك لا تشعر بأي نقص، أليس كذلك؟

- لكنني أستطيع القراءة.

عكست عيناها للحظة حالة الذعر التي انتابتها وقالت:

- أتستطيع القراءة حقاً؟ حسناً، لا يهم طالما أن العناكب لم تكتشف ذلك.

- لهذا السبب لا أريد أن أكون خادماً. أرغب في أن يسمح لي باتخاذ القرار الذي أراه مناسباً تجاه هذه الأمور.

عكست عيناها حالة الذهول التي اعترتها، وبدا واضحاً أنها تفكر في شيء آخر وهي تقول:

- نعم، أدري. ولا أظن أنها ستهتم بذلك. وعلى أية حال فإنه لن يبقى أي كتاب حين تنتهي المهمة.

توقفوا أمام مقر سيد العناكب حيث وقف عنكبوتان ذئبيان في الحراسة تحت الرواق عند المدخل. بدا أن ميرلو قد فوجئت بالمكان الذي وصلوا إليه فمالت للأمام وربتت على كتف أقرب سائق غاضبة وقالت:

- أعتقد أنني طلبت منك الذهاب إلى قصري.

قال نيال: لا. لا بد وأن أقابل سيد العناكب أولاً.

رمقت سائقي العربة شزراً وقالت: ولكن لا بد وأن ينفذوا ما يُطلب منهم. وأحس نيال مرة أخرى بطبيعة الطفلة المدللة، وشعر بالحزن.

هرع خنفساء المدفعية نحو الأبواب الرئيسية التي انفتحت وخرج منها عنكبوت

موت أسـود قصير وبديـن أكـدت قوائمه المقوسة مدى قوته. اعترى نيـال عندما حـدق فيه العنكبـوت إحساس قوي بالخطر.

همست ميرلو في أذنـه قائلة:

ـ هذا هو «سكوربو» قائد الحرس.

كادت موجة العـداء التي بثـها العنكبوت تخنق نيال، مما دفعه لمحاولـة استخدام مـرآة التأمل ليعرب عن تحديه، لكنه استبعد الفكرة في الحال، فاستفزازه لن يجدي في شيء.

جرت محادثة قصيرة بين العنكبـوت وخنفساء المدفعية التفـت بعدهـا الخنفساء وأومأ إليه. وحين هم بالترجـل خرجت ثلاثة عنـاكب أخرى من المبنى وأحـاطت به. وبـدا هذا التصرف لنيـال لا معنى له، فهو لا ينوي الهرب. لكنه سرعان ما فهم الأمـر، فالغـرض من ذلك هو جعله يشعر بأنه أسير، وسيكون محظوظاً لو نجا بحياته. أحس بقوة إرادتهـا المعاديـة تضغط عليه بلا هوادة.

تـرجلت ميرلـو هي الأخـرى في أعقـابـه، وحـاول الحـرس من العنـاكب الـوقـوف في طريقها، لكنها شقت طريقها بثبـات لتقف بجانب نيال.

قال نيال: لا يمكنك الدخول معي.

ـ إن بوسعي دخول أي مكان أريده. إنني الأميرة.

نظرت شزراً إلى أقـرب حارس عنكبـوت، فأحس بـالغضب لأن من يتحداه هـو مجرد إنسان. لكن وجود قـائد الحـرس أجبره عـلى كظم غيـظه. أدرك نيال كـل ما يجـول في ذهن العنكبوت من الانفعال، وخشي من رد فعله إذا مـا ألحقت العناكب الأذى بميرلو، فـأمسكها من يدهـا وقال:

ـ أرجوك أن تذهبي الآن، فعلي أن أتعامل مع هذا الأمر بمفردي.

ردت بعناد: سأذهب وقتما أشاء.

ضغط أحـد العناكب عـلى كتف نيـال ودفعـه للدخول. سـارت ميرلـو بجانبـه حين تخطوا البـاب إلى داخـل المبنى المظلم، وقـد تناست مقت الحـرس من العناكب. وقف قـائد الحرس على أحد الجانبيـن وراقبهما بنـظرة متأملة فضـولية فـأحس نيال بغـريزتـه أنه أخـطر بكثير من '' ناكب الأخرى. أثار هذا العداء الوحشي غضبه، لكنـه أدرك ضرورة التحكم في عواطفه.

أحس أيضاً أن خنفساء المدفعية يشعر بالاستياء وعدم الثقـة. فقد كـان ينبغي، وفقاً

لنظام اللياقة، أن يُعامل باحترام وتوقير، لكن العناكب عاملته على أنه متطفل غير مرغوب فيه، وهذا يمثل إيماءة عدم احترام تجاه سيد الخنافس.

مع ذلك لم تكن هناك أية فظاظة صريحة، ولم يكن على يقين ممّا إذا كان ينبغي عليه أن يظهر استياءه أو يلزم الصمت. وحين أحس نيال بحيرته اعترته من جديد موجة الكراهية تجاه العناكب.

كان يتوقع أن ترافقه العناكب إلى أعلى، إلا أنها توقفت عند زاوية القاعة المظلمة. وقف الحرس الثلاثة حولهم، وفاحت من أجسامهم رائحة حريفة غريبة وجدها نيال مقززة. ومع ذلك فقد بدت، من الناحية الجسمانية، أقل خطراً من العناكب الذئبية المُشعِرة، لكنها أظهرت طبيعتها العنيفة بوضوح.

نفد صبر ميرلو؛ فقد جعلها تعودها اليومي على العناكب جريئة فاندفعت وسط العناكب. ووقفت في مواجهة القائد.

ـ لماذا نظل منتظرين هكذا؟

حدق العنكبوت فيها، وبدا من قسمات وجهه أنه يدعي عدم الفهم، وهذه هي الطريقة التي تظهر بها العناكب احتقارها. أحمرّ وجه ميرلو من الغضب وعادت إلى نيال قائلة:

ـ سوف أتقدم بشكوى ضدهم لدى سيد العناكب، فليس من حقهم معاملتنا كالخدم.

قال نيال بهدوء: لا أحد يجب أن يُعامل كخادم.

انفتحت الأبواب ودخل عنكبوت آخر. تعودت عينا نيال الآن على الضوء الخافت، وتمكن من رؤية العنكبوت الذي كان عجوزاً تكاد قوائمه الطويلة الرفيعة لا تتحمل ثقل جسمه الضخم. حدقت ميرلو فيه باهتمام استيقظ بداخلها لتوه، وهمست في أذن نيال حين صعد العنكبوت الدرج واختفى عند الزاوية:

ـ إنه «درافيج» كبير مستشاري سيد العناكب. لا بد وأنهم يعتبرونك شخصاً في غاية الأهمية.

أحس نيال فجأة أنها معجبة بشخصيته.

أومأ القائد للحرس فربت أقرب حارس على ظهر نيال برفق ليتحرك. التفتت ميرلو إلى الحارس وقالت بسخط:

أحذرك أن تلمسني!

ثم أدركت أن القائد يقف أمامهـا ويسد عليها الطريق. نظرت إليه شزراً وقالت:
ـ سوف أدخل معه.

وحاولت التقدم، ولكن حاجزاً خفياً أوقفها. كان القائد يستخدم قوة إرادته لمنعهـا من التقدم. اتسعت عيناها من الحنق، فأمسك نيال بذراعهـا وقال:
ـ أرجوك أن تنتظري هنا. يجب أن أذهب بمفردي.

بذلت جهداً للسيطرة على نفسـها وقالت:
ـ حسناً.

حدقت في القائد، ثم استـدارت وخرجت من الباب الموارب. تنفس نيال الصعداء، وأحس أنه محمل بمشاكل عديـدة تحول دون اهتمامه بتهور ميرلو.

راحوا يصعدون الدرج. بدا هـذا المبنى، في آخر مـرة دخله، مفعماً بـالنشاط. تـذكر العنكبـوت الذي يرقى إلى درجة رقيـب وهو يصدر الأوامر إلى العناكب الذئبية. أمـا الآن فـإن المكان يبـدو وقد لفـه صمت غريب. أغمض عينيـه وبذل جهـداً ليسـترخي. فهم في الحال سر هذا السكون، فالمدينة بأسرها في حالة حداد على مئـات الموتى من العنـاكب، وعلى العديد من العناكـب التي تنتظر الموت، في هذه اللحظة، متأثرة بحروقها. لم يكن يتخيل أن العنـاكب يمكن أن يحـزن بعضهـا عـلى بعض مثـل البشر، وغمـرتـه، للحـظة، مـوجـة من التعـاطف. ثم تعثـر فـدفعـه العنكبـوت الـذي يسـير خلفـه في مؤخـرة عنقـه. تـلاشى التعاطـف وحل مكانه الاشمئزاز، ولكن بدرجة أقل من ذي قبل.

انفتـح الباب المكسـو بالقـماش الأسـود حـين اقتربـوا منه، فـلاحت أمـامهم القـاعـة المظلمـة وقد اكتست بنسيج العناكب. تذكّر نيال أنه هنا كسفـير، وليس كأسـير، ولكن كان من الصعب عليه التحكم في شعوره المفاجىء بالذعر الذي ضغط على قلبـه. تنحى الحراس الثلاثة، للمرة الأولى، وسمحوا له بالدخول بمفرده. سار قائد الحرس أمامه، بينما مشى سفير الخنافس خلفه. توقف القائد، ثم تنحى جانباً ووقف على بعـد بضعة أقـدام. وقف نيـال وخنفساء المدفعية جنباً إلى جنب وأخذا يحدقان في الظلام. حاول اختراق الـظلام ببصيرتـه المزدوجة، لكن الأمر بدا كما لو أن ستارة ما تقف حائلاً أمام عينيه.

ثم تردد الصوت الهادىء المألوف داخل صـدر نيال، وقـال ساخـراً: بوسعـك الآن أن تسمعني.

قال نيال: «نعم». وقد استخدم ذهنه فقط لنقل الكلمـة وتوجيهها إلى الحاضر الخفي وسط الظلام.

عمت فترة صمت. وقال الصوت بهدوء: أنت تفهمني هذه المرة.

رد بصوت داخلي هادىء واثق من نفسه أثار دهشة سيد العناكب:

ـ نعم أفهمك.

وجه سيد العناكب حديثه إلى قائد الحرس:

ـ إنه يعلق شيئاً ما حول رقبته. انزعه عنه!

لم يكن نيال يرغب في أن يتحسس مخلب العنكبوت رقبته. فمد يده وأخرج مرآة التأمل وسلمها إلى القائد، لكنه شعر بالأسف لافتقادها.

قال رسول الخنافس:

ـ هل لي أن أقرأ الرسالة التي أحملها؟

أرسل سيد العناكب نبضاً يدلل على الإذن له بذلك، فقال السفير:

ـ يرغب سيد الخنافس أن أبلغكم بأن هذا الإنسان تحت حمايته، وأنه واثق أنك ستحسن معاملته.

جاء رد سيد العناكب مثل نوبة غضب عاتية، وقال:

ـ لقد قتل هذا الإنسان الكثير من شعبي. إنه يستحق الموت ألف مرة. وأظن أن حق مطالبتي به يفوق بكثير حق سيدك.

أخذ النسيج ذاته يصدر ذبذبات كما لو أن جسماً هائلاً يهزه.

قال الخنفساء: قد يكون الأمر كذلك، ولكن. . .

ـ لقد نقلت لنا رسالتك. والآن امض!

كان التهديد الذي يحمله هذا الأمر هائلاً فأصاب نيال بالقشعريرة، وتوقع أن يغادر السفير القاعة، إذ ليس هناك أي رد آخر على هذا الأمر. لكنه دُهش حين وجد أن الخنفساء لم يتحرك من مكانه.

ـ إنني أطالب بحق البقاء باعتباري مرافقاً له.

تحدث بهدوء، وبدون أي انفعال، لكن نيال لاحظ نبرة تصميم حديدية وراء هذه الكلمات. فهم في الحال السبب الذي جعل العناكب تشن حرباً ضد خنافس المدفعية، والسبب الذي أجبرها على إبرام سلام معها.

تقدم قائد الحرس خطوة للأمام، وبدا مستعداً للاعتدا على السفير، إلا أن أمراً صامتاً

من سيد العناكب جعله ينسحب. وحين تحدث سيد العناكب مرة أخرى بدا صوته أكثر هدوءاً واعتدالاً.

ـ لقد طلبت منك مغادرة المكان، فوجودك غير مطلوب.

قال السفير بصوت واضح:

ـ إن فظاظتك تجبرني على الحديث بصراحة. يرغب سيدي في إحاطتك علماً بأنك إذا قتلت هذا الإنسان فإنه سيضطر إلى تسليم الأسلحة المسروقة إلى الخدم من البشر ويتركهم ينتقمون له، مما يعني مزيداً من القتلى بين صفوف شعبك.

بدت الحجرة حتى قبل أن ينتهي من كلامه وقد امتلأت بغضب بارد وعنيف يرقى إلى قوة عاصفة عاتية في البحر، واستجمع نيال قواه بصورة غريزية واستعد لتلقي ضربة وحشية. وحين نظر إلى السفير الخنفساء رأى أنه لم يتأثر بهذا الغضب، بل راح يحدق بهدوء في الظلام الذي يلف الأنسجة. فأثار ذلك إعجابه، مما جعله يسيطر من جديد على نفسه.

أدرك سيد العناكب أن هذا الغضب قد فضح افتقاره للسيطرة على نفسه. وحين تحدث مرة أخرى أصبح صوته هادئاً بشكل غير متوقع:

ـ لا اعتزم قتلك. فالموت في غاية السهولة. والآن أسد لي معروفاً واتركني وشأني معه!

لم يتحرك الخنفساء قيد أنملة، وقال:

ـ آسف. يجب أن أبقى.

تقدم القائد خطوة، مرة أخرى، مهدداً، لكن أمراً صامتاً أوقفه من جديد. ساد صمت، ثم قال سيد العناكب:

ـ حسناً. إبق! ولكن نظراً لأن هذا المكان خاضع لهيمنتي فأنا الذي أضع الشروط. ويجب أن تعد بالتزام الصمت. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

ـ وإذا لم تلتزم بوعدك لم التزم باتفاقنا، وسوف يفقد الأسير حياته.

قال السفير بعناد: لا أستطيع الموافقة على ذلك.

ـ موافقتك أو عدمها لن تغير من الأمر شيئاً. إلزم الصمت الآن!

أحس نيال أن أعصاب سيد العناكب تكاد تفلت منه.

ثم تحدث بصوت من داخل صدره مرة أخرى.

ـ يبدو أنني سأبقي على حياتك. ولكن جريمة كتلك التي ارتكبتها لا يمكن أن تمر دون عقاب. وبالتالي فقد قررت أن تتذوق أنت أيضاً ألم افتقاد أعز أقربائك. ولا بد أن يموت أفراد أسرتك بدلاً منك.

لم يحر نيال رداً، لكن قلبه انسحق حزناً وغماً.

قال سيد العناكب للسفير:

ـ أتوافق على أنه ليس من حقك الاعتراض على ما يحدث للأسرى الآخرين لدي؟

التزم السفير الصمت، للحظة، ثم أومأ بالموافقة.

سمحت هذه اللحظة لنيال بالتفكير فقال:

ـ تريد تعاوني، وإذا ما ألحقت ضرراً بأسرتي فسيكون ذلك مستحيلاً.

رد الصوت بهدوء، رغم نبرة الوحشية:

ـ ليس هناك شيء مستحيل. وسوف أثبت لك ذلك. سوف تنحني وتعترف بأنني سيدك.

وقف نيال، منتظراً. لم يكن قد خطر له من قبل الانحناء أمام سيد العناكب. ملأته الفكرة ازدراء وغضباً وانتابه الذعر حينما شعر بإرادة سيد العناكب تمتلك جسمه. حاول المقاومة، لكن ذلك كان مستحيلاً، فهذه الإرادة تماثل أفعى ضخمة تلتف حوله وتضغط على جسمه الذي بات غير قادر تماماً على الحركة، كما أصبح، في الوقت ذاته، متخدراً كما لو أنه تجمد داخل كتلة من الثلج. بل أصابت الإرادة عضلات عينيه بالشلل فلم يستطع النظر بطرف عينه إلى السفير، ولم تستطع عضلة، أو عصب واحد، إطاعة إرادته.

ثم شعر بركبتيه تنثنيان ليجثو على الأرض. انحنى رأسه في إيماءة خضوع، وتمددت يداه أمامه، ولمس الأرض بجبهته، وتحركت شفتاه، وسمع صوته يقول:

ـ أنت سيدي العظيم.

قال الصوت:

ـ حسناً. قف الآن واطلب من السفير مغادرة الحجرة!

وقف جسم نيال، مرة أخرى، مثل قفاز يطيع اليد الخفية بداخله، والتفت نحو السفير الخنفساء وقال صوته:

ـ أطلب منك الآن أن تتركني بمفردي مع سيد الموت!

أحس أن ذهن الخنفساء يحاول سبر غور ذهنه، لكنه لم يستطع التناغم مع طول موجته وأدرك وهو يحدق في عينيه السوداوين أنه غير قادر على تغيير التعبير البادي في عينيه.

رد الخنفساء:

ـ آسف، فسوف أعصي سيدي إذا ما تركتك بمفردك هنا.

بعث نيال برسالة امتنان نبضية، وأحس بارتياح عندما عرف أن السفير الخنفساء قد تلقاها، فقد دلت رعشات قرنيه على ذلك. وعندما أدرك أنه نجح في الاتصال ساعده ذلك على تحرير نفسه من الشعور بالعجز الذي جعل ذهنه يتخدر ويستلم لحالة الخضوع. ولكن حينما حاول نقل رسالة أخرى وجد أن ذهن نفسه استحوذت عليه إرادة سيد العناكب، وبالتالي فقد تجمدت النبضة الذهنية.

سمع صوت سيد العناكب:

ـ قل لي الآن سبب قدومك إلى هنا.

ـ طلب مني سيد الخنافس أن أنقل رغبته في إعادة السلام بين شعبه وشعبك. وأنا على استعداد للقيام بأي شيء يؤدي إلى تحقيق ذلك.

ـ حتى لو كان ذلك يعني أن تقسم بأن تصبح خادمي؟

ـ نعم.

ـ إذن أجث وقل: أنا، من هذه اللحظة، خادم سيد الموت، وأقسم على إطاعة كل أوامره.

قاوم نيال، للسيطرة على نفسه، وللإطاحة بالقبضة الحديدية التي تحكمت في جسمه وذهنه. نجحت مقاومته للحظة، وبدت في عينيه دلائل التحدي، وظلت شفتاه مطبقتين. ثم باتت الضغوط أكبر مما يحتمل. سمع صوته يقول:

ـ من هذه اللحظة أنا خادم سيد الموت، وأقسم أن أطيع كل أوامره.

ورغم أنه نطق بهذه الجملة إلا أن ذهنه استمرَّ يعرب عن التحدّي، فأثار ذلك فيه شعوراً بالانتصار، وتأكّد أن إرادته ما تزال حرّة لم تتحطّم. وعرف من تزايد الضغوط عليه أن هذا يثير حنق عدوه الذي لن يرضيه سوى خضوعه التام، وتحطيم إرادته، وإجباره على الإذعان واستجداء رحمته. لكن نيال أدرك، رغم بؤسه، أن إرادته بعيدة عن سيرة العناكب.

أحسَّ الخنفساء السفير بالحيرة، ولم يقتنع تماماً بإذعان نيال البادي من تصرفاته

وشعر بأن هناك أسباباً تجعله يتظاهر بالخضوع لإرادة سيد العناكب. لكنه صمم على ألا يغادر المكان بدون نيال الذي شعر بامتنان عميق له.

قال سيد العناكب:

ـ لقد قبلت قسم الولاء. والآن سوف تخضع لأول اختبار. يجب عليك أن تخبر أسرتك أنهم سيموتون ليكفّروا عن جريمتك ضد شعبي.

ثم قال لقائد الحرس:

ـ أحضر الأسرى!

قال السفير غاضباً:

ـ هذا كثير.

رد سيد العناكب:

ـ لقد حنثت بوعدك بأن تلتزم الصمت.

ساد الحجرة على حين غرة جو من التهديد، وأحس نيال، رغم أنه لم يستطع الالتفات، أن السفير قرر إطاعة سيد العناكب.

مضى قائد الحرس إلى الباب الذي سمعه نيال وهو ينفتح. ثم تناهى إلى مسامعه وقع أقدام تدخل الحجرة. مر أخوه «ڤيج» بجانبه، لكنه لم يستطع، للحظة، التعرف عليه. كان ڤيج يعتمر قبعة من الفراء غطّت وجهه مثل الغماء، ورُبطت يداه وراء ظهره. ثم دخلت «سيريز» ومعها «رونا» و «مارا»، وثلاثتهن يعتمرن غماءات الفراء ذاتها، كما ربطت أيديهن خلف ظهورهن. وربطت سيريز ورونا ومارا بحبل من معاصمهن. أمرهم القائد بالتوقف فوقفوا مذعنين في مواجهة النسيج المظلم. أحسَّ نيال أنهم فاترو الهمّة، كما لو أنهم مخدرون. ثم أمرهم القائد بأن يستديروا، فاكتشف نيال أن الغماءات هي أقنعة ذات فتحات للعينين والفم أدرك من خلالها أن أفواههم مكممة. انتابته قشعريرة مرعبة وهو يرى هذه الغماءات والعيون الجامدة التي تطلعت من ورائها. شعر فجأة بالسعادة إزاء هذه القبضة الجليدية التي عصرته بلا رحمة، فقد أدت إلى تخدير اليأس الذي تصاعد بداخله. اعترته الشكوك، لأول مرة، في أن سيد الموت يخطط لتنفيد أمر في غاية الوحشية.

ورغم الحنق والبؤس ظل جزء منه هادئاً، وكان هذا هو الدرس الذي تعلمه خلال الأسابيع القليلة الماضية ـ تخيل، وهو يحدق في النسيج، أنه ما يزال يمتلك مرآة التأمل، وأنها معلقة حول رقبته، ثم تخيل أنه مد يده وقلبها.

أعطى حنقه قوة دفع لإرادته، وشمله، مرة أخرى، إحساس مفاجىء بالتركيز والقوة، وتبخر شعوره باليأس والبؤس ليحل مكانه تصميم لا يلين. بدا الأمر كما لو أنه يستيقظ من نوم عميق. انتابته صدمة حين أحسَّ أنه كاد يتخلّى عن إرادته، ولو أن هذا حدث لكان قد ارتكب أكبر حماقة في حياته؛ فإرادته هي الشيء الوحيد لديه الذي لا يمكن تحطيمه أو السيطرة عليه.

ظل جسمه في قبضة سيد الموت، وتجاوزت عيناه أمه وأخذت تحدق في الظلام الذي يلف النسيج. أحس أن سيد الموت يستمتع بهذه اللحظة، وبمدى قوته المطلقة. أتاح ذلك له الوقت لبحث موقفه. اعتزم سيد العناكب إجباره على النطق بحكم الإعدام ضد أسرته، أو على تنفيذ الحكم. واعتقد أن هذا سيؤدي إلى تدمير إرادته والإطاحة بأي أمل باق له في الحرية. وبالتالي فقد كان من المحتم أن يرفض حدوث ذلك، فسبيله الوحيد لتحدي سيد العناكب هو رفض التخلي عن إرادته. جعله هذا التفكير يشعر بقدر من الارتياح.

فهم فجأة عندئذ رسالة امبراطورة النباتات الأخيرة. فقد سألها: أليس هناك شيء يمكنك القيام به لمساعدتي؟ وجاءه الرد في صورة استعراض للقوة. بدا الأمر كما لو أن الامبراطورة تريد أن تقول: لست بحاجة لمساعدتي، بإمكانك تحقيق كل شيء بنفسك.

إذن فالإجابة تكمن في رفض الاستسلام، ففي الوقت الذي تظل فيه الإرادة صلبة يبقى الذهن حصناً منيعاً لا يمكن أن يغزوه أحد. والأمل يكمن في القوة الذهنية الغريبة هذه تجاه العالم الخارجي، إنها القوة التي لم يستطع الذهن نفسه فهمها.

ومع ذلك كيف يمكن لهذه القوة مساعدته في ظل الظروف الراهنة؟ استدعى العناكب، لكنه لم ينجح، فقد كانت هناك قوة ما اعترضت نفاذ بصيرته مثل ستارة.

قال سيد العناكب:

ـ تحدث إلى أسرتك.

التفت وجه نيال إلى ڤيج فلم يجد أحداً، فقد اختفت أسرته، وأصبح المكان الذي كانوا يقفون فيه منذ لحظة خالياً. منعته صلابة جهازه العصبي من الشعور بالمفاجأة، فقوة سيد العناكب تتحكم حتى في ضربات قلبه. فهم على حين غرة ما حدث. فقد واصل النظر بعينيه الأخريين اللتين تأكد من خلالهما أن أسرته مجرد ظلال خاوية وأوهام صنعها سيد العناكب. لكن أسرته ظهرت من جديد أمامه بمجرد أن استبعد بصيرته المزدوجة. وقفوا في

مواجهته تحدِّق فيه عيونهم من وراء فتحات الغماءات فذُهش من مدى كمال الوهم. كانت أمه ترتدي الجلد الحيواني الرث الذي رآها به في آخر مرّة. أما الطفلتان فكانتا بزي الحضانة الأزرق الذي بات مجعداً. تغلغل سيد العناكب في ذهنه وجعله يحلم.

سمع صوته يقول:

- لقد أُمِرت بإبلاغكم أنه قد صدرت ضدكم أحكام بالإعدام، وذلك للتكفير عن جريمتي التي اقترفتها ضد شعب هذه المدينة. وسوف تموتون جميعاً في الحال. مَن منكم يريد أن يكون الأول؟

حاولت مارا أن تجري نحوه، لكنها تعثّرت ووقعت بعد أن وصل الحبل لآخر مداه. حاول لا إرادياً التقدم لإنقاذها، لكنه وجد نفسه عاجزاً عن الحركة. التفتت سيريز نصف التفاتة وانحنت في محاولة لمساعدتها بيديها المربوطتين. فهم نيال الآن سبب ارتدائهم الغماءات المصنوعة من الفراء، فمجرد رؤية وجوههم سيجعله يدرك أنهم أشباح. لقد افتقر سيد العناكب لحدة الذكاء الذي يجعله يصنع وجهاً بشرياً يعكس روحاً بشرية. ولذلك فقد غطى وجوههم وكم أفواههم حتى لا يتكلموا. لكنه أدرك، بعد أن عرف ذلك، أن الأمر ما يزال غير مقنع، فبمقدور الشخص المكمم أن يثير أي ضجة، وهؤلاء الأشباح يلتزمون الصمت التام.

قال سيد العناكب:

- إذا لم يكن هناك أحد على استعداد للتطوّع فعليك أن تحدد بنفسك أيهم تختار كي يموت أولاً؟

أحس نيال بيده ترتفع وتشير إلى ڤيج.

قال سيد العناكب: حسناً، ما دمت أنت الذي اخترت.

أصابت ڤيج لطمة جعلته يترنّح. جثا على الأرض وراح يتلوّى من الألم كما لو أن قبضة حديدية خفية تطبق عليه. ندت صرخة مكتومة من وراء الكمامة، ثم سمع صوت تهشم عظام. وبعد لحظة تكسرت ضلوعه وتشوه جسمه. وتوقفت الصرخات المكتومة فجأة، وبدأ الدم يسيل من الأطراف الممزقة. بدا الأمر كما لو أن إسفنجة تم عصرها حتى لم تعد تحتوي على أية مادة رطبة. تناثر الدم على الأرض، ثم تُرك الجسم ليسقط مثل دمية مهشمة، وقد التوت رقبته للوراء فوق عنقه، بينما جحظت العينان من خلال فتحات الغماءة.

قال صوت سيد العناكب بسخرية: والآن، من سيكون التالي؟

انتابت نيال حالة من الرعب والغضب، ورغم معرفته بأن ما حدث مجرد وهـم إلا أن العنف هـزه بشدة. ولـو كان يملك القـوة لتحول حنقه وكراهيتـه إلى دمار يقضي عـلى كـل عنكبوت في المدينـة. عزز الغضب تصميمـه على أن شيئـاً لن يحطم إرادتـه. وأتته القـوة من داخله، ففي الوقت الذي ظلت فيه إرادته متماسكـة بقي صـامداً وقـادراً على تحـدي سيد العناكب إلى النهاية. أطبقت قدراته الحيوية بداخله مثل قبضـة فحدث له نـوع من الانفجار الداخلـي هو مزيج من الحنق والازدراء.

بدا الأمر كما لو أنـه انكمش وراء حدود داخليـة ليحرر الغضب جهـازه العصبي من قبضة سيد العناكب الحديدية، وأصبح قلبه فجأة مثل مولد يدفع الـدم إلى شرايينه. كـان ما حدث بعد ذلك مألوفاً له. فقد شعر بنفاذ بصيرة خاطـف وإدراك بـطبيعة الحـرية التي تعني أنه حر هنا والآن، ثم تصاعد بداخله احساس بسعادة صافية. ثم بـدا أن قوة أخـرى تصعد من داخل أعمـاقه وتزيح حدود شخصيتـه الطبيعيـة، وتعيد مـرة أخرى إدراكـه الغريب بـأنه ليس نفسه. وأدت هذه القوة إلى فك حالة الشـلل التي أصابت أطرافه فاستـطاع التحرك مرة أخرى. شعر بأن ارادة سيد العناكب تجفل، كما لو أنها تحاول تجنب لطمه. ظلت شفتـاه مطبقتين تماماً. ومع ذلك فقـد بدا الأمـر كما لـو أن كل كيـانه قـد أطلق صرخة انتصـار غمرت الحجـرة كومضـة ضوء خـاطفة. واستـطاع بنظره أن يخـترق، للمـرة الأولى، غـابـة النسيج المتشابك.

كتم أنفاسه من شدة دهشته واستغرابه لما رأى، إذ لم ير سيـد الموت الجبـار ذي المائـة عين، بل مجموعة من العناكب الصغـيرة التي غطت أجسامها السوداء النسيـج مثل ذبـذبات واقعـة في شرك، وراح بعضها يتحـرك بعصبيـة ويتجـه نحو زاويـة النسيج، ممـا جعله يهتـز ويتذبذب. انتابته، للحظة، شكوك بأن هذا وهم آخر من صنع سيد العناكب، لكن الضـوء تزايد ببـطء وهو يحدق غير مصدق عينيـه، فرأى أعمق نقـطة في النسيج، فتـوقفت العناكب عن الحـركة كـما لو أنها أدركت استحـالـة إخفـاء نفسهـا أكـثر من ذلـك، وحملقت فيـه بعيـونها السوداء المدورة، ولم يعد يشك في حقيقتها، بعد أن أحس بخوفها، وحيرتها.

تقـدم خطوة لـلأمام نحـو النسيـج فقـام قائـد الحرس بحـركة مفـاجئة، لكنـه ابتعـد منكمشـاً حين التفت له نيـال واستعـد للدفاع عن نفسـه. بدا أن ضـوءاً أزرق شاحبـاً قد لفـه، وجعله الشعر الـدقيق فوق جلده يبـدو كأنـه مغطى بغبـار طباشـيري. تقدم خـطوتين أخـريين حتى بات واقفاً في المكان الذي تمددت فيه جثة أخيـه قبل بضع لحـظات. تمكن في هـذا المكان من رؤيـة ما بـداخل النسيـج الذي بـدت خيوطـه المتشابكـة شفافـة. كـان في

مواجهته، في قلب النسيج عنكبوت صغير فروي لون جسمه رمادي بحكم تقدمه في العمر، وكشف حجمه عن أنه أنثى. كانت تحتفظ بموقعها، بخلاف الآخرين، وتحدق فيه بنظرة تحدٍّ عصبية. وبدا واضحاً أنها أكبر سناً بكثير من العناكب الأخرى التي اكتشف بعد إمعان النظر في النسيج أنها إناث أيضاً.

قال بشك:

ـ إذن أنتِ سيد الموت؟

لم تحر رداً، ولكن حين تقدم خطوة أخرى انكمشت ورفعت قائمتها الأمامية لتغطي بها وجهها، فقد أصابها الضوء الأزرق بالألم. التفت نيال وبحث عن مصدر الضوء، ولكن بدا أن الضوء يلف الحجرة كلها بوهجه، وكذلك بحالة من الجمود الغريب، وبصمت نتجت عنه حالة من الانهاك والاختناق. بدا الأمر كما لو أن العالم برمته قد توقف كساعة تجمدت عقاربها. لكنه أدرك حين نظر إلى جسمه أنه مصدر هذا الوهج الأزرق. بل إنه رأى بدهشة أن يديه تتوهّجان كما لو أنهما مصنوعتان من الحديد الساخن. وعندئذ فقط عرف السبب الذي جعل الوهج مألوفاً له، إنه الضوء الذي رآه فوق كوكب امبراطورة النباتات، ضوء النجم الذي يسمى «النسر الواقع».

أظلمت الحجرة، وبدت وكأنها تنكمش. وفي اللحظة التي أدرك فيها ذلك أخذ الضوء يتلاشى. ثم اختفى الوهج، ولاح الأمر كما لو أن الوقت قد استأنف تقدمه من جديد. واختفت حالة الجمود ثقيلة الوطأة، ودبت في الحجرة الحياة والحركة. وحينئذ، فهم سبب شعوره بالاختناق. فبينما كان الضوء يشع توقفت ذبذبة الدلتا. كما فهم في الوقت ذاته طبيعة إحساسه باليقين الداخلي الغريب الذي تملكه خلال الساعات القليلة الماضية، والذي أضفى على تصرفاته ثقة من يمشي وهو نائم. لقد وجهت الإلهة قراراته وسيطرت عليها.

حدق في النسيج فلم ير أية حركة. وحين التفت ونظر إلى السفير الخنفساء ذهل عندما وجده منبطحاً على الأرض، وكذلك قائد الحرس. ولما مال على الخنفساء ووضع يده فوق درعه، تململ السفير، فسأله:

ـ هل أنت بخير؟

دُهش حين رد الخنفساء بوهن قائلاً:

ـ نعم يا سيدي.

كان قائد الحرس ممدَّداً وقد وضع قائمتيه تحت جسمه، فتأكد من خلال سبر غور

أفكاره أنه يعاني من الصدمة والإنهاك. وحين قال له: «انهض!» لـم تتحـرّك، فركله بحـذائه في المنطقة اللينة تحت بطنـه فنهض مسرعاً ووقف على قائمتيه.

عاد نيال إلى النسيـج وقال:

ـ ليخرج الجميع.

عمت فترة سكون، ثم بدأ النسيج يتذبذب. كـانت الأنثى المتقدمـة في العمر أول من خـرج. تحرّكت ببطء كـما لو أن أطـرافها متصلّبـة. خرجت الأخـريـات بعـدهـا الـواحـدة تلو الأخـرى وشكّلت صفـاً خلفهـا كـالجنـود. أثـار آخـر عنكبـوت خـرج ذبـذبـات أكـبر من الآخـريات. وبـدت قوائمـه مقوسـة تحت ثقل جسمـه الضخم. كـان هـذا «دراڤيـج» كبـير مستشاري سيد الموت.

تقدم حتى وقف أمام العنكبوتة العجـوز التي كانت أطـول قليلاً منـه، ورأى عن قرب أن جلدها يبدو لامعاً ومشققـاً كالجلد القديم. ورغم إدراكه بقدرتها على قتله بضربة واحدة من مخالبهـا إلا أنه لم يشعر بأي خوف، فقد أحس بأن الصدمة قـد هزتهـا بعنـف وحطمت معنوياتها، كما لاحظ أنها تنظر إليه بخوف لا عقلاني.

قال: ابعدي الآخرين! أريد التحدث إليك على انفراد.

وحين تقدم دراڤيج خطوة نحو البـاب قال له: لا. ابق أنت!

خرجت العنكبوتات الأخريات من الحجرة، وأحصاها فوجدهـا اثنتي عشرة. راح يسبر أغـوار أذهانها وهي في طـريقها للخـارج. كانت مـدركة لما يفعله، لكنها لم تبـذل أيـة محـاولـة لمنعه. اكتشـف أن هذه الإنـاث الاثنتي عشرة تشكل المجلس الحـاكم لمدينـة العناكب. وكن أصغر في العمر بكثير من سيد المـوت، أما أصغـرهن فكانت أنثى في منتصف العمـر. ورغم أن وظيفتهن الـرسمية تعـادل وظيفة عضـو مجـلس إلا أن كل واحـدة كانت حـاكماً بـأمره، فقد كان باستطاعة أذهانهن الاندماج معاً في ذهن واحد، وقد شكّل الأمـر الذي أصـدره إليهن بالخروج من الحجرة إهانة لهن، إلا أنهن تقبلنه دون طرح أسئلـة نظراً لاعتقادهن بأن هـذه هي إرادة الإلهة.

كان سيد العناكب ـ هكذا استمر نيال في تسميتها ـ الأكبر سناً بين الأخريات، أما بين البشر فإنها تبلغ من العمر مائة عام. أصبح ذهنها مفتوحـاً الآن أمامـه، فرأى أنها تجمـع بين أخـطاء امرأة عجـوز وفضائلهـا. كانت متعجـرفة حـادّة الطبـاع صـارمـة، كـما كـانت مـاكـرة حكيمـة بعيدة النـظر شلّت بقبضتها الحـديديـة جسمه. وأدرك أن مـا حدث هـو جهد مشـترك

بذله كل أعضاء المجلس بتنسيق من دراڤيج الذي استخدم ذهنه كعامل مساعد لتوحيد الأخريات.

كان درافيج هو الذي أثار أكبر قدر من اهتمام نيال، فقد وجد أن ذهنه مجرد وموضوعي على نحو غريب، وأحسّ فيه بنوع الحكمة التي شعر بها في السيد ستيج. وبينما كان سيد العناكب مستغرقاً تماماً في شؤونه الذاتية بدا ذهن دراڤيج موجهاً نحو العالم خارج نفسه، ومع ذلك فقد وجد نيال عنصراً غريباً وغير مفهوم بالمرة في عملياته العقلية.

حين انغلق الباب وراء قائد الحرس كان دراڤج أول من تكلم، فشعر نيال بتوتره.

ـ هل أنت إله أم إنسان؟

ضحك نيال وقال: إنسان، بطبيعة الحال.

قال سيد العناكب: لكنك رسول الإلهة.

جاءت العبارة في صورة تصريح، ولم تكن سؤالاً.

رد، قائلاً: نعم.

قام كلا العنكبوتين بحركة غريبة، رفعا قرونهما المتشابكة بزاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة، وخفضا في الوقت ذاته، بطينهما حتى لمسا الأرض، بينما ظل وضع القوائم دون تغيير.

قال سيد العناكب: ما هي إرادتها؟

رد نيال: أولاً ألا يصبح أفراد شعبي عبيداً بعد الآن، ولا بد أن ينال البشر الحرية التي تتمتّع بها العناكب، أو الخنافس. وإذا ما اختاروا خدمتكم طائعين فلهم ما يريدون. ولكن يجب أن يترك للجميع الخيار.

وحين لم يصدر عنهما أي رد تساءل: حسناً؟

قال سيد العناكب: سيتم تنفيذ ما طلبت.

فهم نيال حينئذ أن سكوتهما يعني الموافقة؛ فردهما عليه بمثل دلالة على عدم الاحترام نظراً لأنه تضمن اختياراً.

قال: ثانياً تقضي إرادة الإلهة أن تكون هناك معاهدة سلام بين العناكب والبشر مثل المعاهدة بين العناكب وخنافس المدفعية. ولا بد أن يحترم الجانبان بنودها بالكامل، ومن ينتهكها يُعرض نفسه وشعبه لعقاب شديد.

رد سيد العناكب، بعد فترة صمت:

- سيتم تنفيذ ذلك.

بدا الأمر مثيراً للحيرة، فقد كان يتوقع نوعاً من المقاومة، أو على الأقل، دلالة على الممانعة أو الاستياء. فقد جعله هذا الإذعان التام يشعر بعدم ثقة فيما سيفعله بعد ذلك. ولإخفاء تردّده توجه إلى النافذة ومزّق بعض خيوط النسيج السميكة التي تكسوها فتغلغل شعاع من ضوء الشمس من خلال الزجاج المغبر. جفل العنكبوتان من الضوء، ورأى نيال حين تعودت عيناه الضياء سحباً من الدخان تتصاعد في الجو. وامتلأت الساحة دونه بالناس، وحاولت عربة أخرى مُحمّلة بالكتب شق طريقها وسط الحشود، كما رأى مجموعة هائلة من الكتب غير المحترقة ملقاة عند قاعدة البرج الأبيض بانتظار إلقائها في النار.

التفت نيال إلى سيد العناكب وقال:

- أصدر إليهم أمراً بوقف حرق الكتب!

خرج دواقيج دون أن ينطق بكلمة، وعاد بعد بضع دقائق ووقف صامتاً بجوار سيد العناكب. فهم نيال في ومضة نفاذ بصيرة سبب إطاعتهما لأوامره بدون استياء أو ممانعة. لقد رأيا لتوهما معجزة، وتطلعا إلى وجه الإلهة، وتحدثا معها مباشرة، وهذه الحجرة ستصبح من الآن فصاعداً مكاناً مقدساً. ولن يكون هناك أي شيء مهم بالمقارنة مع هذه المعجزة التي توقع في النفس روعاً، وأي شعور شخصي مجرد سيعني سخفاً تجديفياً. ونظراً لأن نيال هو أداة الإلهة فإن أي شيء يقوله أو يفعله فوق المساءلة.

لكنهما عاملا أيضاً مبعوث الإلهة بعدم احترام وحشي يستحقان عليه، وفقاً لمعيار قيمهما البدائية أبشع درجات الموت. وأدرك أن هذا هو السبب وراء امتزاج إحساس الرهبة بالخوف.

وقف نيال أمام سيد العناكب وسأله:

- أتتوقع مني انتقاماً؟

رد في الحال قائلاً: نعم.

التفت إلى دواقيج وسأله:

- وأنت؟

تردد دواقيج ثم قال: لا.

دُهش نيال، وقال: ولِمَ لا؟

ـ لأنك ما كنت ستطرح السؤال إذا ما اعتزمت الانتقام.

ضحك نيال وازداد احترامه لدرافيج. وفي الواقع فقد اختفت كراهيته للعناكب تقريباً منذ اللحظة التي لم يعد فيها تحت رحمتها.

ـ أنت على صواب، فالانتقام لا معنى له.

أحس بارتياحها، ووجد أنهما لم يبذلا أية محاولة لإغلاق ذهنيهما حين راح يسبر غورهما، كما لو أنهما اعتبرا ذلك حقاً من حقوقه.

قال لهما:

ـ صحيح أنني مسؤول عن مقتل العديد من شعبكم، لكنكم أيضاً مسؤولون عن مقتل الكثير من شعبي. والآن حان وقت السلام، ويجب ألا يكون هناك مزيد من القتلى، وينبغي أن يتوقّف الاضطهاد. وعليكم أن تعرفوا أن رغبة الإنسان في المعرفة قوية قوة شهيته للطعام. إن أعمق وأقوى رغباته هي أن يكون حراً في استخدام عقله لأنه يعرف بصورة غريزية أن مصدر القوة هو الذهن، وأنه يجب أن يتعلم اكتشاف إمكاناته. وقد اعتبركم عدوه لأنكم حاولتم منعه من تلبية هذه الرغبة.

انتظرهما كي يعلقا على ما قاله، وحين آثرا الصمت قال لهما:

ـ أرجو أن تعبرا عما يجول بذهنيكما بحرية.

قال درافيج:

ـ لقد أرادت العناكب دائماً السلام، لكن الإنسان هو الذي أجبرنا على أن نصبح السادة لأنه لم يمنحنا السلام. لقد قضى الإنسان كل وقته، حينما كان حراً، في شن الحروب ومحاولة القضاء علينا. وهذا هو ما أجبرنا على استعباده.

أضاف سيد العناكب قائلاً:

ـ ولم تحدث أية حروب خلال القرنين الماضيين.

لم ينبس نيال ببنت شفة، فقد عرف أن ما يقولانه صحيح، لكنه قال في النهاية:

ـ ولكن إرادة الإلهة الآن أن يتعلم البشر والعناكب العمل معاً. وإذا ما استطعنا تحقيق ذلك فسوف نتوصل إلى سلام دائم تحميه الإلهة. شعر وهو يتحدَّث أن كلماته تحمل سلطة أكبر مما لديه.

قام العنكبوتان بأداء طقوس التبجيل الغريبة مرة أخرى.

أحس أنه قال ما فيه الكفاية فاستدار نحو الباب وقال:

ـ لا بد وأن أذهب إلى شعبي الآن. ولكن انتظروا عودتي، فسوف أحضر معي أعضاء مجلس من البشر الأحرار لوضع بنود معاهدة السلام التي ينبغي أن تكون عادلة لشعبكم وشعبي. ومن الآن فصاعداً سوف يكون البشر والعناكب على قدم المساواة.

قال سيد العناكب:

ـ لك ما شئت.

فتح دراڤيج الباب له، وحين خرج نيال إلى القاعة ذُهل حين تهاوى الحارسان العنكبوتان على الأرض وقوائمهما تحت جسميهما، وكانت حركتهما مفاجئة كما لو أنهما قد سقطا مغشياً عليهما.

التفت نيال إلى دراڤيج، وقال:

ـ ماذا ألم بهما؟

ـ إنهما يظهران التوقير لمبعوث الإلهة.

اضطر نيال وهو يهبط الدرج يتقدّمه دراڤيج لمقاومة إحساسه بأن كل ما يراه من صنع خياله. فعلى كل درجة يؤدي الحرّاس العناكب الطقوس نفسها، بل إن العشرات منها انهارت على الأرض بالأسفل عند القاعة الرئيسية التي باتت كما لو أنها مستودع للجثث. بل إن أذهانها بدت سالبة وساكنة، وكأن الحياة فيها قد توقّفت بالكامل.

أحسَّ بالارتياح حين خرج إلى ضوء الشمس التي تبارك بدفئها بعد الظلام البارد الذي لفّ المبنى. ازدحمت الساحة أمام المبنى بالبشر، وحين خرج تناهت إلى مسامعه همهمات تتسم بالانفعال. ثم جثا الجميع بإشارة آمرة من دراڤيج وانحنوا في احترام. بل أن ميرلو التي كانت تقف بالقرب من الدرج جثت وأحنت رأسها.

أحس نيال بوجهه يحمر من الحيرة، والتفت إلى دراڤيج وقال له:

ـ أرجوك أن تطلب منهم النهوض.

قال دراڤيج بتبجيل:

ـ سيكون ذلك منافياً للقانون؛ فباعتبارك حاكم المدينة لا بد وأن تلقى التبجيل الذي يلقاه سيد العناكب.

نظر نيال إليه متشككاً وقال:

ـ حاكم المدينة؟

- بالطبع . فبوصفك مبعوث الآلهـة فأنت تحكم حياة جميع الذين يخضعون لها.

نظر إلى الحشود الجاثية التي بدت أجسامها بقوة أجسام العناكب، ولم يصدق ما يراه. تطلع إلى دراڤيـج وتخلى عن فكرته أن يأمرهم بالنهوض، وأخذ يهبط الـدرج مسرعـاً بـاتجاه سائقي العربة المنتظرين. ولكنه حين مر بجوار ميرلـو لمحها وهي ترفع رأسهـا وترمقه بنـظرة ساخرة، فشعر بالامتنان لأنها فعلت ذلك.

- ١٠ -

أبحر نيال بعد مرور ستة أسابيع على تـوقيع معـاهدة السـلام من الميناء في قـارب قبطانـه مانيثو، وكان يرافقه سيميون وأخوه ڤيج. كـان الهدف من الـرحلة أن يفي بالعهـد الذي قـطعه عـلى نفسـه في ذلـك اليـوم الـذي سـدّ فيـه فتحـة الجحـر بـأن يعـود إلى الصحـراء ويـدفن أباه بطريقة تليق بمحارب. وحين أعلن هذه الرغبة أمام أعضاء مجلس البشر الأحـرار صوتوا في الحال من أجل أن تدفن عظام أولف في مقبرة من الرخـام بساحة المدينـة الرئيسيـة. لكنه رفض اقتراحاً بأن يبحر مع أسطول صغير من السفن، وأن يعود إلى المـدينة في مـوكب كبير. ولتفادي هذا الجـدل فقد انسـل عند الفجـر، ولم يُبلغ أحداً سـوى أمـه عن المكـان الذي يقصده.

كان الصباح مشرقاً وصافياً، لكن النسيم الشمالي الغربي حمل شذا الخريف. سـاعدهم الـشراع مثلّـث الشـكل على الإبحـار نحو الجنـوب ـ وعلى المسـار الذي سيفضي بهم، كـما يقول مانيثو، إلى الشـاطىء الذي أبحر منه نيـال منذ ثلاثة أشهر.

وقف نيـال وقـد أسنـد ذراعيه فـوق حافـة القارب، وأخـذ يحـدق فـي البحـر الـذي انعكست أشعة الشمس على مـويجاتـه المتلاطمـة. أحس مرة أخـرى بذلـك الشعور الغـريب بالنشـوة الذي يثيره فيه المـاء وكأنه يمثل، في حد ذاته، مـادة سحـرية تخفي في أعـماقها سر السعادة. بدا كل كيانه وقد استرخى، وهو يحدق في الشريط السـاحلي الذي راحوا يبتعدون عنه، فتنهّد بارتياح عميق وغمره شعور مبهج بأن الحياة غنيّة تمنح خيراتها بلا حدود.

ولكن هـذه كانت المـرّة الأولى منذ أسـابيع عـديدة يشعـر فيها بهـذا الإحسـاس، وتتـاح له فرصة سبر أغوار أفكاره. لقد أثبتت الحياة، بعد أن أصبح حاكماً، أنها أكثر دقة مما توقع. لقـد انهمك النـاس، على مـدى ثلاثـة أيام، منـذ تـوقيـع معـاهـدة السـلام، في سلسلة من الاحتفالات الصـاخبة تخللتها مهـرجانـات امتدت حتى الصبـاح. وأصبح بـإمكان الـرجال والنساء، لأول مرة منذ قرنين، الاختلاط بحرية، كـما أطلق سراح الأطفال مـن الحضـانات للمشاركة في الاحتفالات. واختفت رونا ومـارا ودونا لمـدة أربع وعشرين سـاعة، وعـدن إلى

القصر وقد صبغن وجوههن بـألوان زاهيـة، ووضعن حول أعنـاقهن أكاليـل الزهـور. واحتسى ڤيج الكثير من النبيـذ فنام طوال اليوم الثـالث، واستيقظ في صباح اليـوم التـالي وهـو يعاني من صداع جعله يعتقد أنه يحتضر. لكن نيال لم يشارك في الاحتفالات، وقضى معظم الأيام الثلاثة منهكماً في مناقشات مع مجلس البشر الأحـرار يحاول استحداث صيغة لأسلوب عمـل جـديد يحل محل الأسلوب الإجباري الحالي الذي يطبق على مواطنيه.

بدا الأمر، في البداية، غاية في البساطة، فـالبشر أصبحوا الآن أحـراراً، ومن حق كل فرد أن يختار العمل الذي يهواه. ولكن أحد أعضـاء المجلس أشار إلى أنـه في هذه الحـالة لن يفضل أحد أداء الأعمال القذرة مثل تنظيف المجاري أو التخلص من النفايات. وبالتالي فقد تم الاتفاق في نهاية المطـاف على أنه يتعين، في الوقت الحالي، أن يلتزم كل فرد بعمله الـراهن، وأن أي تغيـير لا بد وأن تصـدق محكمة عليـه. ولكن تم الاتفاق بـالإجماع عـلى أنه يجب أن يذهب البشر إلى مواقـع أعمالهم بـالطريقـة التي تناسبهم، بـدلاً من السير في جمـاعات تحت قيادة العناكب الذئبيـة أو المشرفات.

أعقبت هذه المـداولات منـاقشة بشـأن مستقبل العبيـد، وما إذا كـان يتعين اعتبـارهم بشراً أحـراراً، وهل يسمـح لهم بالإقـامة في الأمـاكن التـي يختارونها أم لا؟ فليس ذنبهم أن ذكاءهم دون المستوى العـادي. قرر المجلس في النهـاية أن العبيـد سيكونـون أكثر سعـادة في المنطقـة التي يقيمـون فيها حـالياً بـالمدينـة، وأن السماح لهم بـاختيـار وظـائفهم سيؤدي إلى اختلاط الأمر عليهم. ولكن التغيير الوحيـد الذي سيطـرأ هـو أنـه لن يشار إليهم عـلى أنهم عبيد، بل على أنهم مواطنـون ليس لهم حق التصويت.

وبالنسبة لمعظم القضايا الأخرى ـ مثل وضع القائدات، الحق في السفـر، إنشاء شبكـة لوسائل النقل العام ـ فقد تقرر أن تبقى الأمور عـلى ما هي عليـه. أما أهم تغيـير طـرأ فهـو السماح للرجل والمرأة بالزواج وتأثيث بيت الزوجية معاً، وإلغاء نـظام الحضانـة. وحين نقـل نيال هذه القرارات إلى دراڤيـج بدت علامات الارتياح واضحة على وجـه كبير المستشـاريـن وهنّأ نيال على حكمته واعتداله.

كـانت قائـدة حرس نيـال الخاص فتـاة آية في الجـمال، لهـا شعـر داكن اللون، تسمى «نفتيس». أيقظته عند فجر اليوم التالي للاحتفـال لتخبره أن جميع أفراد القوة العـاملة تقريبـاً لم يـذهبوا إلى مـواقع عملهم. وحـين خرج للتحقق من الأمـر تعـثّر في رجـل سكّـير كـان ينـام عند المدخل، بينما وجد ستة آخرين من الأزقة. قـال لنفتيس إن اليوم سيكـون عطلة عـامة، ولكن لا بد وأن يكـون جميع العمال في مواقعهم عنـد فجر اليـوم التالي. وفي الصبـاح انتظم

نحو ربع القوة العاملة، فطلب من نفتيس، مرة أخرى، أن تعلن هذا اليوم عطلة عامة، ولكن عليها أن تضيف أن أي عامل يتخلف عن العمل في اليوم التالي سوف يتعرض للعقاب. وعلى الرغم من ذلك لم ينتظم في الصباح سوى ثلث القوة، فذهب نيال ليستشير دراڤيج. وفي أقل من ساعة كانت القائدات بأسواطهن يدفعن العمال المتخلفين إلى الشوارع، وقد نظمتهم العناكب الذئبية في فرق. ومنذ ذلك الوقت أصبحت القائدات والعناكب الذئبية مسؤولة، مرة أخرى، عن العمال، ولم تعد هناك حالات تغيب. والغريب أن العمال أنفسهم شعروا بالرضا لعودتهم إلى النظام القديم.

واجه في وقت لاحق من ذلك اليوم قراراً أكثر صعوبة. فقد عثر على رجل ميت ملقى في زقاق وما تزال المدية التي قُتل بها منغرسة في صدره. ولاحظ أحد الأشخاص، في دور تحتي قريب، أن رجلاً كان نائماً، ملابسه ملطخة بالدماء اسمه «أوتو» ويعمل سائق عربة، وقد اعترف دون ضغط بأنه طعن أعز أصدقائه بالمدية في صراع على فتاة.

أرسل نيال في طلب سيميون لاستشارته فقال له إنه وفقاً لقانون الخنافس فإن من تثبت إدانته في جريمة قتل يُعدم على يد جلاد. صدمته الفكرة، لكنه اتفق مع سيميون على أنه إذا ما صدر عفو عن القاتل، على أساس أنه قتل صديقه خلال شجار وهو تحت تأثير الخمر، فإن ذلك سيكون سابقة، إذ لم تقع حالة قتل في مدينة العناكب يمكن أن يتذكرها أحد من الأحياء. راح نيال يفكر في المشكلة معظم اليوم، في الونقت الذي احتجز فيه القاتل في سجن مؤقت في بيت خال، إذ لم يكن في مدينة العناكب سجن رسمي نظراً لأن معظم الجرائم كانت عقوبتها في الماضي الإعدام، وشعر أن فكرة تنفيذ الحكم في كائن من بني جلدته مسألة وحشية، وأن فكرة بناء سجن وحبسه فيه بقية حياته تبدو أسوأ. سأل دراڤيج إذا كان من الممكن نفي الرجل إلى مكان بعيد فأشار إلى أن ذلك سيعني الموت المحقق نظراً لأن المناطق النائية تعج بالكائنات الشرسة الخطيرة. شعر، بعد ليلة انتابه فيها الأرق، بالارتياح حين علم أن أوتو وفر عليه اتخاذ قرار وشنق نفسه في زنزانته. ولكن عندما نقلت إليه نفتيس الخبر أحس بأنه تقدم في العمر عشر سنوات منذ صباح أمس.

خصص معظم وقته، خلال الأسابيع الأولى من توليه منصب سيد مدينة العناكب، لأعمال الإدارة والتخطيط. كانت نفتيس توقظه عند الفجر، وعادة ما كان يستقبل المسؤولين وأعضاء المجلس أثناء تناوله طعام الإفطار، وغالباً ما قضى بقية الساعات الصباح في جولات بالمدينة والضواحي المحيطة ليتخذ قراراته بشأن أفضل السبل لتوظيف فرق العمال. (وقدر أن إجراء الإصلاحات بالميناء سيستغرق خمس سنوات).

كان يحضر عند العصر اجتماعاً للمجلس عادة ما يستمر حتى المساء. وحين يعود إلى المنزل مجهداً في أغلب الأحوال لا يستطيع البقاء مستيقظاً أكثر من ساعة يستمع خلالها بكياسة لسيريز التي ستعرض عليه أحداث اليوم ومتاعبها في البيت، ويحاول جاهداً ألا يتثاءب، ولكنه غالباً ما ينام فوق كومة من الوسائد فتغطيه أمه ببطانية وتطفىء الشموع وتأمر الخادمات والموسيقيين بالانسحاب من الحجرة.

ومع ذلك فقد كان لهذه الحياة الجديدة جانبها المريح. فقد اختار لإقامته قصراً مهيباً عند زاوية الشارع الرئيسي في مواجهة مقر سيد العناكب مباشرة، وراحت مجموعة مكونة من خمسين رجلاً تعمل منذ الفجر حتى الغسق لإصلاح حجراته الخربة وإعادة زخرفتها. تولت سيريز مسؤولية الشؤون المنزلية؛ بينما أشرفت أختها «سنيفنا» على العمل، وتولت دونا مسؤولية تعليم رونا ومارا. أحست النساء بالرضا، وكذلك ڤيج الذي أقام هو أيضاً في القصر واختار لنفسه جناحاً من الحجرات على الجانب الآخر من الفناء، حيث أقام بصورة مستقلة. واستمتع ڤيج، بوصفه شقيق الحاكم، بمركز يحسد عليه، وأطاعه كل الرجال وأعجبت به النساء. وكان يعتبر، بشعره الأسود الأجعد وعينيه الزرقاوين، أحد أكثر العُزاب المرغوب فيهم بالمدينة، فدائماً يُشاهد وبصحبته امرأة فاتنة. وأشيع أن المائة عضو بمجلس القائدات تنافسن فيما بينهن على إقناعه بإقامة علاقات دائمة. ولكن بدا أنه قد صمم على معاملتهن بالتساوي قبل أن يتخذ قراره.

كان الأمر الذي يستمتع به نيال أكثر من غيره هو التجول في الشوارع عند الغسق، ومشاهدة الرجال والنساء وهم يسيرون متشابكي الأذرع. وكانت الطرقات تكتظ دائماً بالناس في تلك الساعة، ويجلس الرجال أمام البيوت يلعبون النرد، بينما يجلس آخرون يتناولون عشاءهم. لم يعد أحد يتطلع بعصبية إلى خيوط العناكب الممتدة فوق الرؤوس. ولكن أمراً واحداً أثار ضيقه، وهو أنه بمجرد أن يتعرف الرجال عليه يجثون على الأرض ويظلون على هذا الوضع إلى أن يختفي عن الأنظار. حاول إصدار بيان يطلب منهم فيه أن يتجاهلوه، ولكن لم يؤد ذلك إلى شيء. قال له ڤيج أنه استمع إلى محادثة بين رجلين أصر خلالها أحدهما على أن نيال ساحر، بينما اعتقد الآخر أنه إله أو كائن غير عادي. لم يدخل هذا الكلام السرور إلى قلب نيال، بل شعر بالحزن والغم.

ووصل استياؤه إلى مداه في اليوم الذي أعلن فيه اعتزامه العودة إلى «شمال خايباد» ليُحضر جثمان أبيه. فقد أصدر المجلس في الحال قراراً بأن تدفن عظام أولف في مقبرة مهيبة من الرخام في وسط الشارع الرئيسي. ثم صوتوا، رغم احتجاج نيال، على أن يرافقه ألف

رجـل مسلح، وأن يستقبلهم لدى عـودتهم موكب ضخـم يشـارك فيه الجميـع. بعث نيـال بمجرد خروجه من اجتماع المجلس برسالـة سرية إلى مـانيثو وسيميـون، فانسلوا عنـد صباح اليوم التـالي من المدينة واستقلوا القـارب الذي كان بانتظارهم.

كانت هذه هي الأفكار التي شغلت نيـال وهـو متكىء على حـافة القـارب يراقب خط الشـاطىء وهو يتـلاشى في البحر. ومـع ذلك فقـد بدا إحسـاسه بـالحزن جـزءاً سخيفـاً من استغـراقه في شؤونـه الذاتيـة، وغمره النسـيم العليـل والسماء الصـافية بـإحسـاس الحـريـة والانفعال، ولم يفهم سبب شعوره العميق بالإحباط والاستياء. إن أية مشكلة واجهتـه خلال الأسابيع القليلة الماضية لم تكن مستعصية الحل، لكنه يدرك الآن أن المشكلة الحقيقيـة تكمن في حدود وعيه.

صعد ڤيج إلى سطح القارب وهو يمسك بشريحة كبيرة من اللحم المشوي، بينما يحمـل في يده الأخرى كأساً من النبيذ.

ـ ثمة إفطار بالأسفل.

ـ ألن تأتي؟

ـ كلا. أفضل تناول طعامي في الهواء الطلق.

شرد بعينيـــه بصـــورة لا إراديــة ليتـــطلّع إلى المشرفــة الجميلة عــاريــة النهــدين التي تتحدث مع مانيثو.

كان سيميون بمفـرده في قمرة القبطـان يزيل العمود الفقرة من سمكة مشوية. تغطت المائدة بأطباق اللحم البارد. والخضراوات المخلّلة والمربى والعسل. قطع نيال لنفسه شريحة من اللحم المشـوي وصب كأساً من عصير البيايا. ألقى سيميون عليه نظرة عجلى وقال:

ـ سوف يشعر أعضاء المجلس بالضيق عندما يكتشفون رحيلك.

ـ لم يكن هنـاك مفر من ذلـك، فأنـا لا أريد أن أصـطحب معي ألف رجـل وعشرين قارباً.

عصر سيميون ليمونة فوق سمكته وقال:

ـ إنهم يسعون لإرضـائك ويكنون لك احتراماً عظيماً.

ـ أعرف.

هزَّ سيميون رأسه، وبدا واضحاً أنه كان ينتظر أن تسنح له الفرصة ليقول: من واجب الحاكم أن يسمح للآخرين بأن يعبِّروا عن تبجيلهم له. إنه لا يتولّى الحكم لمجرّد تحقيق أهدافه، بل لمنح

الشعب شيئاً يتطلّع إليه. والبلد السعيد هو الأرض التي يحكمها حاكم يحترمه ويبجّله الجميع. وبهذا يكون قد خدم شعبه.

ـ هذه ليست الطريقة التي خدم بها كازاك شعبه.

ـ ولذلك لم يحترموه كما يحترمونك. ألا تدرك أنك أول إنسان حصل على أفضل شيء من العناكب؟ لقد أصبحت أحد أبطالهم، مثل إيثار القوي وفاكين الحكيم. ما الذي تتوقعه غير ذلك؟

ـ إنها الإلهة التي حصلت على أفضل شيء من العناكب، لا أنا.

ـ لكن الإلهة ما كانت لتستطيع القيام بذلك بدون مساعدتك.

وضع الشوكة على المائدة وقال بتأكيد:

ـ إن ما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية هو نوع من المعجزة. بل إنني أكاد أصدق ما جرى. وحين أخبرني بلدو أنك تريد تحرير البشر من العناكب قلت لنفسي: يا للشاب المسكين، إنه بحاجة للتعايش مع الواقع، ولكنك حققت ما أردت. إنها واحدة من تلك الأساطير التي نحكيها، ويتعين أن نعاملك باحترام.

قال نيال:

ـ لقد أردت أن يكون البشر أحراراً ـ كما كنا في الصحراء ـ وليس أن يضربوا جباههم في الأرض في كل مرة أمر من أمامهم.

تنهد سيميون وقال:

ـ البشر لا يريدون قدراً كبيراً من الحرية، فذلك يجعلهم يشعرون بالاضطراب. ليس بوسعك أن تعطيهم أكثر مما يريدون. أنظر ماذا حدث في مدينتنا. لقد قالت لنا الخنافس إننا جميعاً أحرار ونستطيع الذهاب إلى أي مكان نريده، والقيام بأي شيء نرغب فيه، ولكن لم يستغل أحد منا، بما فيهم أنا، هذه الفرصة. إن الأمر يستغرق وقتاً حتى يتعود البشر على الحرية.

ـ أتظن أنهم سيتعودون عليها؟

ـ نعم، بشرط أن تُمنح لهم بجرعات صغيرة.

ثم أنعم النظر في نيال بتعاطف وقال:

ـ تبدو متعكر المزاج في الفترة الأخيرة. ما الأمر؟

فكر نيال في الأمر، ثم ضحك قائلاً:

ـ أظن أنني تصرفت كحاكم، هذا كل ما في الأمر.

دهن سيميون قطعة خبز بالزبد وقال:
ـ إذن ماذا عساك تصنع بدلاً من ذلك؟
ـ بداية أود أن أمضي وقتاً أكبر في البرج الأبيض. لقد دخلته مرتين فقط خلال الأسابيع الستة الماضية لأطلب نصيحة ستيج. وأرغب في تمضية أيام هناك ـ نعم، بل شهور أو سنوات ـ لأتعلم من تجارب الماضي. فهذا أهم بكثير من إصلاح المجاري أو التحدث عن نقص الوحدات السكنية. إنه المكان الأكثر فتنة في العالم، وسوف أصطحبك معي عندما نعود. ولكن دائماً لا يتوفر الوقت لذلك.
ـ ليس هناك شيء يوقفك عن تمضية ساعتين في اليوم هناك.
ـ لا أجد وقتاً، وهذا ليس كل شيء. أريد أن يتوفر لي الوقت لأستغرق في أفكاري. وأنا استمتع بهذه الرحلة، لأنني لست محاطاً بأحد. أريد فرصة لأتعلم استخدام ذهني. لقد أصبت حين قلت إن البشر لا يعرفون طريقة استغلال حريتهم، ولكن هذا يرجع لأنهم لا يجيدون استخدام عقولهم. فحين يصبحون أحراراً يشعرون بالسأم ويبحثون حولهم عن شيء يفعلونه. واضطر وأنا في بداية تعلم كيفية استخدام القوة الذهنية إلى قضاء معظم اليوم في اجتماعات المجلس.
ـ أظن أن بوسعي طرح حلول مختلفة. فإذا لم تكن تريد أن تكون حاكماً فبإمكانك أن تستقيل وتنتقل إلى مدينتنا، أو تدرب نائباً يؤدي عنك الوظائف المملة، أو تتزوج ميرلو وتترك لها كل الأمور، فهي مثل أبيها تهوى إصدار الأوامر.

ضحك نيال وقال:
ـ لهذا السبب لا أظن أنني سأتزوجها.

قاطعهما مانيشو الذي دخل القمرة وبرفقته مشرفة حسناء، ولحقهما في الحال ڤيج فتوقفا عن مواصلة الحديث في الموضوع. لكن نيال شعر بعد أن صعد إلى سطح القارب بعد نصف ساعة بجذل غريب. فقد جعله الحديث مع سيميون أكثر وعياً بأبعاد المشكلة، وبالتالي أقرب خطوة من الحل.

لاحت جبال شمال خاياباد في غضون أقل من ساعتين في الأفق. ثم اقترب القارب بعد نصف ساعة منها فاستطاع رؤية الممر الذي كان قد لمح البحر من عنده للمرة الأولى بين الأطراف الصخرية انقبض قلبه وانتابه شعور هو خليط من البهجة والحزن، فقد كان ذلك أشبه بالعودة إلى عالم الصبا.

رسوا عند العصر بأمان في الخليج. وتساءل نيال وهو يتجه بالقارب إلى الشاطىء

بصحبة المشرفة الحسناء التي راحت تجذف، عن سبب شعوره بالابتهاج وهو يعود إلى الأماكن المألوفة لديه. ثم اكتشف الإجابة، فالأمر يرجع إلى أن العودة تجعلنا نشعر بأننا سادة الزمن، لا ضحاياه.

قرروا النزول إلى الشاطىء في الحال، نظراً لأنه ما يزال هناك متسع من الوقت، قبل أن تغرب الشمس. حمل ستة رجال محفة وضعوا فوقها التابوت الفارغ الذي أعده أمهر نجار في مدينة الخنافس، وقد تم تغطيته بقماش من وبر الإبل لحمايته من الخدوش. سار خلفهم ستة بحّارة مسلّحين بالرماح والأقواس والسهام لحمايتهم. وحمل ستّة حمّالين المؤن الغذائية. وشكل نيال وسيميون وڤيج ومانيثو بقية الفريق وقف ڤيج يتطلّع بأسف إلى المشرفة الحسناء وهي تعود إلى القارب الطويل. لم. يستطع نيال فهم سبب افتتنانه بها. فقد رأى أنها مرغوبة جسدياً، ولكن حين سبر أغوار ذهنها وجده مملوءاً بأشياء عادية تافهة وعاجزاً تماماً عن أداء أي نوع من التفكير الجاد. عرف ڤيج ذلك أيضاً، ولكن بدا أنه لا يهتم له.

ساروا على مدى الأربع ساعات التالية وسط السهول الساحلية الخصبة باتجاه الجبال. طنت الدبابير واليعاسيب حولهم، بينما سقسقت الجنادب تحت أقدامهم. تذكر نيال مدى حبه لهذا المكان منذ بضعة أشهر مضت، واعتقاده بأنه كالجنة، أما الآن فإنه يبدو بالمقارنة مع الريف الأخضر المورق المحيط بمدينة العناكب مكاناً قاحلاً منفراً. ومع ذلك جعله الهواء الدافىء يتذكر «هرولف» و«ثورج» وأباه، فغمره إحساس بافتقاد الأحبة.

كانت الجبال تنتصب شاهقة أمامهم حين توقّفوا قبل ساعة من حلول الغسق. أدرك نيال أن هذا المكان قريب جداً من الموقع الذي أسرته فيه العناكب الذئبية. تذكر أن عشاءه في تلك الليلة كان عبارة عن لحم قوارض مجفف، وخبز رديء، شرب بعده حليب جوز الهند. أما الآن فإن عشاءهم يتكون من سمك مشوي اصطاده البحارة أثناء رحلتهم في البحر، وخبز طازج، وجبن الماعز، وخُضَر. واحتسوا معه النبيذ المعتق الذي وضعوه في سلسلة من القش ليحافظ على درجة برودته. ولكن رغم شعوره بالبهجة، وهو مستلق بجوار النار التي أشعلوها، ويستمع إلى البحارة وهم ينشدون الأغاني عن «شناندوا» و«ريو جراند»، فقد شعر بإرهاق بالغ حال دون تمتعه بالسعادة للحال الذي بات عليه، فغلبه النوم قبل أن يفرغ البحارة من إنشادهم بفترة طويلة.

استيقظوا قبل ساعتين من انبلاج الفجر، واستأنفوا السير، والنجوم ما تزال في السماء. وكانت هذه أصعب مرحلة في الرحلة ـ فعليهم أن يصعدوا لمسافة عشرة أميال للوصول إلى

قمة الممر. وأرادوا قطع هذه المسافة، قبل أن تجعل أشعة الشمس مهمتهم غير محتملة. بزغ الفجر حين وصلوا إلى سفح التل شديد الانحدار. ورغم أن البحارة كانوا رجالاً شديدي البأس، وجميعهم في حالة جسمانية ممتازة، فقد لاحت عليهم علامات الاجهاد. ألقى نيال نظرة سريعة على مانيثو الذي أخذ يتنفس بصعوبة وقال له:

- ألا تظن أنه ينبغي علينا أن نمنحهم فترة راحة؟

قال مانيثو بمرح:

- هذا الأمر عائد إليك، فأنت القائد.

اكتشف نيال فجأة أنهم يعترونه قائد هذه البعثة والرجل الذي يصدر الأوامر. تضرج وجهه وهو يقول:

- في هذه الحالة فإنني أرى أن نتوقف لتناول طعام الإفطار.

ردد مانيثو الأمر بصوت مرتفع فجلسوا على جانب الطريق وتناولوا حليب جوز الهند والخبز والجبن. كان صعباً عليه التأقلم مع منصبه الجديد كقائد رغم مرور شهرين على ذلك.

توقفوا مرة أخرى بين أطراف الأصحار الرمليّة الهائلة ليستمتعوا بنسيم البحر. أصبح بإمكانهم الآن أن ينظروا إلى الصحراء التي قضى فيها نيال وڤيج معظم حياتها، وأن يروا على بعد البحر الداخلي الذي يسمّى «يثلام». التفت نيال إلى ڤيج وقال له:

- من المؤسف أننا لم نحضر ماسيج معنا، فقد كان سيستمتع برؤية أرض وطنه رغم بعد المسافة.

هز ڤيج رأسه وضحك قائلاً:

- ما كان سيستمتع بهذا المشهد. لقد سألته ما إذا كان يريد الذهاب معنا فقال إنه يأمل ألا يرى هذا المكان الرهيب مرة أخرى. ويشعر معظم الآخرين بالشيء ذاته. بل إنهم كانوا تحت حكم العناكب أكثر سعادة من وجودهم تحت الأرض.

هزَّ نيال رأسه بأسى، فهو يشعر براحة حين يرى الهضبة والبحيرة المالحة المتألقة اللتين تثيران فيه ذكريات سعيدة عن أول إحساس له بالحرية الحقيقية.

كان هبوط المنحدر سهلاً، ولكن بعد أن أعاقت الجبال وصول نسيم البحر إليهم أصبح الجو حاراً وخانقاً. غطى العرق المختلط بالغار وجوههم حين وصلوا إلى السهل

الأحمر الذي تنتشر فيه الأعمدة الصخرية الغريبة التي تآكلت بفعل الرياح. ولكن نظراً لعدم وجود أي مكان يحتمون فيه من الشمس التي باتت فوق رؤوسهم مباشرة فإنه لم يكن هناك معنى للتوقف للراحة، فواصلوا السير بخطى بطيئة فوق الرمل الأحمر. ثم تذكر نيال الحوض الجرانيتي بجانب الطريق فتسارعت خطاهم حين أخبرهم عنه وراحوا ينشدون أغنية تتعلق بالسير. اعترت نيال، مرة أخرى، الحيرة بشأن إرادة الإنسان؛ فالسأم قد يخنقه حتى الموت، ثم ينتعش من جديد في لحظة واحدة بمجرد أن يلقي كلمة تشجيع.

ولكن حين داروا حول الزاوية ليصبح الحوض على مرمى بصرهم توقّفوا مذعورين. فقد تمددت حشرة ضخمة من ذوات الأربع والأربعين في قاع الحوض مستغلة المساحة الضئيلة من الظلال. حذرتها ذبذبة وقع أقدامهم من اقترابهم فتطلعت إليهم وقد انتصبت قرونها. ونظراً لأن الحوض يقع على الجانب الشرقي من الطريق، ويوجد تل صخري شديد الانحدار على الجانب الآخر، فإنه كان من الصعب تجنب الاقتراب منه بالدوران حوله.

تقدم نيال باتجاهه ببطء، وقد توسط ڤيج ومانيثو، وكله أمل أن تتقهقر الحشرة عندما ترى عدّة أشخاص. ولكن لعلّ الكائن قد اكتشف لتوّه هذا الحوض، أو ربما لم يكن على استعداد للتخلّي عن الموقع البارد الوحيد في هذا المكان فرفع نصف جسمه الأمامي حين اقتربوا منه، وانتصب متوعداً، وراح يصدر هسيساً حاداً. كان طوله لا يقل عن ثمانية أقدام، وعيناه جامدتان مثل عيني أفعى. توقّف ڤيج ومانيثو، بينما خطا نيال خطوة أخرى للأمام. دمدم سيميون محذّراً قبل أن يندفع الكائن فجأة نحوهم بسرعة مرعبة بقوائمه القصيرة.

سمع نيال هسيساً في الهواء، بالقرب من كتفه، وانغرس سهم في الفم المفتوح. أطلق الكائن صرخة ألم غريبة لا تختلف كثيراً عن نقيق الضفدع. اصطدم سهم آخر بظهره المدرع البني اللامع فصرخ مهدداً، وتحركت قوائمه القصيرة مثل مائة ذراع غاضب فمنح الرماة فرصة لإطلاق سهامهم على منطقة البطن اللينة، وقد اندفع أحد السهام بقوة هائلة ليختفي مثل ريشة داخل بطنه سمعوا صوته وهو يصطدم بالغطاء المدرع من الداخل. دُهشوا حين واصل الكائن تقدمه معتمداً في حركته على قوائمه الخلفية. ثم قفز أضحم البحارة للأمام وسدد رمحه بكل ما أوتي من قوة بين الفكين المفتوحين. التقط ذهن نيال وميض رد فعله الغريزي، وهو الإدراك المفاجىء بأن الموت بات حتمياً، فتوقف، ثم استدار وهرع بسرعة ملحوظة في الاتجاه العكسي تاركاً خلفه خيطاً من الدم الأحمر الوردي وقطرات من سائل أخضر. راقبوه وهو يزحف نحو الصخور عند حافة الطريق

وقد أعاقت السهام المغروسة فيه تقدمه. تذكر نيال فجأة الحيوان الذي حاول مهاجمته حين نام تحت الصخرة القريبة تحميه شجيرة شوكية. أحس بحدسه أن ذلك الحيوان هو هذا الكائن الذي يبحث الآن عن مكان يموت فيه.

انتابتهم جميعاً نوبة من الحماس، ولم يعد الحر خانقاً، واختفى الإجهاد مع عضلات أقدامهم، وتلقى البحّار الذي رمى أول سهم التهنئة من الجميع، وراح الآخرون يشرحون بالتفصيل كيفية انتظارهم اللحظة المناسبة لإطلاق السهام، والزاوية الدقيقة التي اخترقت فيها سهامهم البطن. ملأوا زجاجات من ماء الحوض المثلج وشربوا بنهم، ثم صبوا باقي الماء فوق رؤوسهم وصدورهم. وجلسوا تحت شريط الظل الضيق عند سفح الصخرة وأعدوا وجبة من الخبز والبصل.

استغرق سيميون في التفكير، ثم قال:

ـ ما الدافع الذي جعله يهاجمنا رغم إدراكه بأننا نفوقه عدداً؟

قال نيال:

ـ من المرجح أنه يعتبر هذا المكان وطنه.

ـ لكن الآبار وعيون الماء ليست مطلقاً أرض أي حيوان، فالجميع يستخدمها.

ثم تطلع سيميون إلى الصحراء بشجيراتها ونباتات الصبار وقال:

ـ أشك أنه قد واجه بشراً من قبل، وقد وجد أن من السهل إرهابهم.

ـ ماذا، في هذا المكان؟

ـ ولم لا؟ لقد كنت تقيم في الصحراء.

ذلك صحيح. حدق نيال في موجات الحر التي تومض فوق الرمال، وتساءل عمّا إذا كانت هذه الصخور والشجيرات تخفي فتحات لجحور تحت الأرض. وما عدد البشر الآخرين المنكمشين خوفاً في الكهوف تحت الأرض، أو حتى في مدن تحت الأرض في المناطق القاحلة؟ اتخذ قراراً بأن يجد يوماً ما وسيلة للاتصال بهؤلاء المشردين ليؤكد لهم أن بوسعهم الإقامة مرة أخرى في الأماكن المفتوحة، كبشر أحرار.

استأنفوا بعد أن استرخوا وجدّدوا نشاطهم لمدة ساعة، مسيرتهم. واختفت عند العصر الصحراء الحمراء ليحل مكانها الحصى البركاني الأسود وأحجار البازلت، وانعطف الطريق بين الشجيرات الشوكية، وجنبات الطرفاء، إلى الغرب، ورأوا البراكين عند الجانب البعيد لأرض النمال. مرت أربع ساعات، ودنت الشمس من الأفق الغربي، وهم يسيرون فوق الرمال، فعرف نيال أنهم اقتربوا من أرضه. بدأ الرجال يشعرون بالإرهاق، ولكنهم

ساروا بنشاط متجدّد حين أبلغهم أنهم باتوا قريبين من هدفهم، وزادت حماستهم عندما أيقنوا أنهم سيعودون إلى وطنهم في الغد. فقد أثار خلاء الصحراء في قاطني المدن إحساساً بأنهم يضيعون وقتهم هباء.

بدأت النجوم الأولى تظهر في الجهة الشرقية من السماء حين رأى نيال مجموعة نباتات الصبار الإبري المألوفة التي أثارت انفعال ڤيج فانطلق باتجاهها. لوح لهم بيديه بعد عشر دقائق وهو يقف تحت صبّار اليتوع الذي كان ينمو عند مدخل الجحر.

ـ إنه ما يزال مغلقاً.

وجدوه حين لحقوا به يستخدم حجراً مفلطحاً للحفر في الرمال التي تراكمت فوق المدخل بكميات هائلة، مما يشير إلى حدوث عاصفة رملية مؤخراً. تولّى الحمّالون الذين يحملون الجواريف مهمة الحفر، بينما ذهب الآخرون للبحث عن وقود، ونصحهم نيال بألا يتحركوا فرادى خشية أن يتعرضوا لخنفساء نمرية، أو عقرب ـ فالقليل من الكائنات الصحراوية يشن هجوماً على أكثر من رجل. اصطدم جاروف بصخرة حين تصاعد لهب النار الموقدة ليختلط بهواء الليل، ووجد نيال نفسه ينظر إلى الحجر المفلطح الكبير الذي غطى مدخل الجحر. اكتشف في الحال أن الحجارة التي أغلق بها المدخل ما تزال في مكانها. أمسك مانيثو وسيميون بالمشاعل، بينما أزاح نيال وڤيج الحجارة وحفرا بأيديهما توقع نيال انبعاث رائحة عطنة، لكنهم اشتموا بعد إزاحة الصخرة الأخيرة التي سدت المدخل رائحة الخنافس النمرية المألوفة الممزوجة برائحة سُكنى البشر المميزة. أخذ نيال المشعل من يد مانيثو وهبط إلى الظلام. وجد كل شيء على حاله كما تركه يوم رحيله، ورأى فوق فراش أبيه هيئة إنسان ما تزال ملفوفة بقطعة قماش. ولكن حين تحامل على نفسه وأزاح القماش وجد أنه ينظر إلى محجرين في جمجمة. لقد تحلل اللحم بسرعة من فوق عظام أولف، وسط الجو الحار في الجحر، مخلفاً مجرد هيكل عظمي مكسو بشرائح عطنة من القماش.

أنزلوا التابوت إلى الجحر، ثم رفع نيال وڤيج الفراش بأكمله بحشية العشب ونقلاه بعناية إلى داخل التابوت المبطن بالحرير. نحى نيال عاطفته جانباً وركّز ذهنه لمنع الهيكل العظمي من التفكك، ولكن حين انعكس ضوء المشعل فوق الأسنان الأمامية ورأى الفرجة الصغيرة بين الشفتين، وقد كانت تضفي سحراً على ابتسامة أبيه، غمره فجأة إحساس بفقدان عزيز غالٍ فجلس بجوار التابوت ودفن وجهه في راحتيه وبكى كما لم يبك منذ كان طفلاً. لم يبذل ڤيج أية محاولة لتهدئته، بل أن خديه تخضبا بالدموع. وحين كفكف نيال

عبراته ووضع يديه العظيمتين على شكل صليب أحس بالراحة والارتياح، كما لو أنه قد أجرى اتصالاً مع روح أبيه المتوفى.

أخرجا التابوت من الجحر، وأراد نيال أن يتمدَّد أبوه تحت النجوم قبل أن يُغلق الغطاء عليه للأبد. لكنه أخذ قطعة القماش من الجحر ووضعها فوق التابوت ليترك الجمجمة فقط مكشوفة. فقد بدا من غير اللائق أن يترك ريح الليل تعبث بعظامه.

كان نيال يخطِّط منذ أن بدأ الرحلة لقضاء ليلة أخيرة في الجحر والنوم فوق فراشه. لكنه أدرك وهو يجلس أمام النار ملفوفاً ببطانية ليقي نفسه برد الليل والريح التي راحت تهب من الشمال الغربي أنه من غير الممكن أن ينام تحت الأرض، فقد تعود على الريح وهي تلفح وجهه. جلس هو وفيج بعيداً عن الآخرين، وراحا يأكلان ويشربان باقتصاد، ووجدا من الصعب عليها تصديق عودتها إلى الصحراء، ووقوع أحداث عديدة في غضون ثلاثة أشهر، منذ كان هذا المكان موطنهما. ولكن حين أنشد البحارة أغانيهم الشجية - وهي الطريقة الخاصة بهم لإظهار احترامهم للرجل الذي ينعكس ضوء القمر فوق عظام وجنتيه - تدلت جفون عيونهما، وامتزجت ذكريات الماضي مع تطلعات المستقبل التي جسدتها أحلام اليقظة. اقتربا من النار وجذبا البطاطين حول أكتافهما وغرقا في نوم عميق. وسرعان ما لفّ البحّارة الذين أجهدتهم الرحلة الطويلة الصمت، ثم غلبهم النوم.

أيقظت طقطقة اللهب نيال، فقد وضع أحدهم شجرة «كريوسوت» في جمرات النار الخامدة. عرف أنه سيميون الذي جلس القرفصاء ولفّ معطفاً من الفراء حول كتفيه. رأى في الظلام كائناً ضخماً يتحرَّك بين الصخور فعرف من حركته غير المتناسقة أنه عقرب ذكر كبير، من المحتمل أنه كان يراقبهم وينتظر اللحظة المناسبة لشن هجوم عليهم، لكنه تراجع الآن واختفى في الظلام.

استلقى نيال على ظهره، وتطلع إلى النجوم. لقد علمه السيد ستيج طريقة تمييز النجوم الكبيرة والكوكبات: النجم القطبي، الدب الأكبر والدب الأصغر، الكلب والأسد. كان النجم القطبي قريباً الآن من الأفق الشمالي، وفوقه الدب الأكبر، وهذا يعني أن الفجر سينبلج في غضون ساعتين تقريباً. تعقّب خطاً يمر وسط نجوم كوكبة الدب فوجد أن «النسر الواقع» قريب هو الآخر من الأفق. تلألأ في جو الصحراء الصافي كالماس الأزرق. كان الانفجار الهائل الذي وقع منذ مائة وخمسين مليون سنة قد ألقى بأبواغ النباتات الامبراطورة باتجاه المجموعة الشمسية. فما الذي حدث للنباتات التي ظلت فوق «أ - ل - ٣»؟

هل حققت الآن أقصى هدف لتطورها وأصبحت كائنات خارقة؟ أم هل اختفت وحلت مكانها أنواع أخرى؟

استطاع أن يميز برجي العقرب والميزان فوق الأفق الجنوبي، ورأى تحت الأفق مباشرة الظُّلمان، وراح يفكر في البشر الذين عاشوا فوق هذا الكوكب البعيد. وطبقاً لما قاله السيد ستيج فإن مناخ «الأرض الجديدة» يشبه في أشياء كثيرة مناخ كوكبنا، وأن نسبة الأوكسيجين إلى النتروجين في الجو هي نفسها على وجه الدقة. وأقام البشر المستوطنات فوق الكواكب الأخرى الدائرة في مجموعتهم، بل بنوا أيضاً مدينة ذات قباب فوق القمر الخالي من الهواء.

لكن ستيج لم يقل له شيئاً حتى الآن عن تاريخ هؤلاء الرواد، ولم تتح لنيال الفرصة للاستفسار عن ذلك. تملكه الفضول وهو مستلق يحدق في السماء، وصاغ مائة سؤال. أثمة أشكال أخرى للمياه الزكية فوق الأرض الجديدة؟ هل بإمكان رجالها ونسائها الحياة دون صراع؟ هل ظلوا كما هم دون أن تطرأ عليهم تغييرات جسمانية في بيئتهم الجديدة؟ هل لهم أي أعداء طبيعيين؟ هل لديهم أشجار ونباتات مثل تلك التي على الأرض؟ وبحار وأنهار؟ ولكن الأهم من ذلك، هل نجحوا في حل مشكلات الطبيعة البشرية المستعصية التي جعلت تاريخ الإنسان عبارة عن سجل من الوحشية والحماقة، مثير للإحباط؟ هل علمهم الهروب من الأرض، والمصاعب التي واجهتهم لاستحداث حضارة جديدة استغلال العقل وإيقاظه ومنعه من النوم مرة أخرى؟

أدرك الآن أن هذه كانت مشكلة البشر الأساسية. فحين واجهوا المخاطر والصعوبات تعلموا القتال على نحو رائع، ولكن بمجرد أن انتصروا فقدوا كل الأرض التي حصلوا عليها وغرقوا في الكسل وأصبحوا ضحايا للتفاهة. وبدوا عاجزين عن الحفاظ على الشعور بالإلحاح. وكأن الجميع مصابون بداء النوم. ولو أن بشر «الأرض الجديدة» قد حلّوا هذه المشكلة لكانوا أقرب للآلهة منهم للبشر.

ألقى سيميون بمزيد من الخشب في النار، واعتدل نيال ليأخذ وضع الجلوس فسأله سيميون:

ـ أتحب أن تتناول مشروباً ساخناً؟

أومأ بالإيجاب. وزحف نحو النار، وربض بجانبها وقد لف نفسه بالبطاطين؛ فقد كانت رياح الصحراء مثل مدية. وضع سيميون خليطاً من الأعشاب المجففة في ماء مغلي. ظهر ضوء شاحب فوق الأفق الشرقي.

..

ـ هل بقيت مستيقظاً طوال الليل؟

ـ لا. ولكن شيئاً أيقظني، له عيون حمراء.

نظر سيميون إلى الصبار الإبري، فقال نيال:

ـ من المحتمل أن يكون عقرباً بنياً يعيش تحت الصخرة، فقد كاد يلتهم «مارا» حين كانت طفلة.

امتعض سيميون وشعر بالاشمئزاز، ثم قال:

ـ أظن أنني أفضل الحضارة.

جلسا يدفئان أيديهما فوق الأكواز الساخنة ويتنفسان البخار ذا العبير. نفخت الريح في قطع الخشب فزاد اشتعالها. استغرق كل منهما في أفكاره لفترة، ثم قال سيميون:

ـ ألم تتساءل مطلقاً عن سبب اصرار سيد العناكب على التظاهر بأنها ذكر؟

ـ لأن سيد العناكب اسم يثير الرعب في النفوس بشكل أكبر من سيدة العناكب.

ـ أجدهما في الحالتين سيئين.

ـ إننا نعتقد أن الرجال أكثر قدرة على فعل الشر من النساء. ويبدو أن البشر، لسبب ما، يعجبون بالذين يثيرون خوفهم.

ـ ذلك تسليم سيء بالأمر.

ـ لقد تعلمت ذلك في البرج الأبيض. إن الأمر الأساسي الذي صدمني في تاريخ البشر هو أن معظم القادة العظام مهووسون بالقتل، بل إنهم أطلقوا على أنفسهم أسماء مثل إيفان الرهيب وعبد الله اللعين، ومن المفترض أن هذا مديح لهم، وكلما كانوا أكثر إثارة للرعب تزايد عدد المعجبين بهم. في الواقع أن البشر يتسمون بقدر كبير من الغباء.

نظر إليه سيميون بطرف عينه وقال:

ـ إذن ألم يكن من الأفضل تركهم تحت هيمنة العناكب.

ـ كلا. لأنه مهما كان غباء البشر فإنهم بحاجة إلى الحرية التي من خلالها يمكن أن يصبحوا أقل غباء. إنهم يتعلمون بالتجربة والخطأ، ويحتاجون إلى من يسمح لهم بارتكاب الأخطاء، وإلى التفكير في حلول لمشكلاتهم. أتظن حقاً أنه من الأفضل أن يظلوا عبيداً لدى العناكب؟

ـ لا. ولكنك قلت بنفسك إنك شعرت بالاستياء وهم يضربون رؤوسهم في الأرض في كل مرة تسير من أمامهم.

ـ نعم، وهذا هو التناقض الظاهري الغريب للطبيعة البشرية. إنهم يريدون الحرية

أكثر من أي شيء آخر في العالم، ومع ذلك فبمجرد أن ينالوها، يرغبون في إعطائها لزعيم. إنهم دائماً يبحثون عن شخص يعجبون به. وهذا لأن كل البشر يتوقون إلى الإحساس بالغرض من الصراع. ولأنهم لا يملكون ذلك فإنهم يريدون تسليم حريتهم لشخص بمقدوره منحهم هذا الإحساس. ولكن هذا لا يعني أنهم في وضع أفضل بدون الحرية. فذلك يعني فقط أنه يتعين عليهم أن يتعلموا البحث عن الغرض داخل أنفسهم.

ـ ولكن كيف ستعلمهم أن يفعلوا ذلك.

ـ لا أدري. ولكني سأجد الوسيلة عاجلاً أم آجلاً.

ـ أظن أنك لا تفضل أن تكون حاكماً؟

ـ لا أحب ذلك، إنه عمل شاق. ولكن يتعين أن يقوم به شخص آخر يعلِّمهم طريقة تنظيم حياتهم وإعادة بناء مدينتهم وتربية أطفالهم. لقد حاولت العناكب سلب ذكائهم. وافترض أن وظيفتي تكمن في محاولة رده إليهم. وإذا ما نجحت في تحقيق ذلك فلن يكونوا بحاجة إلى حاكم.

ـ إنهم بحاجة دائماً إلى حاكم لأنه بمثابة عذر للكسل، بل إنه من الممكن أن يكون البشر الأذكياء كسالى. إنني لا أسخر من البشر. فكلما فعلت من أجلهم المزيد ازداد تبجيلهم وإعجابهم بك، وأصروا على التطلع إليك. إنهم يجدون متعة في ضرب رؤوسهم بالأرض. لماذا يريدون وضع رفات أبيك في ضريح ضخم، على ما تظن؟ ليجدوا شخصاً آخر يوقرونه ويعجبون به.

أذهلت الملاحظة نيال فاستدار والتفت إلى التابوت الذي تلألأت مقابضه المصنوعة من الذهب المصقول تحت أشعة الشمس. ثم ضحك فجأة وهب واقفاً:

ـ نعم، إنك على صواب، بطبيعة الحال. لقد كنت أحمق فلم أدرك ذلك.

حملق سيميون فيه وقد اعترته الحيرة وسأله:

ـ تدرك ماذا؟

مال نيال، وهز أقرب رجل من كتفه، وكان أحد حاملي التابوت.

ـ عليك بإيقاظ الآخرين، وأبلغهم بأن يذهبوا ليجمعوا المزيد من الوقود.

خمن سيميون ما يدور في ذهنه فقال له:

ـ أتعتقد أن هذا التصرف يتسم بالحكمة؟

ـ أنا على يقين من ذلك، بالإضافة إلى أنه ما كان سيرقد بارتياح في وسط المدينة.

ـ ولكن ماذا عن أمك؟

ـ سوف تتفهم الأمر.

جلس ڤيج بعد أن أيقظه ما يحدث وفرك عينيه، ثم تساءل:

ـ ماذا يحدث؟ هل حان وقت الرحيل؟

ـ ليس بعد. انهض وساعدني في حمل هذا!

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأضعه في المكان الذي ينتمي إليه هنا في الصحراء. أتريد حقاً أن ترى أباك مدفوناً في مقبرة من الرخام؟

نظر ڤيج إليه بحيرة للحظة ثم هز رأسه علامة النفي وقال:

ـ لا. إنني لم أحبذ الفكر مطلقاً.

نهض واقفاً، وحملا معاً التابوت ونقلاه إلى وسط النار فحطّم بثقله شجيرات الكريوسوت نصف المحترقة، واستقرّ في وسط اللهب. بدأ الطلاء يتقشّر، ثم يحترق ويتحول إلى لهب، بينما تطاير الشرر الأحمر حوله. ألقى نيال بغطاء التابوت فوق اللهب. وحين عاد الرجال حاملين شجيرات الكريوسوت والخشب الجاف أمرهم بإلقائه في النار. تزايد حجم النار بعد عشر دقائق، واضطروا إلى الوقوف بعيداً عنها، وعندئذ اختفى التابوت وسط اللهب.

شعر نيال بالابتهاج وهو يرى رفات أبيه يتحول إلى دخان ورماد. وأصبح الأسف والأسى ينتميان للماضي، والبشر مغرمون بالتعلق بالماضي. وهذا اللهب جعله يحكم بالمستقبل.

التفت إلى مانيثو عندما هدأت النار وتحوّلت إلى كومة من الرماد المتوهِّج وقال له:

ـ أصدر الأوامر للرجال بجمع أغراضهم. لقد حان وقت العودة إلى الوطن.

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

مؤلفات كولن ولسون

ضياع في سوهو	ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
المعقول واللامعقول في الأدب الحديث	ترجمة أنيس زكي حسن
أصول الدافع الجنسي	ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
اللامنتمي	ترجمة أنيس زكي حسن
ما بعد اللامنتمي	ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
القفص الزجاجي	ترجمة سامي خشبة
طقوس في الظلام	ترجمة فاروق محمد يوسف
سقوط الحضارة	ترجمة أنيس زكي حسن
رحلة نحو البداية	ترجمة سامي خشبة
الشعر والصوفية	ترجمة عمر الدايراوي
الحالم	ترجمة سامي خشبة
إله المتاهة	ترجمة سامي خشبة
الإنسان وقواه الخفية	ترجمة سامي خشبة
الشك	ترجمة يوسف شرورو
خفايا الحياة	ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد
ما بعد الحياة	ترجمة محمد جلال عباس

تصميم الغلاف:
نجاح طاهر



